بافلوف وفرويد

دراسة نقدية

تأليف: هارى ونيلز
ترجمة: شوقى جلال

الجزء الثانى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٧٨

الفصل الأول

سيجموند فرويد

ولد سيجموند فرويد بعد سبع سنوات من ميلاد بافلوف ، أى فى السادس من مايو عام ١٨٥٦ ، ببلدة صغيرة اسمها فرايبرج من أعمال مورافيا التى أصبحت فيما بعد احدى مقاطعات النمسا ، وهى الآن جزء من تشيكوسلوفاكيا • وفرويد الابن البكر لأبويه جاكوب وأماليا فرويد وكان جاكوب تاجر صوف ، وآماليا زوجه الثانية التى لم تناهز نصف عمره • وعائلة فرويد ، الأبوان والأجداد والأعمام والأخوال وأبناء الاخوة والأخوات ، كانت تمثل قطاعا هاما من بين يهود فرايبرج الذين يبلغ تعدادهم آنذاك اثنين فى المائة من جملة سكان البلدة •

ولد سيجموند بعد أن أصبح أبوه « مفكرا حرا » وكف عن حضور القداس • اذ أصبح يؤمن ايمانا راسخا أن العلم كفيل بأن يفسر كل الغرائب ، وأن العقل البشرى سيخلق يوما ما عالما متحررا من الأهواء المغرضة يعيش فيه الناس جميعا سواسية • ونعرف أن أسلاف جاكوب اضطروا الى الهجرة هائمين هنا وهناك عبر القارة الأوروبية هربا من الاضطهاد والمذابح ، بيد أن جاكوب كان على يقين من ان أفكار الثورة الفرنسية « الحرية والاخاء والمساواة » سوف تتحقق فى نهاية المطاف • وتراءى للناس طوال ثلاث سنوات عقب ثورة ١٩٤٨ أن النمسا تخطو حثيثا نحو هذا الاتجاه ولكن ما ان عادت الملكية حتى عاشت النمسا حقبة طويلة من الزمان فى ظل اجراءات رجعيــة ممعنة فى رجعيتها • كان من بينها صور عنيفة من العداء للسامية • واضطر جاكوب تحت ضغط هذه الظروف الى أن ينزح بأسرته الى ليبزج أولا حيث مكث بها عاما ، ثم انتقل الى ليوبولد شتاد أو فيناجيتو ، حيث استقر به المقام هناك طوال حياته • وكان سيجموند قد بلغ من العمر آنذاك أربع سنوات •

تعلم فرويد القراءة والكتابة والحساب فى البيت ، اذ لم يذهب سيجموند الصغير الى المدرسة الا بعد أن ناهز العاشرة من عمره حيث التحق بمدرســة

تعادل المرحلة الاعدادية وكان طوال أيام دراسته بالمدرسة يعود الى بيته حاملا كل الجوائز المخصصة للمتفوقين ، كما تخرج من المدرسة العليا وهو فى السابعة عشرة من عمره وقد حصل على مرتبة الشرف الأولى ٠ ووجد نفسه فى هــذه المرحلة المبكرة من عمره يواجه مشكلة جادة وخطيرة ألا وهى اختيار مجال الدراسة الذى يحدد له مستقبل حياته العلمية والعملية ٠

كان فرويد الشاب طالبا مجدا ، مكبا على عمله ، نهما فى قراءته ٠ وبرع فى عدد من اللغات منها اللاتينية واليونانية والانجليزية والعبرية٠ووقع اختياره أول الأمر على دراسة العلوم الطبيعية ـ وتحدد اختياره هذا تحت تأثير الثورة الفكرية السائدة عن نظرية التطور لداروين ، كما أنه كان متأثرا بوجه خاص بقصيدة جوته عن « الطبيعة » : « أيتها الطبيعة أستحلفك مرات ومرات أن تقدمى لنا الاجابة عن كل أسرارك » ٠ بيد أن دراسة العلوم « البحتة » لم تكن ميسورة لأى يهودى من سكان فينا ، اذ لم يكن لليهود آنذاك أن يدرسوا سوى التجارة والقانون والطب ٠ ومن ثم اختار فرويد الطب والتحق بجامعة فينا فى ختام عام ١٨٧٣ ٠

لم يكن شغوفا بالطب بل بدا عازفا عنه كارها له كرها شديدا ٠ ومن ثم واصل دراسته للطب بهمة فاترة حتى أنه قضى ثمانى سنوات للحصول على درجة البكالوريوس فى الطب٠بيد أنه قضى جل هذه الفترة داخل معمل الفسيولوجيا ٠ ومن ثم يمكن القول أنه استطاع بصورة غير رســـمية أن يعد نفسه لمستقبله العلمى ٠ ولم يصدر عنه هذا لولعه الشديد بالعلوم فحسب بل بدافع من عالم وأستاذ فذ وهو ارنست بروك ٠

كان الأستاذ بروك يشغل منصب مدير معهد الفسيولوجيا بالجامعة ، وواحدا من زعماء الحركة العلمية النضالية المعروفة آنذاك باسم مدرسة هلمهولتز الطبية ٠ وأسس هذه الحركة أربعة من علماء الفسيولوجيا العالميين : اميل دى بوا وهيرمان هلمهولتز وكارل لودفيج وأرنست بروك ٠ رهن هؤلاء العلماء حياتهم لنضال لا يلين ضد المذهب الحيوى بكل مفاهيمه الغيبية عن « القوى الحيوية » و « الجوهر » و «القوى النفسية» و «الكمال» أو «الانتلخيا» والتفسير الغائى للتطور الحيوى ٠ وكانت هذه الحركة التى يتزعمها العلماء الاربعة تنكر الغيبيات وتلتزم نهجا ماديا ٠ وغدا فرويد الفتى من أشياع بروك ومدرسة هلمهولتز ، مؤمنا ثابت الايمان فى غيرة وحماس ٠ ومن ثم تحلل فى هذه الفترة من ربقة الأفكار الغيبية واقتفى فى دراساته الفسيولوجية آثار المنهج العلمى والنظرة المادية ، ملتزما بالعهد الذى أخذه مؤسسو تلك الحركة على أنفسهم ، وهو العهد الذى أصبح حجر الزاوية للمنهج المادى المعاصر فى البحث الفسيولوجى : « ليس ثمة قوى فاعلة داخل الجسم سوى القوى الطبيعية الكيميائية » ٠ واذا عرضت لنا حالات يتعذر علينا تفسيرها فى ضوء هذه القوى فعلى الباحث اما أن يكتشف الصيغة أو الطريقة النــوعية لنشاط هــذه القوى مسترشدا بالمنهج الطبيعى الرياضى أو أن يفترض قوى أخرى جديدة لها نفس القدر من الشرف والجلال اللذين تتميز بهما القوى الكيميائية العضوية كخصائص أصيلة فى المادة ويمكن ردها الى قوة الجذب والطرد ٠ » ×

× ارنست جونز : « سيجموند فرويد ـ حياته وأعماله مجلدا ـ نيويورك ١٩٥٣ ـ ص ٤٠ ٠

ويرتبط ارتباطا وثيقا بهذه الحركة الدينامية فى الفسيولوجيا اتجاه تطورى خاص . اذ ان مئات من الباحثين كرسوا جهدهم لملء الثغرا الماثلة فى معارفنا عن التطور النوعى للكائنات الحية ابتداء من الكائنات وحيدة الخلية الى الحيوانات الراقية ومنها الانسان . وهنا أيضا كان الاهتمام مركزا على الطاقة الطبيعية والعلة والمعلول مع الرفض الكامل لكل القوى غير المادية ولمحاولات التشبيه بالانسان والتدبير الغيبى . واتخذت هذه الحركة من داروين نورا هاديا لها ، وكانت حقا حركة تتسم بطابع الاثارة والتحدى ، وانخرط فرويد الطالب ضمن صفوفها . وهو ما عبر عنه ارنست جونز مؤرخ حياة فرويد بقوله : « وهكذا أصبح فرويد لفترة من الزمن مفكرا ماديا راديكاليا » (*) . ولقد رصد فرويد النصف الأول من حياته لعلمى الفسيولوجيا والأعصاب بيد أنه لم يحقق نجاحا يذكر فى أى من المجالين .

فرويد عالم الفسيولوجيا والأعصاب

بعد عامين تقريبا من الدراسة بالجامعة بدأ فرويد عام ١٨٧٦ أول سلسلة من أبحاثه العلمية الأصيلة والتى امتدت الى ما يقرب من عشرين عاما . واقترح عليه كارل كلوس مدير معهد التشريح المقارن أن يقوم بدراسة عن الغدد التناسليه الذكرية لثعبان الماء . ولم يكن قد تيسر حتى ذلك الوقت العثور على ثعبان ذكر كامل النمو ومن ثم لم يسبق لأحد أن رأى خصية ثعبان من ثعابين الماء . وقضى فرويد عاما بأكمله داخل معمل المعهد وفى المحطة البحرية لميناء تريستا ، فرغ بعده من تشريح ما يقرب من أربعمائة ثعبان . بيد أنه لم يصل الى نتيجة ايجابية الا أن دراساته قادته الى اكتشافات أخرى هامة بحيث أن الأستاذ كلوس كتب عنها تقريرا الى أكاديمية العلوم فى فينا ونشر له تلك الدراسة فى مجلة الأكاديمية . وبهذا صدر أول بحث يحمل اسم فرويد من بين أبحاثه العلمية الكثيرة .

وفى عام ١٨٧٦ التحق فرويد ، وهو فى العشرين من عمره ، بمعهد بروك للفسيولوجيا وعهد بروك الى فرويد بمهمة البحث الميكروسكوبى للنسيج الخلوى للخلايا العصبية . وامتدت دراسته هذه خمس سنوات خلص منها بعديد من الملاحظات والأحكام الهامة ، وعرضها عرضا موجزا فى عدد من التقارير تكاد فى مجموعها تشكل صيغة لنظرية النيورون (العصبة) . Neurone Theory وقرأ بروك هذه التقارير فى دورات أكاديمية فيينا ثم صدرت بعد ذلك فى مجلة الأكاديمية . وهكذا أصبح فرويد أحد الرواد الأوائل المغمورين لنظرية النيورون التى تشكل حجر الزاوية فى علم الأعصاب الحديث .

أحرز فرويد أثناء أبحاثه هذه تقدما فى مجال تكنيك البحث العلمى يتمثل فى جانبين : أولا تعديل صيغة رايخرت Reichert Formula فى اعداد النسيج العصبى للبحث الميكروسكوبى ، ثانيا طريقة كلوريد الذهب لصبغ النسيج العصبى .

عول فرويد طوال ابحاثه هذه كلها على الميكروسكوب وحده دون التجريب . ويبدو أن الملاحظة الدقيقة المتأنية هى ميزته المفضلة وموطن قوته . ذلك لأنه

× نفس المرجع ــ ص ٤٣ .

طوال هذه الاعوام العشرين من حياته العلمية نأى بنفسه عن تحمل أعباء التجربة الا في بضع حالات استثنائية . ونذكر من بين هذه التجارب دراسته التجريبية في معمل سولومون ستريكارعام ١٨٧٨ . فقد عنى ستريكار أساسا بالعمل على تحويل علم الامراض من دراسة وصفية الى علم تجريبي ، ومن ثم فقد عهد الى فرويد في معهد ستريكار للباثولوجيا بمهمة اجراء عدد من التجارب على الغدد السنحيه Acinous Glands . وفي عام ١٨٧٩ قدم ستريكار تقريرا الى الأكاديمية ذكر فيه أن فرويد درس هذه الغدد دراسة تجريبية على مدى ست شهور بيد أنه خرج منها صفرا . وعاد فرويد مرة أخرى الى دراسته الميكروسكوبية وقد ازداد اقتناعه أكثر من ذي قبل بأن من الخير له أن يحصر نشاطه في نطاق الملاحظة .

وأخيرا حصل عام ١٨٨١ على درجته الجامعية في الطب ، بيد أنها لم تؤثر في حياته أي تأثير مباشر حيث أنه لم يتعجل العمل كطبيب ممارس . وواصل عمله بعد ذلك في معهد الفسيولوجيا على مدى عام ونصف ثم رشح لشغل وظيفة معيد وهو عمل يتحمل بمقتضاه بعض المسئوليات التعليمية . وكان يتوقع لو أن الأحداث تسير في مجراها الطبيعي والسوى أن يترقى في مدارج هذا العمل — مدرسا ثم أستاذا مساعدا وأخيرا أستاذا للفسيولوجيا في معهده الأثير الى نفسه . بيد ان عددا من العوائق سدت عليه الطريق ، أولها وأهمها تلك العقبه الكؤود ألا وهي العداء للسامية . فلم يكن لليهودى أن يطمح في شغل مهنة تعليمية في مجال الفسيولوجيا . وثانيها أن بروك كان له اثنان من المساعدين الشباب وليس على فرويد الا أن ينتظر حتى يستقيلا أو يموتا . ثالثا ، كان فرويد عاطلا من أي مورد مالي يمكنه من ان يفي باحتياجاته طوال أعوام الانتظار ، اذ فقد أبوه رأسماله الصغير اثر الأزمة المالية عام ١٨٧٣ وبات لزاما على الطالب الشاب ان يرهق كاهله بالديون وفاء بمصاريف تعليمه . وأخيرا أنه التقى بصديقته مارثا بيرنايز وتعاهدا على الزواج .

وهكذا كان على فرويد أن يفكر جديا في سبيل يتكسب بها قوت يومه . ووجد أن المخرج الوحيد من هذه الضائقة العمل بأسرع ما يمكن على انشاء عيادة طبية خاصة به ، وهو الأمر الذى اقتضى منه الالتحاق باحدى المستشفيات حيث يجد بها فرصة لممارسة العمل ومقاما للسكنى . ومن ثم استقال فرويد من معهد بروك عام ١٨٨٢ والتحق بمستشفى فينا العام حيث قضى بها فترة الامتياز التى امتدت ثلاثة أعوام . ولقد كان قرارا صعبا على نفس الطبيب العالم الشاب الذى رأى نفسه يستبدل العلم « التطبيقى » بالعلم « البحت » . ولكن لم يكن أمامه في واقع الأمر فرصة كبيرة للاختيار .

عمل بالمستشفى لمدة ستة شهور بقسم نوثناجيل للأمراض الباطنية ثم انتقل منه الى عيادة تيودور ماينبرت للطب العقلى . وكانت هــذه هى الخبرة الوحيدة الدقيقة التى أتيحت له طوال حياته في مجال الطب العقلى . وأحس في نفسه عزوفا ينأى به عن كل من نظام المستشفى وعلاج المرضى سواء فى العلاج الباطنى أو العقلى . وخلص من هذا الى أنه « لم يخلق ليكون طبيبا » . وانطلاقا من هذه الفكرة اقتنع ماينبرت بأن يسمح له بالعمل داخل معمله حتى يتسنى له العودة على الأقل الى ممارسة نشاطه العلمى .

وعكف فرويد في معهد بروك على بحث التطور الارتقائى للنخاع الشوكى وهنا أيضــا كان محور دراســـته على مدى عامين التطور الانطولوجى للمخ

وبخاصة النخاع المستطيل ، ابتداء من الطفولة حتى البلوغ • وخرج من دراسته هذه بثلاثة أبحاث نشرها في مجلة علم الأعصاب حيث بدأت شهرته تذيع كواحد من علماء الأعصاب المبرزين •

وفي عام ١٨٨٥ تحقق أمل فرويد بشغل وظيفة مدرس خارجي لعلم الأعصاب بجامعة فينا اذ أتم مسوغات تعيينه في هذه الوظيفة بأن اجتاز كل الامتحانات التحريرية والشفهية وألقى محاضرة عامة عن « الجهاز النخاعي للمخ » •

ولم يقنع بروك ، هذا العالم الكبير ، بان يرعى برشيحه لتلك الوظيفة بل تحمس في شفاعته وتزكيته له أمام مجلس الكلية مما كان له أكبر الأثر في فوزه على جميع المرشحين المنافسين له • وكان فرويد يبلغ آنذاك التاسعة والعشرين من العمر •

وتلقى فرويد منحة علمية خارجية بعد شغله لمنصب مدرس بالجامعة نظرا لجهوده في البحث العلمي • وقضى أربعة شهور وتصف بمعمل شاركو في السالبترير Sâlpetrière بباريس •

كان جين مارتا شاركو واحدا من أبرز علماء الأعصاب في القرن التاسع عشر • شغل منصب أستاذ التشريح الباثولوجي بكلية الطب بجامعة باريس ثم عمل مديرا لعيادة سالبترير للأمراض العصبيه • وأم هذه العيادة طلاب من جميع أنحاء العالم أملا في الدراسة على يديه • وعنى في الأعوام الأخيرة من حياته بدراسة الأشكال الوظيفية للأمراض العقلية اى تلك الامراض التي لا يلازمها أى تلف عضوى سواء بسبب مرض أو اصابة جراحية •

درس فرويد في عيادة السالبترير مرض الهستيريا وبخاصة الشلل الذى يصاحب هذا المرض في بعض الحالات • وعرف كيف يميز بين الشلل العضوى والشلل الوظيفي وسرعان ما اشتهر بقدرته على التمييز بين المريض العضوى والمريض الهستيرى بمجرد النظرة السريعة • وعرف أن علة الحالة الأولى هى اصابة بدنية ، ولكن ما هى علة الشلل الهستيرى ؟ توجه بسؤاله هذا الى دكتور شاركو وتلقى اجابته بأن السبب هو اصابة ديناميه ولكن المعنى الوحيد الذى أفاده من اجابة استاذه أنها اصابة « غير مرئية » •

ومنذ هذه اللحظة وعلى مدى عشر سنوات كانت حياة فرويد موزعة ما بين الرغبة في مواصلة أبحاثه ودراساته في علم الأعصاب وبين التماس معنى كلمة « غير مرئى » و « الاصابة الدينامية » باعتبارها علة المرض العقلى الوظيفى • وطبيعي أن أصبح المرض العقلى الوظيفى هو شغله الشاغل ومحور نشاطه الذى رصد له أربعين عاما من حياته •

وقبل أن يغادر فرويد السالبترير تهيأ لترجمة آخر مؤلفات شاركو « محاضرات جديدة عن أمراض الجهاز العصبى » • وتميز فرويد بسرعته في الترجمة ومن ثم فرغ من عمله هذا في يوليو ١٨٨٦ •

وأنجز خلال هذه الفترة مشروع كتاب عن علم الأمراض العصبية ولكن لم يتمه • وشرع بعد ذلك بفترة وجيزة في تأليف كتاب عن تشريح المخ بيد أنه هجر هذا العمل أيضا •

وتلقى فرويد ، قبل عودته الى باريس ، دعوة لشغل منصب مدير عيادة الأمراض العصبية في معهد جديد لأمراض الأطفال في فينا ، وقبل الدعوة وعاد

الى وطنه يمارس عمله الجديد سنوات عدة · ثم شغلته مهام أسرته ومهنته لفترة امتدت خمس سنوات · ولم ينشر خلال هذه الفترة سوى دراسة واحدة عن حالتين نادرتين من العمى النصفي المتصاوب Hemianopsia لدى الأطفـال (عام ١٨٨٨) ·

وعنى فرويد بعض الوقت بمشكلة فقدان النطق أو شلل الكلام وأصدر عام ١٨٩١ كتابا عن هذا الموضوع تحت عنوان « فقدان النطق » والذى يمثل اسهاما رائعا فى مجال علم الأمراض العصبية · وبدأت شهرته تذيع ويتسع مجالها كطبيب مبرز للأمراض العصـبية · وأصـدر خلال السنوات الأربع التالية ثمانى دراسات ومقالات عن شلل المخ Cerebral paralysis عند الأطفال وهى الدراسات التى آكدت وضعه عميدا لأطباء العالم فى هذا المجال · وجاء الاعتراف بوضعه هذا حين اعتزم العالم الكبير دكتور فوثناجل كتابة « موسوعة الطب » الشهيرة فعهد الى فرويد بكتابة الفصـل الخاص ب « شلل المخ عند الأطفال » ·

بيد أن فرويد لم يفرغ من مهمته هذه حتى عام ١٨٩٧ · وكان هذا هو آخر اسهام قدمه لعلم الاعصاب وللعلم المادى حسب تراث معلمه بروك ومدرسة هلمهولتز فى الطب · ولقد كان غارقا قبل هذه الفترة فى البحث عن العلة غير المرئية أو الاصابة الدينامية غير المادية التى افترض شاركو أنها علة العصاب · وهكذا وبعد أن بلغ فرويد عامه الواحد والأربعين انطفأ الأمل فى مستقبل علمى رائع فى ميدان علم الأمراض العصبية · بيد أن أسم فرويد سيظل على الرغم من ذلك منقوشا فى حوليات علم الأعصاب ·

البحث عن الاصابة الدينامية

بعـد أن درس فرويد على يد شاركو فى باريس توقف بعض الوقت فى هامبورج حيث عقـد قرانه على مارثا بيرنايز فى ربيـع عام ١٨٨٦ ، ثم رحل الزوجان الى فينا لتأثيث بيتهما وفتح فرويد مكتبا يباشر فيه علاج أولئك الذين يعانون من الأمراض العصبية ، وكان مكتبه هذا فى واقع الأمر حجرة اقتطعها من شقته المؤثثة تأثيثا متواضعا نظرا لأن الزوجين كان يعوزهما المال لتأثيث بيتهما أو تأثيث عيادة لممارسة العلاج الطبى · وعلق فرويد لافتة تحمل اسمه كاخصائى فى علاج الأمراض العصبية وقبع فى حجرته ينتظر مرضاه ·

بيد أن فرويد كانت تؤرقه هموم أخرى غير الهموم المالية · فقد تبين له أن القليل النادر من المرضى الذين يفدون الى عيادة اخصائى الأمراض العصبية هم الذين يعانون حقا من اصابات عضوية ، أما الأكثرية فهى حالات متغيرة من هذا النوع أو ذاك من حالات العصاب · اذن كيف له أن يعالج هذه الحالات اذا كانت طبيعية ، ناهيك عن شفاء ، هذا المرض الوظيفي غير العضوى غير المعروف له أو لغيره ؟ ويكمن وراء هذا الهم الذى يتعلق بممارسة العلاج السؤال النظرى التالى : لماذا يمرض أولئك الذين لا يعانون اصابة حقيقيـة ؟ وطبيعى أن حل المشكلة العملية لعلاج العصاب يتوقف أولا على الاجابة على هذا السؤال النظرى · بيد أن فرويد كانت تواجهه ضرورة وصف الدواء على الفور لعلاج مرضاه ومن ثم اضطر الى أن يحاول هذه الطريقة أو تلك ، دون نظرية ترشده ، عسـاه يهتدى الى ما من شأنه أن يخفف آلام مرضاه : سلفات الكينين وزيت التربنتين

والراحة والرياضة البدنيه والحمامات الدافئـة والحمامات الباردة والتـدليك والنظارات الملونة والشرارات الكهربية بيد أن كل هذه المحاولات ذهبت هباء ، ودفع المرضى أجر العلاج وانصرفوا دون ان يزايلهم الألم ٠

ظل فرويد على مدى عامين يتنقل متعثرا من فشل الى فشـــل حتى قرأ عام ١٨٨٨ كتابا نأى به مرة واحدة والى الأبد بعيدا عن كل أشكال العلاج الطبيعي والطبي ٠ وموضوع هذا الكتاب التنويم وصدر تحت عنوان « الايحاء وتطبيقاته في العلاج » لمؤلفه دكتور هيبوليت بيرنهايم ٠ ودكتور بيرنهايم واحد من الرعيل الأول من الطلاب الذين درسوا على يد شاركو ثم اشتغل طبيبـــا ممارسا فى مستشفى نانسى العام في فرنسا ٠ وحدث أن اهتدى الى طبيب من أطباء الأقاليم يدعى دكتور أ٠أ٠ ليبيولت الذى كان يستخدم الايحاء أثناء التنويم لعلاج المرضى العصابيين ٠ وعرض دكتور بيرنهايم فى كتابه على نحو تفصيلي الطريقة التى استخدم بها دكتور ليبيولت الايحاء التنويمى كوسيلة للعلاج وقال انه اقتنع بفعالية هذه الطريقة ٠ وهذه هى أول مرة منذ أيام مسمر الذى ذاع صيته نجد عضوا محترما يحترف الطب يأخذ الايحاء التنويمى مأخذ الجد ٠ وتأثر فرويد الى حد كبير بكتاب بيرنهايم خاصة بعد سلسلة المحاولات الفاشلة بحثا عن طريقة سـديدة ، ومن ثم قرر فجأة أن يجرب الطريقة الجـديدة مع مرضاه ٠ وأذهلته النتائج التى حصل عليها ، اذ استطاع خلال الأسابيع الأولى أن يشفى مرضاه بصورة تقترب من حد الاعجاز وسرعان ما طبق صيته آفاق مدينة فينا، وذاع اسم فرويد صانع المعجزات ٠

بعـــد هذه الومضة الأولى من النجاح عاوده من جديد احساسه القديم بالفشل اذ تبين له أن بعض المرضى لا يستسلمون للتنـويم على الاطلاق بينما غيرهم يكون تنويمهم سطحيا غير عميق ٠ وخلص فرويد من هذا الى أن تكنيكه يشوبه خطأ ما وأنه بحاجة الى خبرة تكون عونا له على عمله ٠ ومن ثم قرر زيارة بيرنهايم وليبيولت فى نانسى ٠ وسافر الى نانسى فى صيف عام ١٨٨٩ حيث قضى عدة أسابيع يرقب دكتور ليبيولت وهو يعالج فقراء الريف ، ويشاهد عن كثب دكتور بيرنهايم فى مستشفاه ، وأخذ بما رأى ٠ لقد كان تنويم المرضى يصل الى مرحلة الجوال النومى مع فقدان كامل للذاكرة ثم تبدأ بعد ذلك عملية الايحاء للمريض وأحيانا اصدار الأوامر له بحيث يبرأ المريض من الاحساس بأعراض المرض ٠ وكانت أعراض المرض تزايل المريض بعد ايقاظه ولو لفترة من الوقت على أقل تقدير ٠ وعاد فرويد الى فينا وقد ازداد حماسه أكثر من ذى قبل لمنهج الايحاء أثناء التنويم ٠ ولكن ما هو أهم بالنسبة لمستقبله أنه ، كما تقول كلماته هو ، « ايقن من احتمال وجود عمليات عقلية لها قوتها وفاعليتها وان ظلت على الرغم من ذلك خافية عن شعور الانسان » ٠ ×

وما أن عاد فرويد الى أرض الوطن وعاود علاجه للمرضى حتى بدأ حماسه يفتر ليفسح مجالا للشك رويدا رويدا ٠ وعلى الرغم مما حققه من نجاح رائع بين الحين والحين الا أنه لاحظ أن الشفاء فى هذه الحالات ذاتها لم يطل أمده ٠ وبدأ يقتنع أكثر فأكثر بأن الايحاء أثناء التنويم ليس فى واقع الأمر سوى خدعة نحتال بها على المريض ٠ ولكن ما هو أهم من ذلك أنه أدرك عن يقين أن المنهج

× سيجموند فرويد : « دراسة عن حياتى » ـ لندن ـ ١٩٥٠ ص ٢٩ ٠

المتبع ليس الا محاوله نتحسس بها طريقنا فى الظلام ، والنجاح والفشل هو المعيار الوحيد وهو ما من شأنه أن يقضى على كل محاولة جادة لدراسة العصاب وأسبابه دراسة علمية • ومن ثم لم يجد فى هذا المنهج أى عون له على اكتشاف « الاصابة الدينامية » التى حدثه عنها شاركو والتى كانت شغله الشاغل الذى ملأ عليه حياته •

وما أن خيل لفرويد أن بحثه انتهى به الى طريق مسدود تماما حتى تذكر محادثه دارت منذ أعوام بينه وبين صديق قديم هو دكتور جوزيف بروير • فقد قص عليه دكتور فرويد حالة هستيريا عالجها بطريقة غير مألوفة وحقق نتائج مذهلة ، وأخذ فرويد آنذاك بما سمع وما أن عاد الى باريس حتى قص على شاركو القصه كاملة • بيد أن أستاذه القديم لم يأبه للقصة ومن ثم أسقطها فرويد من اهتمامه • ولكن ها هو الآن فى عام ١٨٩١ يعود مرة أخرى الى دكتور بروير ليقص على مسمعه تاريخ الحالة برمتها • كان المريض امرأة فى شرخ الشباب سقطت مريضة وقتما كانت ترعى أباها الذى يحتضر ، وعندما أسلمت نفسها لدكتور بروير لعلاجها كانت تعانى من حالة شلل وأعراض كف وخلط ذهنى • واكتشف بروير مصادفة أن حالة التشوش الفكرى تزايل المريضة كلما تسنى لها القدرة على التعبير بالكلمات عن أحلام اليقظة التى تتملكها فى اللحظة ذاتها • ومن ثم نومها تنويما عميقا وطلب منها فى كل مرة أن تقص عليه كل ما يكدر فكرها ويثقله •

وقال بروير فى حديثه الى فرويد ان المريضة كانت عاجزة تماما فى حالة اليقظة عن اكتشاف أى رابطة بين اعراض المرض وخبراتها المتباينة فى حياتها ، بيد أنها فى حالة التنويم استطاعت أن تهتدى الى الحلقات المفقودة • وخلص بروير من هذا الى أن كل أعراض مرضها ترتد الى أحداث ترتبط بمرض أبيها وهى فى واقع الأمر استرجاع لتلك المواقف الانفعالية • وقال أيضا ان أكثر ذكرياتها تركزت حول بعض الأفكار أو الأعمال التى قمعت فى ظروف معينة • ورأى بروير أن الأعراض مظاهر بديلة للدوافع المكبوتة التى عانت منها المريضة أثناء حياتها • وخلص من هذا بنظرية مفادها أن العرض المرضى حل محل واقع لم يأخذ طريقه الى التحقيق العملى فى الواقع بسبب ظروف رعايتها لأبيها • مثال ذلك أنها حين تملكها دافع الرغبة فى الرفض أصابها شلل موضعى كمظهر بديل للرفض الحقيقى • وهذه هى الحالة الشهيرة المعـــروفة باسم « أنــا أو » Anna O •

وهنا أحس فرويد أنه اهتدى أخيرا الى ضالته المنشودة أى الاصابة الدينامية • فالظاهرة النفسية المرضية نجمت عن ضرورة قمع دافع قوى ، أما الأعراض البدنية فهى بدائل للسلوك الذى كان مقدرا له أنه سلوك ملائم لذلك الدافع • وكان حماس فرويد ودهشته لا تحدهما حدود ، وقرر أن اكتشاف بروير هو الحل لمشكلة « المرض غير المسبب » والمعروف باسم العصاب • بيد أن الأمر لم يقتصر على هذا فقط ، ذلك لأن بروير زعم انه اكتشف أيضا طريقة لعلاج المرض ، فقد افاد أن المريضة حين تذكرت الموقف أثناء التنويم وتمثلت كل الانفعالات الخاصة بالدافع المكبوت زايلتها أعراض المرض الى غير رجعة • وأطلق بروير على هذه الطريقة من العلاج اسم « التنفيس » Catharsis •

وما أن التقط فرويد دلالة منهج بروير حتى شرع يستخدمه فى علاج مرضاه • واضاف على مدى عامين اربع حالات الى حالة بروير واشترك الطبيبان فى اعداد كتاب بعنوان « دراسات عن الهستيريا » صدر عام ١٨٩٥ • وعرض المؤلفان فى المقدمة المشتركة الخطوط العامة لنظريتهما التى لم تكن بعد قد تبلورت فى صورة التحليل النفسى وانما تمثل خطوة كبيرة فى هذا الاتجاه • وأكدت نظريتهما على دلالة الانفعالات وأهمية التمييز بين الأحداث العقليـــة الشعورية واللا شعورية وأضافا أيضا عاملا ديناميا حين زعما وجود كمية ثابتة مما أسمياه « الطاقة النفسية » والتى لابد وان تجد لنفسها متنفسا • وقالا ان هذه الطاقة لو لم تجد لها متنفسا ، أى اذا ما كبحت فان قيمة الطاقة المعادلة لها تتبدى فى شكل عرض باثولوجى • واذا كان انحراف مسار « الطاقة النفسية » هو علة نشوء الأعراض المرضية فان منهج العلاج عن طريق التنفيس يهدف الى تصحيح ذلك المسار والعودة به الى الطريق السوى حيث يمكن افراغها • ويرى المؤلفان أننا اذا ما حققنا هذا الهدف فسرعان ما يزول العرض المرضى • وها هنا تكمن البذرة الأولى التى نبتت عنها فيما بعد نظرية التحليل النفسى فى عقل سيجموند فرويد •

بيد أن فرويد لم يكن قد تهيأ بعد للتخلى عن فكره العلمى الذى تمرس عليه فى الفسيولوجيا وعلم الأعصاب بحيث يدخل مجال علم النفس النظرى البحت • وبعد شهر واحد من صدور كتاب « دراسات عن الهستيريا » انكب بصورة محمومة على كتابة ما نعرفه الآن باسم « المشروع » • فقد كان فى صيف عام ١٨٩٥ يعانى الى حين من نقص فى عدد المرضى ومن ثم تفرغ للكتابة ليـــل نهار لعدة أسابيع وبعث بمسودة كتابه الى صديقه ويلهيلم فلايس وظل كتاب مقبورا بضع سنين ، ولم تكن الطبعة الانجليزية قد صدرت حتى عام ١٩٥٤ • ويمثل « المشروع » المحاولة الأخيرة واليائسة من جانب فرويد ابتغاء تثبيت أقدامه على أرض العلوم الطبيعية •

وكتب فرويد فى مقدمته « للمشروع » ما يلى : « يرمى هذا المشروع الى تقديم سيكولوجيا ستصبح علما طبيعيا فيما بعد : أى أن الهدف منه هـــو تصوير العمليات النفسية باعتبارها حالات محددة تحديدا كميا لجزيئات مادية ذات خصائص نوعية ومن ثم نجعلها واضحة خالية من كل التناقضات » • ثم أضاف قائلا : « أما الجزيئات المادية المشار اليها فهى عصبات المخ Neurones

ومسودة المشروع التى تقارب التسعين صفحة ، هى محاولة تأملية لصوغ فسيولوجيا للمخ مستخدما اصطلاحات نشاط الجهاز العصبى وأدائه الوظيفى • وليس الغرض هنا تتبع تفاصيل الحجج التى ساقها ولكن يعنينا فقط الاشارة الى أنه نسب الى عمليتى الاثارة والكف دورا اساسيا • وأطلق على الكف اسم « مبدأ سكون العصبات » Principle of neuronic inertia والدليل الوحيد الذى جاء به فى هذا الصدد قوله ان عملية كهذه ضرورية تماما اذا كان لنا أن نضع علما عن المخ • والكتاب فى جملته محاولة لاستنباط نظرية عن الاداء الوظيفى للمخ ، وهى محاولة بعيدة كل البعد عن الاستعانة بالحقائق التجريبية • ذلك لأن فرويد لم يكن لديه من سند سوى بضع معارف قليلة عن بنية ووظيفة الأجزاء العليا للمخ ، وحاول استنادا الى ذلك وضع بناء نظرى كامل وصولا

الى تفسير مادي لأهم ظواهر النفس ابتداء من الاحساس والادراك الى الفكر والانفعالات · ولكن فرويد ، وهو ما تكشف عنه المسودة بجلاء ، كان يدرك في ألم الطابع التعسفي لمحاولته هذه ، ومن ثم سرعان ما أقلع عن مهمته الى غير رجعة ·

يشبه « المشروع » الى حد ما وعلى نحو متواضع كتاب جيمس رش · ذلك لأن رش حين كتب رسالته « العقل البشرى » عام ١٨٦٣ كانت الدراسة التأملية النظرية عن العمليات الفسيولوجية التي يرتكز عليها النشاط العقلي تمثل مرحلة ضرورية ومفيدة لتطور علم المخ · فلم تكن علوم التشريح والأعصاب والفسيولوجيا قد تقدمت بما فيه الكفاية بحيث يتيسر اتخاذ نهج تجريبي كامل في دراسة الأداء الوظيفي للمخ · بيد أن الموقف عام ١٨٩٥ كان جد مختلف · اذ أن كل المقومات العلمية الضرورية كانت متوفرة وهي التي جعلت من دراسة فسيولوجيا المخ دراسة تجريبية أمرا ميسورا · ويشهد الواقع أنه في الوقت الذى كان فرويد منكبا فيه على كتابة دراسته الفسيولوجيا التأملية كان ايفان بافلوف قد شرع في تجاربه التى قادته الى اكتشاف الأساس الفسيولوجي للحياة العقلية عند الانسان · ان الاعتماد على التأمل النظرى وقتما يكون العلم غير ميسر شيء ، أما اصطناع بناء نظرى رغم توفر شروط ميلاد العلم فهو شيء آخر · ولهذا فان التأملات النظرية التي قدمها جيمس رش أو أ٠م٠ ستشينوف في الستينات هي علامات على الطريق الى العلم ، أما « مشروع » فرويد عام ١٨٩٥ فقد كان في واقع الأمر بديلا للعمل التجريبي الذى كان لازما وميسورا في ذلك الوقت ·

وليس معنى هذا أن فرويد كان ينبغي عليه ، أو كان قادرا على ، أن يفى بالمهام التجريبية اللازمة لوضع أساس فسيولوجيا الأجزاء العليا للمخ · حقا انه ما كان ليستطيع أن ينجز مثل هذا العمل ذلك لأنه لم يكن بأى معنى من المعانى باحثا تجريبيا متمرسا في ميدان البحث الفسيولوجي · فالمعروف أنه تخصص في دراسة تشريح الأعصاب حيث كانت الملاحظة من خلال المجهر ، وليس التجريب ، هى الركيزة الأساسية · وكتاب « المشروع » شاهد على ان فرويد كان عالما على قدر من الكفاية التى تسمح له بأن يعرف أين يلتمس الاجابة الحقة على أسئلته عن العصاب « كمرض ليس له علة » · بيد أن مأساته تكمن فى عجزه عن الوفاء بما هو ضرورى · انه كان قادرا على التأمل النظرى وحده وهو عين ما فعله فى كتاب « المشروع » ·

وكان بافلوف على العكس من ذلك ، اذ أن دربته هيأته للوفاء بالمهمة التاريخية فى بناء صرح علم النشاط العصبى الراقى · فحتى عام ١٨٩٥ كان قد قضى أكثر من عشرين عاما كباحث فسيولوجي تجريبى · وقاده منطق حياته وعمله الى اكتشاف قوانين حركة الأداء الوظيفي للمخ ·

واذا كان فرويد قد تخلى عن « المشروع » فان هذا يقوم شاهدا على حقيقتين عنيدتين أولا أنه حتى عام ١٨٩٥ لم يكن ثمة علم محكم ومكتمل لفسيولوجيا الأجزاء العليا للمخ ، ثانيا أن فرويد ذاته لم يكن مهيأ للاضطلاع بمهمة اكتشاف هذا العلم · ولكن كانت تؤرقه فى نفس الوقت رغبة محمومة فى اكتشاف علة العصاب · وقاده منطق حياته وعمله فى الأعوام السابقة مباشرة على «المشروع»

الجهيض ، الى التماس الاجابة على اسئلته في مجال آخر بعيد عن نطاق العلم التجريبي ·

أكتشاف التحليل النفسي

أصبح فرويد ابتداء من عام ١٨٩٥ مفكرا ثانويا فى نظرته الى البدن والعقل · اذ كان يؤكد عن يقين أن المخ هو عضو الحياة النفسية للانسان ، وأنه بدونه ينتفي الفكر أو الشعور · ولكنه كان يؤمن من ناحية أخرى ، وبنفس القدر من اليقين ، أننا ما دمنا لا نعرف غير النزر اليسير عن الأداء الوظيفي للمخ فان علم النفس يجب أن يسير وكأنه دراسة مستقلة تماما عن فسيولوجيا المخ · وكتب فى هذا الصدد عام ١٨٩٨ ما يلي : « اننى لا أنزع على الاطلاق الى الابقاء على الدراسة السيكولوجية محلقة فى الفضاء مثلما كانت من قبل دون أن ترتكز على أى ركيزة عضوية · بيد أن معارفي ، النظرية منها والعلاجية ، لا تتجاوز هذا الاعتقاد ، ومن ثم أجدنى مضطرا الى أن أسير وكأن ليس أمامى غير ما هو نفسى » (*) ·

أصدر فرويد طوال حياته العديد من الاحكام المماثلة والتي تذهب كلها الى أن علم النفس له أن ينهج فى دراسته لعقل الانسان نهجا مستقلا عن فسيولوجيا المخ طالما وأن هذا العلم الأخير لم يكتمل بعد · ولعلنا نجد أوضح هذه الأحكام في دراسة له عن « اللا شعور » كتبها عام ١٩١٥ حيث يناقش موقف نشاط العقل على المخ : « قدمت لنا الأبحاث العلمية أدلة قاطعة لا يمارى فيها على أن النشاط العقلي رهن بوظيفة المخ على نحو لا مثيل له بالنسبة لأى عضو آخر ·· ولكن لقد اخفقت تماما كل محاولة تستهدف الوصول من هذه الحقائق الى ما يفيد تمركز العمليات العقلية فى الدماغ أو تنظر الى الأفكار باعتبارها شيئا تختزنه الخلايا العصبية ، أو أن عمليات الاثارة تنتقل عبر الألياف العصبية ·· ثمة ثغرة هنا لا يمكن الآن ملؤها ، فضلا عن أن ملأها ليس من اختصاص علم النفس · ان طوبوغرافيا العقل البشرى لا تربطها الآن أى علاقة بعلم التشريح ذلك لأنها لا تتعلق بالمراكز التشريحية وانما بمناطق الجهاز العقلى دون النظر الى وضعها المحتمل فى البدن · ومن ثم فان عملنا ، انطلاقا من هذا الرأى ، لا يعوقه عائق يحول دون تقدمه وفق متطلباته الخاصة » (**) ·

كان فرويد على يقين من أن العلم سيكتشف يوما ما طبيعة الأداء الوظيفى للمخ والذى يرتكز عليه النشاط العقلى · ولم يكل أبدا من تحذير علماء النفس من « ضرورة التحرر من أى مفاهيم مسبقة غريبة عن الطبيعة التشريحية أو الكيميائية أو الفسيولوجية ، وعليهم أن يلتزموا دائما وأبدا فى دراستهم بالفروض النفسية الخالصة » × × × · لم يكن فرويد مفكرا ثانويا

× فرويد ـ رسالة ـ ١٨٩٨ · اقتبسها ارنست جونس فى كتابه « سيجموند فرويد ـ حياته وأعماله » · نيويورك ـ ١٩٥٣ ص ٣٩٥ ·

× × فرويد : الأبحاث الكاملة « مجلد ٤ » لندن ـ ١٩٥٣ ص ١٠٧ ·

× × × فرويد : الأعمال الكاملة ـ النسخة الألمانية ـ جـ ١١ ص ١٤ اقتباس أورده جونس فى كتابه « سيجموند فرويد ـ حياته وأعماله » مجلد ١ ص ٣٩٥ ·

من وجهة النظر الفلسفية ذلك لانه آكد أن النشاط العقلي يرتكز على الحركة الفسيولوجية داخل المخ . ولكنه مفكر ثانوى من الناحية الاجرائية حيث أنه إنطلق من الزعم القائل بأن فى مقدوره الكشف عن قوانين الحياة العقلية ، رغم قصور معارفنا عن المخ ، وذلك باللجوء الى « الفروض النفسية الخالصة » • لقد انطلق فى اجراءاته من النظرية القائلة بأن الحياة العقلية لا ترتكز على نشاط المخ ، بينما نجده فى ذات الوقت يدفع برأى فلسفى مفاده أن الأول يرتكز على الثانى • ان المشكلات التى واجهته أثناء ممارسته ورغبته المشبوبة فى اكتشاف الاصابة الدينامية دفعتاه الى اغفال الفلسفة والانحصار داخل نطاق السيكولوجيا الخالصة •

وما أن خرج فرويد عن منهجه فى « المشروع » حتى عاد ثانية يوجه كل اهتمامه الى مرضاه العصابيين • والتزم هنا فى معالجته لمرضاه بمنهج برووير ، ونعنى به منهج التنفيس يحثهم أثناء التنويم على أن يحيوا من جديد الانفعالات التى يظن أنها علة مرضهم ومن ثم يفرغ « الطاقة النفسية » التى تدعم الأعراض العصابية • ولكن مع مرور الوقت بدأت الشكوك تساوره بالنسبة لجدوى التنويم كوسيلة للتنفيس • اذ تبين له أن حالات الشفاء الظاهرية قد تتلاشى تماما اذا ما ساءت علاقته الشخصية بالمريض • ومن ثم قرر نتيجة لذلك التخلى تماما عن طريقة التنويم • ولكن أنى له البديل ؟

تذكر وهو يقلب الرأى بحثا عن اجابة تجربة شهد دكتور برنهام وهو يجربها • كان برنهايم يؤكد أن الذكريات تظل دفينة فى العقل البشرى ، وأننا نستطيع ، بالصبر والمثابرة ، أن ندفع بها الى مجال الشعور ، ولكى يقيم الدليل على صدق رأيه هذا طلب من أحد مرضاه أن يسترجع بعض خبراته التى صدمته فى حياته وظلت حتى ذلك الوقت طى النسيان ، وتذكرها المريض فى تردد أول الأمر ثم انطلق لسانه بفيض دافق من الكلمات وهو يروى خبراته • ولم يلجأ برنهايم هنا الى التنويم وانما اكتفى بأن شرع يحث المريض فى صبر ودأب وهو يربت فى حنو على جبهته • وعزم فرويد على أن يجرب طريقة « الحث » مع مرضاه •

كان السؤال الذى يواجه فرويد هو : كيف نسى المرضى كثيرا من وقائع حيواتهم الباطنية والخارجية ثم استطاعوا رغم ذلك كله أن يسترجعوها ثانية اذا ما استخدمنا معهم تكنيكا خاصا (طريقة حث المريض) ؟ × والتمس الاجابة على سؤاله فى ممارسته العملية ووجد فيها ما يشفى غلته اذ لاحظ فى كل حالة من الحالات أن ما نسيه المريض كان أمرا مؤلما له بشكل أو بآخر ، لقد كان الدافع النفسى أو الفكر أمرا يثير لدى المريض الخوف أو الخجل أو الاستياء ومن ثم لم يكن ليسمح له بالبقاء فى نطاق الشعور • وشرع ، انطلاقا من ملاحظاته هذه ، يضع أساس نظريته عن الكبت •

كانت الخطوة الأولى هى تفسير العملية العقلية السوية أو الصحية ثم ينطلق منها الى اعادة تصور نمو وتطور الحالة الباثولوجية •

× فرويد ـ « دراسة عن حياتى » ص ٥٠ •

تصور فرويد العمليه العقليه السويه على النحو التالى : اذا ما تولد فى عقل المرء دافع يثير الخوف او الخجل تنشأ معه فى ذات الوقت نوازع أخرى قوية تعارضه · وتتصارع هاتان القوتان ، الدافع والنوازع المعارضة ، ويدور الصراع ، كما زعم فرويد ، فى نطاق الشعور بحيث يكون المرء واعيا به تماما ، حتى يأتى وقت ينكر المرء فيه هذا الدافع وبالتالى يفرغ من « شحنته من الطاقة النفسية » · وهنا ينتهى كل شىء بالنسبه للعقل السوى ، ولا تترتب على ذلك أى آثار مرضية ما دام الدافع المرفوض قد أفرغ من شحنة الطاقة النفسية ·

والامر على العكس من ذلك فى حالة العصاب حيث تختلف نتيجة الصراع بين الدافع المخجل والنوازع المعارضه له كما صورها فرويد · فبدلا من الصراع الواعى والذى يحدث على أمد طويل بين القوتين فان الدافع لا يكاد ينشأ حتى تصده موانع عن الوصول الى نطاق الشعور · ولكنه هنا لن يفرغ من « شحنة الطاقة النفسية » ، ومن ثم فان الدافع بعد أن أصبح لا شعوريا يظل محتفظا بكل قوته · ولا يفتأ هذا الدافع المفعم بالشحنة النفسية يحاول أن يحتل مكانا فى الشعور حتى يجد فى نهاية الأمر طرقا غير مباشرة يفرغ من خلالها بعض شحنته · ويرى فرويد أن هذه الطرق غير المباشرة تشكل فى نهاية الأمر أعراض العصاب · ويطلق على هذه العملية اسم « الكبت » ·

ظن فرويد أنه اهتدى أخيرا الى الاصابة الدينامية التى حدثه عنها شاركو · اذن فان العصاب لا يرتكز على حالة فسيولوجية بل على حاله عقلية بحتة · فالكبت هو الميكانيزم العلى لما أسماه قبلا « المرض الذى لا علة له » · وابتهج فرويد اذ تكلل جهده بالنجاح التام ، كما اقتنع هو بذلك ، ولم يبق أمامه الا أن يستوفى تفاصيل نظريته ·

وسرعان ماتحولت « الدوافع المخجلة » كما سماها فرويد فى مرحلة تفكيره الاولى ، الى « الغرائز » فى نظريته بعد نضجها وبخاصة غريزتى الجنس والموت · وذهب أخيرا الى أن « الميول الأخرى القوية » كامنة فيما اسماه « الأنا الأعلى » أو الضمير · واستبدل اللا شعور كصفة الى « اللا شعور » الذى يشغل مكانا ما فى العقل · وهكذا أحكم نظريته عن الكبت فى الأعوام التالية لعام ١٨٩٦ ·

وكان أهم ما شغل بال فرويد آنذاك وضع طريقة جديدة لعلاج مرضاه العصابيين على ضوء ما تضمنته نظريته عن الكبت · فلو أن مريضا يعانى من عصاب فان هذا يعنى وفق نظريته أن ثمة دوافع وأفكارا مكبوتة فى اللاشعور ومحتفظة بشحنتها الاصلية من « الطاقة النفسية » · وهنا تصبح مهمة العلاج : ضرورة افراغ « الشحنة النفسية » أو العمل على تخفيف قوتها الضاغطة بطريقة مقبولة · ويلزم أولا الكشف عن الدافع المكبوت حتى يتسنى لنا تحقيق حالة من التعادل « لشحنة الطاقة النفسية » · وتقتضى هذه العملية الاخيرة اجراء تحليل مضن للنفس · وأطلق فرويد على هذه المحاولة لاستبطان النفس وسبر أغوارها اسم « التحليل النفسى » ·

وهكذا تم « اكتشاف » التحليل النفسى الذى تمثلت بوادره الأولى فى طريقة « الايحاء أثناء التنويم » وطريقة التنفيس اللتين استخدمهما بروير فى علاجه لحالة « أنا أو » ولكن لم تتحدد المعالم الأولية للتحليل النفسى الا عام ١٨٩٦ · وتطلب استكمال نظريته قرابة الأربعين عاما ·

فرويد يحكم صوغ نظرية التحليل النفسي

ظل فرويد يعمل وحده طوال الفترة الواقعة ما بين عام ١٨٩٦ ، وهو عام اكتشـــافه للتحليـــل النفسي ، وعـــام ١٩٠٢ ، وعاش فى عزلة تكاد تكون كاملة فهو من ناحية قطع صلته تماما بمهنة الطب حين التزم نهجا غير طبى فى علاجه للمرض العقلي الوظيفي ، ثم انه من ناحية أخرى لم يكن قد عثر على تلامذته الذين التفوا حوله فيمابعد باعداد غفيرة . لقد كانت فترة توحد امتدت الى ست سنوات رصدها لمرحلته الأولى من أجل احكام صوغ نظرية ومنهج التحليل .

وضع فرويد نظريته عن الكبت أثنـــاء استخدامه لطريقة حث مرضاه على الكلام لسبر أغوار عقولهم . ولكن سرعان ما اكتشف قصور منهجه فى التغلب على مقاومة المريض لتذكر موضوع الكبت . ووجد صعوبة شديدة لكى يرد الى نطاق الشعور الدوافع التى صدرت عنه قبلا وان احتفظت بما سماه « شحنة الطاقة النفسية » . واذا كان منهج الحث قد ثبت عجزه أمام مقاومة المريض فان منهج الايحاء أثناء التنويم استطاع أن يخفى هذه المقاومة . ووجد فرويد نفسه بحاجة الى منهج آخر يحطم ، او على الاقل يتحايل على ممانعة المـــريض لتذكر ما سبق أن صده قسرا عن دخول نطاق الشعور .

واهتدى فرويد فى تتابع سريع الى ثلاثة مناهج تفى بهذا الغرض : التداعى الطليق وتفسير الأحلام والطرح . ورأى فى هذه الطرق الثلاثة سبلا يحتال بها موضوع الكبت على مظاهر المقاومة لينفذ الى الشعور فى صورة مقنعة . وتؤلف تلك الطرق الثلاثة جوهر تكنيك التحليل النفسى الذى لا يزال مستخدما حتى يومنا هذا .

والتداعى الطليق محاولة تستهدف الافلات فى غفلة من الرقيب أو الضمير أو الأنا الأعلى عن طريق المستدعيات التلقائية التى تتم دون تدبر أو اتساق . ويتدرب المريض على الافصاح عن كل ما يرد الى خاطره دون حجب لأى فكرة أو تصور لأنه غير لائق أو محير . وخلاصة القول أن المريض يجب أن يتحدث فى طلاقة دون سابق تدبير ومن ثم يمكن للألفاظ والعبارات والتصورات الذهنية أن تفلت من الرقيب ويجد فيها المحلل زادا من الرموز التى يمكن له أن يؤولها على نحو يكشف له عن معناها اللاشعورى . ومحور تكنيك التأويل هو ترجمـــة الرموز النمطية أو ما يسمى لغة اللاشعور البدائية . وفن التحليل ذو شقين : أولا جمع مادة الموضوع من اللاشعور . ثانيا ، تأويل هذه المادة فى ضوء ترجمة الرموز التى تتضمنها . والتداعى الحر الطليق أحد وسائل تجميع المادة من اللا شعور لتأويلها فيما بعد .

ويرى فرويد أن الأحلام تؤدى وظيفة مماثلة فاذا كان التداعى الطليق يتضمن أفكارا عفوية فان رؤى الأحلام تزودنا بتلميحات رمزية تؤلف موضوع كل من التداعى الطليق والتأويل . وسمى فرويد رؤى الحلم « الحلم الظاهر » وما ترمز اليه هذه الرؤى « فكرة الحلم » ويلزم تأويل الخيالات الرمزية للحلم الظاهر لنصل الى فكرة الحلم . ويزعم أن فكرة الحلم هى التى تكشف لنا عن الرغبات اللا شعورية المكبوتة . واذا كان هدف التداعى الطليق السماح للفكرة اللا ارادية

بالنفاذ الى اللا شعور فى لحظة توقف الرقابة ، فان الاحلام بالمثل تخادع الشعور اثناء النوم ، وهو الفترة التي تتوقف فيها الرقابة نسبيا ، ومن ثم تسمح بمرور الدلالات الرمزية لمادة اللاشعور المكبوتة · واستخدم فرويد ، في ضوء هذا النهج رؤى الأحلام للحصول على المادة الرمزية التى يخضعها بعد ذلك لفن التأويل ·

والطريقة الثالثة التى ابتدعها فرويد وطورها للتحليل النفسى هى «الطرح» ان العلاقة الوثيقة بين المحلل والمريض والتى يكشف خلالها المريض عن مكنون نفسه تؤدى الى قيام علاقة عاطفية مشبوبة من جانب المريض تجاه المحلل تتدرج ما بين العشق الجنسى وبين الاستخفاف الشديد والكراهية المقيتة · ويفسر فرويد هذه الظاهرة بأن المريض يعيد تمثيل الانفعالات التى عاناها في موقف سابق وكبت ذكرياته عنها · ويذهب الى أن هذه الانفعالات المطروحة تزودنا بدلالات المادة اللاشعورية المكبوتة · وها هنا أيضـا يلزم اللجوء الى فن التأويل لفهم هذه الدلالات ·

ويرى فرويد أن طرق التحليل النفسى الثلاثة هي أولا وأساسا وسائل للحصول على مواد يتولى المحلل تفسيرها · ولقد فسرها وكأنها رسائل هيروغليفية تعبر عن حالات من الكبت اللاشـعورى لا سبيل الى الوصــول اليها بوسيلة أخرى ·

وتمثــل نظرية فرويد عن العصـــاب ركيزة طرق التحليل النفسى وفن النفسـير · اذ أن الأعراض العصابية ، مثل حالات الخوف المزمن أو الشـــلل أو غيرهما انما هى فى رأى فرويد بعض المسالك الخادعة التى تشقها عنوة الرغبات أو الدوافع أو الأفكار المكبوتة · والتى تحتفظ بشحناتها من « الطاقة النفسية » الثائرة أبدا ، لتفرغ هذه الشحنة اما فى شكل أعراض نفسية أو بدنية أو كليهما معا · أما عن العلاج فقد ذهب فرويد الى أن المشكلة هى أن نسمح لما هو لاشعورى بالنفاذ الى الشـعور · واذا تحقق لنا ذلك باستخدام الطرق الثلاثة للتحليل النفسى وتفسير محتواها فمن المقدر في رأيه أن تزول الأعراض ، وذلك لأن موضوع الكبت اذا ما دخل نطاق الشعور كما يذهب فى نظريته فان « شحنة الطاقة النفسية » تجد سبيلها للانطلاق ·

وكان كتابه الضخم « تفسير الاحلام » الذى صدر عام ١٩٠٠ تتويجا لمرحلة التوحد هذه · ويؤكد فرويد في كتابه هذا أن الأحلام تمثل خير بينة على صدق نظريته القائلة بأن الكبت مفتاح فهمنا لكل من الظواهر العقليـــة الســـوية والعصابية · وحيث أن الأحلام قاسم مشترك بين الناس جميعا ، المرضى منهم والأصحاء ، فقد أصبحت عنده محور مذهبه · ذلك لأن مؤسس التحليل النفسى لم يكن يهدف الى حصر مذهبه هذا فى نطاق العلاج النفسى ، وانما اراد له أن يكون فلسفة نفسية شاملة تفسر السلوك السوى والعصابى ، الاجتماعى والفردى كما تفسر الحضارة والعلم والفن · وأراد أن يتخذ من تفسير الأحلام (انظر الباب الثانى) برهانا على صدق ما ذهب اليه من أن الكبت هو مفتاح فهم الحياة العقلية بوجه عام ·

وفي عام ١٩٠٤ ظهر كتاب « العلاج النفسي وحياتنا اليومية » وهو أكثر كتب فرويد ذيوعا وتبسيطا . ويطبق في كتابه هذا نظريته عن الكبت على عديد من المظاهر السلوكيه اليوميه مثل نسيان اسماء الاشخاص ، وفلتات اللسان والقلم والتصرفات الخاطئه . تناول فرويد كل هذه الظواهر باعتبارها طرقا ملتوية ، مثل الاحلام وأعراض العصاب ، تسلكها الدوافع والافكار والرغبات المكبوتة لتأخذ سبيلها عنوة الى الشعور . مثال ذلك لو نسي امرؤ اسم شخص ما فان هذا يعني انه في أعماقه لا يحب هذا الشخص أو أنه يرغب في أن يزيحه بعيدا عن طريقه . ان العاطفة أو الرغبة التي سبق للمرء أن طردها من شعوره اعتراضا منه عليها تشق طريقها قسرا في صورة متنكرة على هيئه نسيان (انظر الباب الثالث) .

قدم فرويد حتى الآن خمس ظواهر تمثل عنده طرقا تسلكها موضوعات الكبت في صورة متنكرة لتجد لها منفذا الى الشعور ، وهذه الظواهر هي : التداعي الطليق ، والطرح ، والأحلام والأعراض العصابية والنسيان أو فلتات القلم واللسان وما شابه ذلك . وفي عام ١٩٠٥ أضاف اليها ظواهر أخرى ، وكانت هذه المرة « النكتة » والتي عرضها في كتابه «الدعابة وعلاقاتها باللا شعور» وعالج في كتابه الدعابة والنكتة والتورية على اختلاف اشكالها على نحو ما عالج الظواهر الخمس الأخرى أي باعتبارها مسارب تنفذ من خلالها موضوعات الكبت لتجد طريقها الى الشعور . ويذهب فرويد الى أن موضوع الدعابة هو أولا وأساسا التسرية والعدوان ، وأن الدوافع المكبوتة ورغبات العدوان والتسرية كثيرا ما تنفذ الى الشعور تحت ستار النكتة .

وهذه الظواهر الست — التداعي اللا ارادي والانفعالات المطروحة والأحلام والأعراض العصابية والنسيان والنكتة — هي في رأي فرويد طرق لخداع الرقيب الذي يحول دون الوصول الى الشعور .

الاعوام الاخيرة

رصد فرويد جل الأعوام العشرين الاخيرة من حياته لوضع الاطار الفلسفي الذي ترتكز عليه نظرية الكبت والطرق الست التي يتحايل بها الكبت للنفاذ الى منطقة الشعور . وأطلق على فلسفته اسم « ما وراء علم النفس » أو « الميتاسيكولوجيا » . وقدم فلسفته عن « ما وراء علم النفس » في عديد من المقالات والأبحاث المختصرة كما عرضها في كتبه التالية : « ما وراء مبدأ اللذة » (عام ١٩٢٠) ، سيكولوجيا الجماعة وتحليل الأنا (١٩٢١) ، « والانا والهو » (١٩٢٣) ، و « الحضارة ومساوئها » (١٩٢٩) .

كان فرويد وهو يصوغ فلسفته « ما وراء علم النفس » واعيا تماما أكثر من أي فترة أخرى في حياته بالطابع غير العلمي الذي يتسم به فكره . ولهذا نجده يتوقف في معرض حديثه عن احدى القضايا النظرية ليقول : « اذا كان عرضنا لما اصطلحنا على تسميته ما وراء علم النفس يتسم بالغموض فمرد ذلك بطبيعة الحال الى جهلنا بطبيعة عملية الاثارة التي تحدث في عناصر النظم النفسية واننا لا نستشعر طمأنينة اليقين ونحن نصوغ أي فرض خاص بموضوع

دراستنا • ومن ثم فاننا نجد أنفسنا نعالج كما كبيرا مجهولا نضطر معه الى ان نعيده مع كل صياغة جديدة » • × الا أن هذا لم يثنه عن محاولة صوغ مذهب شامل في علم النفس •

وتقتضي نظرية الكبت القول بوجود رقيب حارس يقف ما بين الشعور واللا شعور • ويسمي فرويد هذا الرقيب في مؤلفاته الأخيرة « الأنا الأعلى » كما يسمي اللاشعور « الهو » • والأنا الأعلى هو المثل الأعلى الذي يستخلصه الأنا الواعي من بين الأوامر والنواهي التشريعية والأخلاقية والدينية • ومن ثم فهو الضمير الذي جاء ذكره في مؤلفاته الأولى • ووظيفة الأنا . في ضوء متطلبات الأنا الأعلى ، كبت الدوافع الغريزية التي قد تهدد المثل الأعلى أو تثير صراعا معه •

ويمثل الأنا أو الشعور العقل والنور ، ويمثل الهو أو اللاشعور الطيش والظلام وهو قوة مجهولة • ويتوهم الانا ـ الشعور أنه يستجيب للعالم الخارجي وفق معارف صادقة أو ما يسميه فرويد « مبدأ الواقع بيد أن فرويد يرى في هذا خداعا للذات • ان الأنا الواعي بكل ما لديه من عقل وعلم انما يعمل في الغالب الأعم وبصورة مقنعة التزاماً بأوامر الهو اللا شعوري وغريزتي الجنس والعدوان أو الموت • وفي هذا يقول فرويد « ان حياتنا مسيرة التزاما بقوى مجهولة لا سبيل الى التحكم فيها » • ثم يردف قائلا عن الأنا الواعية « وهكذا فانها في علاقتها بالهو تشبه رجلا ممتطيا صهوة جواد عليه أن يكبح جماحه » •

ويبدو أن الدور الوحيد للوعي البشري هو تحصيل المعارف عن العالم الخارجي بيد أنه في جوهره عند فرويد خوض صراع أبدي ضد غريزتي الجنس والموت وما ينجم عن ذلك من كبت • والعصاب هو ثمن الحضارة بكل أوامرها التي تضع قيودا على اشباع غريزتي الجنس والموت مما يؤدي حتما الى الكبت • ومن ثم فكل انسان هو انسان عصابي بدرجة أو بأخرى •

أصبح فرويد تحت تأثير تأملاته الذاتية أكثر استخفافا بالحضارة وأشد ايمانا بسيطرة النزوات الذاتية على سلوك الانسان • وانتهى به المطاف الى أن قال : « انني الآن قادر على أن أنصت دون ارتياب لأولئك النقاد الذين يؤكدون لنا أن المرء الذي يقوم غايات الحضارة ووسائلها لا يسعه الا أن يخلص الى نتيجة واحدة وهي ان كل شيء لا يساوي الجهد المبذول من أجله وأن الحضارة لم تنتج لنا في نهاية الأمر سوى ما لا طاقة للانسان بتحمله •• ان شجاعتي تخونني كلما طافت بخلدي فكرة أن أنهض كنبي أمام رفاقي ، وأنحني خجلا ازاء تأنيبهم لي اذ لا أملك ما أقدمه لهم من عزاء • » × × وهكذا تحول ايمـــان العالم بسلطان المعرفة الى استخفاف مطلق •

وفي غضون هذه الفترة انعقدت في فينا حلقة دراسية برئاسة فرويد تحولت فيما بعد الى « جماعة فينا للتحليل النفسي » ، وتشكلت جماعة أخرى في زيورخ برئاسة س•ج• يونج • وغير فرويد من رأيه في هذا بقوله : « ان حملة الكراهية الرسمية ضد التحليل النفسي كانت نتيجتها أن أصبح رجال

× فرويد : ما وراء مبدأ اللذة ـ نيويورك ـ ١٩٥٠ ص ٣٧ •

× × فرويد : « الحضارة ومساوئها » ص ١٤٢ ـ ١٤٣ •

التحليل النفسى أقوى ترابطا » × وهكذا ألف رجال التحليل النفسى جماعات علميه خاصه بهم اثر ما لاقوه من احتقار وسخريه الدوائر العلميه والطبيــة والاكاديمية ٠

وانعقد فى سالزبرج عام ١٩٠٨ مؤتمر ضم جماعتى فينا وزيوريخ واتباعهما فى بلدان أخرى ومن بينهم ١٠١٠ بريل الاستاد بجامعه نيويورك ٠ ويعد هـذا المؤتمر فى واقع الامر ، وان لم يكن كذلك اسما بمثابة المؤتمر الدولى الافتتاحى للتحليل النفسى ، وكان المؤتمر الأول على بدايه طريق طويل لمؤتمرات سنويه استمرت حتى الفترة الراهنة ، باستثناء سنوات الحرب ٠ وتمخض المؤتمر الأول عن تأسيس الكتاب السنوى للتحليل النفسى الذى أفاد منه فرويد كوسيلة لنشر مؤلفاته ٠

شرع الاستاذ بريل خلال هذه الفترة فى ترجمة أعمال فرويد الى الانجليزية وبهذا ادخل التحليل النفسى الى الولايات المتحدة ٠ وزار فرويد الولايات المتحدة الامريكيه عام ١٦٠٩ بدعوة من ح٠ستانلى هول مدير جامعه كلارك وقدم سلسلة من خمس محاضرات استمع اليها كبار رجال علم النفس والأطباء العياديين واطباء الامراض العصبية ٠ ووجد فرويد نفسه ولأول مرة فى حياته موضع « توقير وتقدير » ٠ وتصب أحد كبار أساتذة جامعة هارفارد ، وهو الأستاذ ح٠ح٠ بوتنام نفسه مدافعا عن آراء وأفكار فرويد فى أمريكا ووجد التحليل النفسى موطنا له فى الولايات المتحدة الأمريكية على الرغم مما كان يواجهه من معارضه مريرة ٠

واتسعت حركة التحليل النفسى اثر الحرب العالمية الأولى وذاعت فى جميع أنحاء العالم الذى غمره فيض دافق من آدابها ٠ وتجاوزت تعاليم فرويد حدود الدراسات المتخصصة فى علم النفس العام وعلم النفس المرضى وأضحت فى واقع أمرها فلسفة شاملة لكل جوانب الحياة ٠ اذ أصدر فرويد سلسلة من الكتب والأبحاث طبق فيها نظريته عن الكبت « بجرأة على الجنس البشرى ككل » ٠ × × على حد تعبيره هو ٠ ومن أهم هذه الكتب : ليوناردو دافنشى (١٩١٠) والطوطم والمحرمات (١٩١٣) وموسى والواحدية (١٩٣٩) وعرض فرويد بايجاز فى هذه المجلدات وفى عدد آخر من الدراسات المختصرة آراء التحليل النفسى بالنسبة لعديد من مجالات الفكر البشرى ٠ فقد تناول بالبحث موضوعات شتى منها أصول المجتمع والأخلاق والدين ونظريات التاريخ والأمة والفن وطبيعة الحرب ٠ وحسبنا هنا أن نشير اشارة عاجلة الى الطابع العام الذى تميزت به جهوده فى بعض هذه المجالات ٠

رصد فرويد كتابين هما « الطوطم والمحرمات » و « موسى والواحدية » لعرض نظرية التحليل النفسى عن أصول المجتمع والأخلاق والدين ٠ وبنى آراءه هنا على أساس نظريات اثنولوجية لم تتأكد صحتها اذ كان يتلقف أى نظرية اثنولوجية يتراءى له أنها تتلاءم وأغراضه على الرغم من أنها أصبحت موضع استهجان من قبل علماء الاثنولوجيا ٠ وقال دفاعا عن منهجه هذا : « اننى أولا وقبل كل شيء

× فرويد : « دراسة عن حياتى » ص ٩١ ٠

× × فرويد : الأبحاث الكاملة مجلد ٥ ص ٣٠٢ ٠

لست عالم اثنولوجيا بل عالم تحليل نفسى : ومن ثم كان من حقى أن انتقى من بين المعطيات الاثنولوجية كل ما أراه مفيدا لأبحاثى التحليلية » • × وهكذا نراه يقتبس كل ما يبدو مفيدا لوجهة نظره ويتخذه أساسا لنظريته عن نشأة المجتمع والأخلاق والدين •

ويقدم فرضا قد نخاله فرضا خياليا بيد أنه استخدمه ليؤكد أن ثمة معامل ارتباط بين مجموعات من الظواهر لا رابط بينها • ويستهل عرضه بطرح مفهومه الأساسى عن أن الانسان كان في البدء يعيش وسط « عشيرة بدائية متنقلة » • تخضع لنظام أبوى • « ولم يكن ثمة غير أب فقط غيور يستأثر بكل الاناث ، ولا يكاد أبناؤه يشبون عن الطوق حتى يطردهم خارج العشيرة •• وحدث ذات يوم أن التأم شمل الاخوة المطرودين واجتمعت كلمتهم على قتل أبيهم فقتلوه والتهموه وبذا وضعوا حدا لعصر العشيرة الأبوية •• وحيث انهم كانوا أفظاظا من آكلة لحوم البشر فمن البديهى أنهم التهموا فريستهم بعد أن قتلوها •• وقدر للوليمة الطوطمية ، والتى ربما كانت أول احتفال بشرى ، ان تصبح تذكارا تتكرر معه هذه الفعلة الشنعاء التى كانت بداية لأفعال أخرى كثيرة ـ التنظيم الاجتماعى والقيود الأخلاقية والدين » • × ×

وقال فرويد نقلا عن جوته « فى البدء كان الفعل » بيد أنه فعل غادر خسيس تمثل فى قتل الأب • وذهب فرويد الى أن جريمة قتل الأب زعيم العشيرة أدت الى بناء مجتمع على أساس عقد اجتماعى من نوع خاص ، اذ أدرك الابناء وكل الأخوة غير الأشقاء أن المصير الذى حل بالأب سوف يحل بالضرورة بأبنائه من بعده مالم يؤلفوا حلفـــا فيما بينهم يحرم القتل والزواج من داخل القبيلة • وهكذا نشأ التنظيم الاجتماعى فى رأى فرويد والذى ارتكز على قاعدتين من النواهى الأخلاقية تحددتا نتيجة جريمة قتل الأب • لقـد كانت نشأة المجتمع والأخلاق نتيجة لازمة عن قتل الأب وغشيان المحارم •

ويكمن وراء هذه النظرية رأى فرويد عن نمو الفرد الذكر • فالصـــبية الصغار ، أو الأطفال بمعنى أصح ، يحبـــون أمهاتهم ولكنهم يكرهون آباءهم ويوقرونهم فى آن واحد • والأب منافس للابن فى حب الأم • وهذا هو ما عبر عنه فرويد « بعقدة أوديب » الشهيرة ومن ثم يتمنى الابن موت أبيه بيد أنه يكبت هذه الرغبة وتكمن فى اللا شعور محتفظة بكل « شحنة الطاقة النفسية » • ويتوقف جانب كبير من مستقبل الابن على مدى نجاحه فى حـــرف رغبته اللا شعورية فى غشيان المحارم ورغبة الموت وتوجيههما نحو غايات اجتماعية مقبولة • بيد أن هذه الرغبات تشق طريقها عنوة الى الشعور عن طريق الأحلام أو فى شكل عصاب •

ويفسر فرويد الدين بأنه احساس بالذنب نشأ لدى جماهير الناس منذ عصور ما قبل التاريخ أثر جريمة قتل الأب • وتحول الأب البدائى القتيل الى صورة اله ، وما « الخطيئة الأولى » الا ذكرى جريمة قتل الأب الاله • والوليمة

× فرويد : « موسى والتوحيد » ـ نيويورك ١٩٤٩ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ •

× × فرويد : الطوطم والمحرمات » نيويورك ، ١٩٥٢ ص ١٤١ ـ ١٤٢ •

الطوطمية والتناول المسيحي ما هما الا شعيرتين يعيد بهما الانسان تمثيل الجريمة والتهام الاب البدائي . ويسمي فرويد مثل هذه الشعائر « الاسطورة العلمية عن اب العشيرة البدائية » .

ويقول فرويد « كان المجتمع قائما آنذاك على مبدأ التواطؤ في الجريمة المشتركه وكان الدين قائما على الاحساس بالذنب وما يتبع ذلك من احساس بالندم . اما الاخلاق فكانت ترتكز من ناحية على المتطلبات الضروريه لذلك المجتمع وترتكز من ناحية أخرى على الاحساس بالذنب والحاجه الى التكفير عنه » .

ويذهب فرويد الى أن عقدة أوديب ، أو علاقة الانسان بأبويه ، هي منبع المجتمع والاخلاق والدين ، اذ لا علاقه بين هذه الأمور الثلاثه من حيث نشأتها وتطورها بعملية الانتاج في المجتمع أو بالعلاقات الناشئة بين الناس على أساس أسلوب الحصول على الطعام والملبس والمأوى . ويؤكد فرويد أن « الاصول التي نشأ عنها المجتمع والدين والأخلاق تتركز كلها في عقدة أوديب » .

وحين طبق فرويد التحليل النفسي على « الجنس البشرى » زعم أن ثمة « عقلا جماعيا تجرى بداخله العمليات الذهنية على نحو ما تجرى بداخل عقل الفرد » . × فالاحساس بالذنب الناشىء عن جريمة قتل الأب البدائي أصبح على مدى آلاف الأعوام بمثابة « ذاكرة سلالية » لها شحنتها القوية الفعالة . وهكذا فان كل فرد يرث مع تعاقب الأجيال الاحساس بالذنب في شكل ذاكرة مكبوتة داخل اللا شعور . ان جذور النوازع الجنسية الطفلية وعقدة أوديب هي جذور فطرية فطر عليها الانسان منذ زمان سحيق وتوارثها حتى يومنا هذا وترجع أصولها الى الذكرى المكبوتة عن تلك الأفعال البدائية المتمثلة في غشيان المحارم وقتل الأب وأكل لحوم البشر والقسوة السادية .

ومن ثم كان طبائع السـلالة البشرية والانسـان الفرد انما تشكلت في جملتها ، حسب رأى فرويد ، نتيجة لعقدة أوديب . بل ان عقدة أوديب ليست فقط علة نشأة المجتمع والاخلاق والدين بل علة حركتها جميعا . انها في رأى فرويد هي القوة المحركة للتاريخ

وترجع حركة التاريخ أساسا الى ما يتمتـع به عظماء الرجـال من نفوذ وسطوة ، وسبب ذلك أن الجماهير تشعر بحاجتها الى الخضوع لسلطة بديلة لسلطة الأب « اننا لا يراودنا أدنى شك في الأسباب التي من أجلها يصبح كبير القوم ذا سطوة ونفوذ فنحن نعرف أن الغالبية العظمى من البشر تتطلع الى سلطة تكون موضع اعجابها ، ومن ثم تسـلم لها قيادها وتكون لها السـيادة والسيطرة عليهم حتى وان أساءت معاملتهم أحيانا . ولقد أوضح لنا علم النفس الفردي منشأ هذه الحاجة لدى الجماهير ، انها التطلع في شوق الى الأب ، وهي الرغبة التي تعيش بداخل كل منا منذ طفولتنا الباكرة ، وهو ذات الأب الذي يفاخر بطل الأسطورة بمصرعه . وها قد وضح لنا الآن أن كل القسـمات التي تسبغها على الرجـل العظيم انما هي سـمات الأب ، كمـا وضح لنا أن في هذا

× فرويد : « الطوطم والمحرمات » ص ١٤٦ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .

التماثل يكمن جوهر خصائص الرجل العظيم والذى عز علينا ادراكه منذ زمان طويل ٠٠ اذ لابد وأن يكون محط اعجابنا وموضع ثقتنا ولكن لا نملك الا أن نهابه أيضا » ٠ ×

ويرفض فرويد كل مفهوم عن التطور الارتقائى فى علم التاريخ ويعود بنا الى نظريه « الرجل العظيم » كنتيجة حتمية لعقدة اوديب لدى الجنس البشرى والفرد على السواء ٠ ويرى أن حتما علينا الالتزام بهذه النظرية عن التاريخ نظرا لأنها ترتكز على البنية المفترضة للجهاز العقلى الفطرى للانسان ٠

وحدث أن التمس البرت اينشتين من فرويد عام ١٩٣٢ كتابة رسالة يدعو فيها الى السلام ، فوجه فرويد اليه خطابا مفتوحا قال فيه عن الحرب : انى اخالها أمرا طبيعيا تماما اذ أنها ترتكز على أساس بيولوجى مكين ومن ثم لن يتسنى لنا تجنبها عمليا الا بشق الأنفس » ٠ × × واستطرد فى رسالته موضحا أن ثمة أساسا اخر وهو أساس سيكولوجى متمثل فى شكله غريزة العدوان أو التدمير أو غريزة الموت . فهذه الغريزة هى علة الحروب ومحاكم التفتيش فى الماضى وهى السبب فى أن الحرب « لايمكن تجنبها مستقبلا الا بشق الأنفس » ٠ ويحدثنا فى رسالته عن « غريزة للكراهية والتدمير والتى تلتقى فى منتصف الطريق مع جهود تجار الحروب » ٠

ويوجز فرويد فى رسالته الى اينشتين نظريته عن الغرائز فيقول : « ان الغرائز البشرية نوعان فقط حسب الفرض الذى ذهبنا اليه : « غرائز تستهدف الحفاظ والتوحيد ٠٠ وغرائز تستهدف التدمير والقتل والتى نضعها جميعها تحت عنوان غريزة العدوان أو التدمير ٠٠ وبعد تأمل يسير انتهينا الى أن هذه الغريزة الاخيرة ذات نشاط وفعالية لدى كل كائن حى وتعمل على تدميره والعودة بالحياة الى صورتها الأولى مادة مواتا ، ولهذا فهى أحق بأن نسميها غريزة الموت ٠ » وبعد أن فرغ من حديثه الى أينشتين عما يسميه « نظريتنا الاسطورية عن الغرائز » أحس ، على ما يبدو ، ببعض الخجل اذ تذكر ماهية محدثه الذى يدلى اليه بملاحظاته ، فأردف قائلا على عجل : « أحسب أن قد يتراءى لك وكأن نظرياتنا نوع من الأساطير ومن ثم لا تكون شيئا مقبولا ٠ ولكن ألم ينته كل علم الى نوع مماثل من الأساطير على هذا النحو ؟ ألا يحق لنا أن نقول نفس الشىء عن نظرياتك فى الطبيعيات ؟ واذا كان فرويد يرى العلوم جميعها وقد استحالت الى أساطير فانه يجد فى رأيه هذا شفيعا لوضع علم نفس اسطورى يبرر الحرب ٠ فليست الحرب نتاجا لبنية المجتمع فى مرحلة محددة من مراحل تطوره وفى ظل ظروف اجتماعية معينة وانما هى نتاج غرائز الانسان وبخاصة الجماهير « غير المتحضرة » ٠

لقد كان فرويد كشخص مناهضا للحرب ويرى فى نفسه داعية للسلام٠ ولكن المشكلة عنده أن دعاة السلام قليلون وثمة من الاسباب ما يبرر ندرتهم ٠ ويؤكد فرويد فى رسالته الى اينشتين أن داعية السلام هو من ينكر اشباع غرائزه ودوافعه الفطرية ويتخذ لنفسه أهدافا ثقافية حضارية بديلة لها ٠ بيد أن الجماهير ، كما يؤكد فرويد ، لا تزال عاطلة من الحضارة والثقافة ولا يزال

× : فرويد : « موسى والتوحيد » ص ١٧٢ ــ ١٧٣ ٠

× × فرويد : « الأبحاث الكاملة » مجلد ٥ ــ ص ٢٨٥ ٠

نشاطها يجرى على أساس غرائزها ومن ثم فانها تندفع لملاقاة تجار الحروب فى منتصف الطريق • ويقول فرويد « ان الوضع الأمثل للأمور هو أن تنشأ جماعه من رجال يخضعون حياتهم الغريزية لسيادة العقل المطلقة •• بيد أن هذا ليس على اية حال سوى أمل طوباوى •• وثمة صورة بغيضة على النفس تطوف بخيالى تتراءى لى فيها طواحين تطحن فى بطء شديد والناس تهلك جوعا قبل أن تحصل على نصيبها من الدقيق » • ×

ويأتى فى المرتبة الثانية بعد تبرير الحرب العرض الذى قدمه فرويد لرأيه عن دونية الأنثى وتفوق الذكر • وبدلا من أن تعقب الوضع التاريخى للمرأة وظروف حياتها فى كل مرحلة من مراحل المجتمع فانه يرد ذلك الى ما يدركه كل من الجنسين من « نقص » تشريحى يشوب الانثى • ويذهب الى أن صغار الفتيات يرجعن افتقارهن الى التكوين التشريحى الذكرى الى الخصاء كعقوبة عن خطيئة ، واذا كان لهم أن ينتقلن الى « الأنوثة » بصورة سوية فعليهن أن يقبلن وضعهن الذى يتسم بالدونية والسلبية • ويحدثنا فرويد عن « النتائج النفسية المترتبة على التمايز التشريحى بين الجنسين » ويشير الى « سمات الشخصية التى بسطها النقاد على مر العصور فى تعريضهم بالمرأة ــ مثل قولهم ان النساء دون الرجال تقديرا للعدالة وأقل منهم تحملا لما تفرضه الحياة من أعباء كبرى وأنهن أكثر قابلية من الرجال للتأثر فى أحكامهن بمشاعر الحب أو العداء » • ومرة أخرى يشعر فرويد هنا أنه بحاجة الى أن يدفع عن نفسه اتهاما فيبادر قائلا : « يجب ألا ينتهى بنا هذا الى انكار ما يذهب اليه المدافعون عن حق المرأة ، ممن تؤرقهم دعوتهم ويحاولون بقوة أن نؤمن معهم بأن الجنسين سواء تماما من حيث القيمة والمكانة » • × ×

وأعد فرويد ما سماه « دراسة تسجيلية للمشاعر المرضية » عن ليوناردو دافنشى • ويحاول فى دراسته هذه أن يفسر على ضوء منهج التحليل النفسى الأسباب التى من أجلها كان ليوناردو فنانا وعالما فى آن واحد • لقد أصبح فنانا بسبب عقدة أوديب التى كانت لها صورة خاصة فى حالته هو • اذ كان طفلا يتيما عاشقا لامه التى أيقظت فيه قبل الأوان نشاطه الجنسى ومن ثم تسامي بطاقة هذا النشاط الى نشاطه كفنان • أما عن كونه عالما فمرجع ذلك أن نشاطه الجنسى وهو طفل تركز حول « البحث » عن الموضوعات الجنسية ، ثم عاوده هذا النشاط فى مقبل حياته ، بعد أن كبته ، فى شكل رغبة حصارية فى البحث فى الطبيعة •

لقد كان فرويد يفسر الفن والعلم والثقافة بوجه عام فى ضوء مصطلحاته عن كبت الحياة الغريزية وما يتبع ذلك من نجاح المرء بقدر أو بآخر فى تحويل الطاقة الجنسية الى أعمال ذهنية ابداعية • والتقييم الموضوعى للفن ودراسته دراسة نقدية من شأنهما أن يفسحا مجالا لمثل تلك التحليلات المرضية التسجيلية التى أعدها عن ليوناردو •

ظل فرويد نشطا مجددا فى تأملاته الى أن وافته المنية • « اكتشف » التحليل النفسى وهو فى الأربعين من عمره ثم قضى ثلاثة وأربعين عاما يحكم

× نفس المرجع السابق ــ ص ١٨٠ ، ٢٨٥ •

× × فرويد « الأبحاث الكاملة » ــ مجلد ٥ ــ ص ١٩٦ ، ١٩٧ •

صوغ ما اكتشفه ويعمل على تطوير نظريته المسماة « ما وراء علم النفس » ويحاول تطبيقها على « الجنس البشرى » • لقد عاش منذ أن بلغ الرابعة من العمر فى بلدة فينا جيتو من أعمال ليوبولد شتاد فقيرا أول الأمر ثم نعم بيسار نسبى كواحد من أبناء الطبقة المتوسطه • وقنع فى أواخر حياته بمعالجه اعداد قليلة من المرضى ، ورصد جل وقته للكتابة وتدريب المحللين النفسيين • وعانى فى الاعوام الخمسة عشر الاخيرة من حياته من سرطان الفم مما اضطره الى اجراء عمليات جراحية عديدة فى فمه •

وفى عام ١٩٣٨ وكان قد قارب المنية ، غزا النازيون النمسا وسرعان ما صادروا كل ممتلكات فرويد بما فى ذلك دار النشر ومكتبته وكل ثروته • ولكن ما هو أخطر من ذلك أنهم جردوه من جواز المرور ومن ثم أصبح سجينا فى بلدة جينو رهن بقبضة هتلر • وحاولت حركة التحليل النفسى العالمية أن تمارس ضغطا لاطلاق سراحه • وطالبت سلطات النازى بدفع فدية مالية قدرها ربع مليون شلن نظير اطلاق سراحه ودفعتها واحدة من مرضاه واتباعه وهى الأميره مارى بونابرت • ونزحت عائلة فرويد الى انجلترا حيث قضى فرويد عامه الاخير من حياته • أما اخواته الاربعة اللاتى بقين فى فينا فقد قتلهن النازى فى غرفات الغاز • وقضى فرويد نحبه فى ٢٣ سبتمبر عام ١٩٣٩ •

ان ما أسلفناه ليس الا عجالة موجزة غاية الايجاز عن حياة سيجموند فرويد استهدفنا بها بيان أن الأعوام الثلاثة والثمانين من حياته اقتسمها اتجاهان دراسيان متباينان أولهما كعالم فسيولوجى متخصص فى الأمراض العصبية وثانيهما كعالم تحليل نفسى • والسمة المميزة للنصف الأول من حياته هى رصده لكل جهوده لدراسة العلوم الطبيعية والمنهج العلمى اليقينى ، وهو ما يتناقض تماما مع كل تأملاته وفروضه فى النصف الثانى من حياته • فبعد أن كان باحثا علميا موفقا قانعا بما يحصله فى بطء شديد من معارف يقينية محققة أصبح ، على الأقل فى جانب من حياته ، مغامرا نافد الصبر لا ترضيه سوى الحلول الجريئة التى تعصف بكل المشكلات العتيقة •

وفى نفس الوقت فالأمر الذى لا ريب فيه أن التحليل النفسى قام على أساس ملاحظة المرضى • والنظريات الأساسية المستخدمة فى مجال التطبيق العملى المتعلقة باللاشعور والكبت والتسامى والنكوص والتثبيت وماشابه ذلك فانها جميعها ، كما يقال نتاج للخبرة العملية ومن ثم فهى مستقلة ومنفصلة عن تأملاته المتعلقة بنظرية ما وراء علم النفس • وهناك من يرى أن فرويد المحلل النفسى وضع أساس علم جديد هو علم الحياة العقلية اللاشعورية وذلك بناء على جهوده العلاجية مع مرضاه وأن هذا العلم ليس بحاجة الى نسيج من الأساطير • أما نظرية ما وراء علم النفس فهى حسب هذه النظرة ليست الا محاولة لوضع نسق فلسفى نفسى شامل •

ولهذا فان أول سؤال يتعين علينا بحثه والاجابة عليه هو : هل نظريات التحليل النفسى المستخدمة فى مجال الممارسة العملية هى نظريات مستقلة عن النسق التأملى ، أم أنها على العكس من ذلك متوقفة عليه ومتداخلة معه فى نسيج واحد متشابك ؟ أو بعبارة أخرى موجزة على تشكل الاساطير جزءا جوهريا من التحليل النفسى أم لا ؟

والسؤال الثانى يتعلق بشكل مباشر الى حد كبير بالمقابلة بين المرحله المبكرة والمرحله الاخيره من حياة فرويد • وقد تكون المقابله غير معبوبه فى حد ذاتها نظرا لان موضوعات البحث فى كل من المرحلتين متباينه تباينا كيفيا • فالشائع ان بحث الظواهر الطبيعية مثل الجهاز العصبى والمخ فى ضوء المنهج العلمى شىء مختلف تماما عن دراسه العقل البشرى • وربما يكون جائزا الافادة من الاجراءات العلمية اليقينيه فى دراسة الموضوع الأول ولكنها غير ذات جدوى فى دراسة الموضوع الثانى • ومن ثم فقد لا نجد مناصا من بحث ظاهرة معقدة كهذه الا باتباع منهج تحليل استبطانى ذاتى للنفس • ان التمايز الصارخ بين المرحلتين الأولى والثانية من حياة فرويد قد يعكس لنا التمايز بين العمليات المادية والعقلية •

ومن ثم فان السؤال الثانى يمكن صوغه على النحو التالى : هل يمكن بحث النشاط العقلى بواسطة المناهج العلمية اليقينية المستخدمة فى معرفة الظواهر الطبيعية الأخرى ، أم لابد من التسليم باستثناء ذلك المجال ؟ ان الاقتصار على المقابلة بين المرحلتين فى حياة فرويد لن يعطينا اجابة شافية • ولذلك يتعين علينا أن نقابل بين التحليل النفسى وبين محاولة أخرى استهدفت تطبيق المناهج التجريبية الموضوعية للعلوم الطبيعية وبخاصة على الأجزاء العليا من المخ باعتباره عضو الحياة النفسية • ومبحث بافلوف فى النشاط العصبى الراقى يفى بمطلبنا هذا ومن ثم فان المقابلة بين بافلوف وفرويد كفيلة بأن تقدم لنا الاجابة المنشودة

والفصول التالية من هذا الكتاب هى أساسا محاولة للاجابة على ذينك السؤالين • ولهذا فان دراستنا هنا تسير على مستويين : (١) دراسة استطلاعية للتحليل الذاتى نفسه لبيان ما اذا كانت نظريات فرويد المستخدمة فى مجال الممارسة العملية تتطلب أم لا تتطلب نسقا تأمليا أسطوريا : وتتوقف على نتيجة هذه الدراسة صواب النظريات ومدى الثقة فيها • و (٢) مقابلة بين فرويد وبافلوف بهدف تحديد ما اذا كانت المناهج الموضوعية للبحث العلمى يمكن تطبيقها على الحياة العقلية أم لا •

وسوف نحاول ، ونحن فى سياق البحث عن اجابة محددة عن هذين السؤالين ، أن نصل الى حل للمشكلة الشاملة ؟ أى النهجين أصوب من الآخر وأفعل منه وأحق بوصفه بالعلمية ، ومن ثم فأيهما مناط الأمل فى مساعدة الانسان على أن يعرف نفسه فى حالتى الصحة والمرض ؟

والخطوة الأولى على هذا الطريق هى أن نقدم عرضا فاحصا للمنهجين المتقابلين عند كل من بافلوف وفرويد •

الفصل الثانى

تفسير الأحلام والفعل المنعكس اللعابى

واجه كل من بافلوف وفرويد أثناء بحثه ظواهر غير متوقعة كانت المنطلق لكل منهما للبحث عن حل للغز أبى الهول أو جوهر الطبيعة البشرية • وجابه بافلوف فى تجاربه على الغدد الهضمية ، وفرويد أثناء ممارسته كطبيب للأمراض العصبية ، نقاط تحول فى مستقبل دراسة كل منهما • وسنعرض هنا بايجاز شديد قصة كل منهما عرضا مقارنا •

كانت تجارب بافلوف عن التنظيم العصبى للغدد اللعابية ، والتى بدأت قبل عام ١٩٠٠ بسنين عديدة ، تعوقها دوما أحداث تخرج عن نطاق الموقف التجريبى • وكان ما يعنيه أساسا هو بحث افراز العصارات الهضمية عند ادخال أنواع مختلفة من الطعام فى أفواه حيوانات التجارب فى معمله • بيد أنه لاحظ أن الحيوانات تفرز فيضا من عصارات الغدد قبل وضع الطعام فى أفواهها ، بل كانت العصارات الهضمية تبدأ فى الافراز بمجرد أن يشم الحيوان أو أن يرى الطعام أثناء اعداده له ، أو أن يسمع وقع أقدام من اعتاد تقديم الطعام له • وحاول بافلوف قدر الطاقة أن يغفل هذه الأحداث التى تتداخل مع مسار تجاربه بيد أنه اضطر فى نهاية المطاف أن يواجه المشكلة • ورأى أن هذه الظاهرة فى حقيقتها تماثل الظاهرة المعروفة باسم « سيلان لعاب الفم » عند رؤية الطعام أو شم رائحته • وكانت ظاهرة « التأثير عن بعد » حتى ذلك الوقت تدخل فى نطاق بحث علم النفس وحده ، ومن ثم كان علماء النفس يفسرونها فى ضوء المصطلحات الوصفية البحتة للحياة الشعورية للبشر •

قد عزم بافلوف هنا على أن يبحث ظاهرة التأثير عن بعد ، عن طريق العين والأذن والأنف ، وأن يلتزم فى بحثه بالمنهج التجريبى الموضوعى المستخدم فى

علم الفسيولوجيا • وأول مشكلة واجهته هي كيف يبدأ بحثه على هذا النحو• وكان مقتنعا بشيء واحد فقط وهو أن لا سبيل الى فهم هذا النشاط موضوع الدراسة في ضوء مصطلحاتنا عن الشعور البشرى بكل مقولاته المتعددة مثل الفكر والحكم والارادة • ومن ثم فلا بد من الاهتداء الى منهج تجريبي ييسر لنا فحص هذه الظواهر دون الالتجاء الى محاولة سبرغور الشـــعور البشرى عند الحيوانات وهو مالا وجود له • ومن هنا أصبحت مشكلته ابتداع وسيلة لبحث السلوك اللاشعورى للكلاب والقردة وغيرهما من الثدييات • ووجد لزاما عليه أن يصنع أنبوبة أو نافذة تيسر له ملاحظة الأداء الوظيفى للنشاط اللاشعورى للجهاز العصبى وبخاصة المخ ذروة هذا الجهاز •

وقد عزم فرويد على أن يمارس عمله كطبيب للأمراض العصبية ، وذلك بعد أن قضى أعواما يتدرب على التشريح العصـــبى والطب وعلم الأعصـــاب • وجابهته هنا مشكلة عملية : كيف يعالج المرضى العصـــابيين الذين يشـــكلون غالبية مرضاه • حاول معهم كل الأدوية ، ما نصت عليها كتب الطب وما لم تنص عليها • وأهم ما يعنينا من هذه الأدوية الأخيرة الايحاء أثناء التنويم الذى حقق بداية نتائج أذهلته • وبينما كان فرويد يستخدم الايحاء أثنا التنويم كاجراء علاجى اعترضت سبيله عدة ظواهر لم يكن يتوقع ظهورها في الموقف العلاجي • اذ تبين له أن المريض قادر اثنـــــاء التنويم على أن يستعيد ذكريات وانفعالات ودوافع لم تكن داخل نطاق ذكرياته الواعيه • ثم تبين بعد ذلك أن ثمة ذكريات معينة تواجهها ممانعة قوية من جانب المريض اذا حاول أن يعيدها الى ذاكرته الواعية عنـــد يقظته بعد التنويم • أى أنه بايجاز اهتدى الى وجود قطاع من العقل يعمل لا شعوريا • وكان هذا القطاع الخفى من الحياة العقلية يعوق دائما محاولاته لعلاج مرضاه ومن ثم قرر عام ١٨٩٥ أن يبحث ما سماه « النشاط العقلى اللاشعورى » • وكانت المشكلة هى « كيف يكون ذلك ؟ » اذ لابد من الاهتداء الى منهج ييسر له عملية سبر غور الذكريات والرغبات وعوامل الممانعة اللاشعورية وما شابه ذلك • وكان فرويد على يقين من شيء واحد هو أن سبرغور شعور مرضاه لن يفيده فى تحقيق أغراضه • ومن ثم أصبح لزاما عليه أن يهتدى الى منهج يعينه على اكتشاف الأفكـــار والذكريات والرغبات وعوامل الممانعة التى تعمل بصورة ما تحت مستوى الشعور • بمعنى آخر كان لزاما عليه أن يبتكر أنبوبة أو نافذة تمكنه من أن يلاحظ خلالها الأداء الوظيفى للنشاط العقلى اللاشعورى •

اذن كانت الخطوة الأولى أمام كل من بافلوف وفرويد في بحثهما من أجل فهم الحيـــاة النفسية هى الاهتداء الى نافذة تيسر لكل منهما بحث ودراســة النشاط اللاشعورى • ومن هنا بدأ طريق كل منهما يفترق عن طريق الآخر • اذ حاول بافلوف من ناحية الاهتداء الى نافذة فسيولوجيه حقيقية يطل منها على النشاط العصبى اللاشعورى وبخاصة نشاط المخ ، أما فرويد فعلى النقيض من ذلك اذ حاول الاهتداء الى نافذة نفسية غير موضـــوعية يطل منها على النشـــاط العقلى اللاشعورى •

نافذة اللعاب ونافذة الأحلام

رأى بافلوف ان الغدة اللعابيه هى افضل ما يلائم اغراضه التجريبية دون أعضاء أخرى بديله • وتقع هده الغدة فى الفم عند مدحل القناة الهضميه لجسم الحيوان وترتبط وظيفيا بكل من العالم الخارجي والحياة الباطنية للحيـــوان • وتفصل هده الغدة غيرها لموضوع للتجريب من حيث امكانيه الوصول اليها وبساطة تركيبها النسبى ثم ما هو اهم من ذلك امكانية قياس افرازاتها كميا وتحليل مكوناتها كيفيا •

واختار بافلوف الكلاب ليجرى عليهـا تجاربه ، وتوسل لتجاربه بعملية جراحيه ينشيء بها أنبوبة نافذة ترتبط مباشرة بالغدة اللعابيه وتتصل بها قناة صغيرة ومنها الى أنبوبة اختبار عند الفتحة الخارجية • ومن ثم فان الغدة اللعابية حين تبدأ فى افراز اللعاب نتيجة تأثير هذا المنبه أو ذاك فان اللعاب لا يدخل فم الكلب بل ينتقل الى أنبوبة الاختبار ، وبهذا يتسنى للباحث المجرب أن يقيس كمية اللعاب المفرز ويحلله كيميائيا ليحدد طبيعة مكوناته • ويرتكز تكنيك هذه التجارب على نظرية قديمة تأكد صوابها ، وقوامها أن الأفعال المنعكسة الشرطية هى الميكانيزم الوظيفى للجهاز العصبى • اذ أن أى منبه خارجي من شأنه أن يثير هذه العضلة أو تلك أو هذه الغدة أو غيرها فيبدأ العضو المثار بأداء وظيفته • والغدة اللعابية لها وظائف عدة من بينها « تندية » الطعام الذى يدخل الفم حتى تسهل عملية البلع •

أنشأ بافلوف أنبوبة تجاربه على هذا النحو مما يسر له دراسة النشاط الانعكاسي للغدة اللعابية وبالتالى اكتشاف حقائق وقوانين النشاط الانعكاسى العامة ، والميكانيزم الانعكاسى بخاصة لما كان يسمى وقتذاك «الظواهر النفسية» أو التأثير عن بعد من خلال أعضاء الحس • وكان هدف بافلوف المباشر بحث النشاط العصبى الذى يرتكز عليه سلوك الحيوان ، أما هدفه البعيد فكان معرفة كيف يشكل الجهاز العصبى ، والمخ بوجه خاص ، اساس الحياه العقلية للانسان والطبيعة البشرية ككل •

وكان فرويد بحاجة الى منهج ييسر له النفاذ الى ما تحت مستوى الشعور • ووجد لزاما عليه الاهتداء الى ظواهر عقلية وغير شعورية فى آن واحد • ورأى أن مثل هذه الظواهر يمكن أن تكون بمثابة « أنبوبة نافذة » تيسر له الوصول الى الحياة العقلية اللاشعورية • وعثر فى الوقت المناسب على عديد من الظواهر التى تفى بمطلبه • بيد أن نمطا معينا من هذه الظواهر آثره على ما دونه ونعنى به الأحلام • وذهب الى أن الأحلام ظواهر عقلية بيد أنها ليست جزءا من الحياة الشعورية نظرا لأنها خاصية من خصائص النوم • واقتنع بأن سبر أغوار الحلم وتحليله وتأويله ييسر له فحص العمليات العقلية اللاشعورية واكتشاف حقائقها وقوانينها •

وبهذا أصبح تفسير الأحلام عند فرويد يشكل أهم « أنبوبة نافذة » تمكنه من بحث الجانب اللاشعورى من نفس الانسان • وقد عبر صراحة عن نظرته الى تفسير الأحلام باعتباره الأنبوبة النافـذة فى معرض حـديثه عن « البنية اللاشعورية للجهاز النفسى » اذ يقول « اننا نستطيع عن طريق تفسير الأحلام أن تلقى نظرة الى أعماق هذا الجهاز وكأننا نطل من ثقب مراقبة • » ×

× فرويد : « تفسير الأحلام » ص ٢١٥ •

واستخدام فرويد ، علاوة على تفسير الأحلام ، عددا آخر من ثقوب المراقبة يطل منها على النشاط المعتم اللاشعوري منها التداعي الطليق وظواهر الطرح والأغراض العصابية والايحاء أثناء التنويم والهفوات والفكاهات • ويرتكز تكنيك البحث هنا على نظرية مفادها عند فرويد أن الشعور يحاول أن يمنع المادة اللاشعورية من أن تكشف عن نفسها ويبقي عليها محاصرة أو « تحت المراقبة » بصورة أو بأخرى • واستهدف فرويد من كل « الانابيب النوافذ » التي استخدمها مراوغة العين اليقظة للحياة الشعورية حتى يتسنى للذكريات والأفكار والانفعالات والرغبات والدوافع اللاشعورية أن تكشف نفسها ولو بطريقة غير مباشرة •

يتضح من هذا أن كلا من بافلوف وفرويد نجح في مسعاه الخاص ، على النحو الذي يرضيه على الأقل ، وذلك بابتكار أنبوبة نافذة تيسر له الوصول الى النشاط اللاشعوري : وجد بافلوف ضالته في الغدة اللعابية كأداة لبحث النشاط العصبي اللاشعوري بعامة أو نشاط المخ بخاصة ، أما فرويد فقد وجد ضالته في تفسير الأحلام ، بالاضافة الى وسائل أخرى لبحث العمليات العقلية اللاشعورية •

تجارب بافلوف على الغدة اللعابية

كانت أهم مشكلة واجهت بافلوف هي طريقة دراسة النشاط النفسي أو الاشاري للنصفين الكرويين للدماغ • اذ يمكن اختيار أي فعل منعكس طالما أن المنبهات الاشارية ترتبط بكل الأفعال المنعكسة بيد أنه آثر لدواعي التجربة اختيار فعلين من الأفعال المنعكسة البسيطة مرتبطين بالفم : الفعل المنعكس الغذوي الذي يتبدى لنا عندما نضع الطعام داخل الفم ، والفعل المنعكس الدفاعي البسيط الذي يتبدى لنا عندما تدخل الفم مادة غير مستساغة • ويمثل كلا الفعلين ظاهرتين سويتين ويمكن لنا ملاحظتها كل يوم لدى الانسان والحيوان بيد أن الفعلين المنعكسين ، الغذوي والدفاعي للفم لهما ميزة حاسمة بالنسبة للبحث المعملي ، اذ لكل منهما جانبان : نشاط عضلي ونشاط غدي • فالفعل المنعكس الغذوي اذا ما تنبه بادخال الطعام في الفم يتبدى من ناحية في حركة مضغ الطعام وابتلاعه ، كما يتبدى من ناحية أخرى في الافراز الفوري للعاب اللازم لعملية الهضم بشقيها الفيزيقي والكيميائي • وكذلك بالنسبة للفعل المنعكس الدفاعي البسيط اذا ما تنبه بفعل مادة غير مستساغة فانه يتبدى في شكل حركة للفظ الطعام وافراز اللعاب اللازم لتنظيف الفم • ولا ريب في أن التحليل الكمي والكيفي في كل من هذين الفعلين المنعكسين للفم ، سيكون عسيرا أشد العسر بالنسبة للنشاط العضلي ، ويسيرا غاية اليسر بالنسبة للاستجابة الافرازية • اذ يسهل علينا قياس اللعاب كميا من حيث درجة الغزارة وذلك بحساب عدد قطراته ، كما يسهل علينا قياس مكوناته النوعية بتحليله كيميائيا • ولهذه الأسباب قصر بافلوف تجاربه على المكونات اللعابية لكل من الفعل المنعكس الغذوي والفعل المنعكس الدفاعي البسيط •

وبديهي أن قياس وتحليل الاستجابات العضلية كان يستلزم الاستعانة بأدق الأجهزة ثم قد لا نصل بعد ذلك الى نتائج تعادل في دقتها دقة ما نصل اليه

في حالة الافراز اللعابي · وقد عني بافلوف بالاشارة الى ميزة أخرى غير هذه توضح اسباب ايثاره التركيز في تجاربه على الغدة اللعابية : « من الأمور ذات الأهمية الخاصة في المرحلة الأولى من عملنا أننا كنا أقل ميلا الى تشبيه الحيوان بالانسان عند تفسيرنا لافراز اللعاب على عكس الحال عند ملاحظتنا وتفسيرنا للارجاعات الحركية » · × والتزاما بهذا النهج طبق بافلوف في معمله نظاما صارما من الغرامات المالية التي توقع عليه وعلى مساعديه اذا مازال أحدهم وفسر سلوك الحيوان بمصطلحات السلوك البشري الواعي ـ الشعور والرغبة والفكر والروية وما شابه ذلك · وقبل هذا كله كان أهم ما يعنيه دراسة النشاط النفسي أو الاشاري للنصفين الكرويين للمخ دراسة موضوعية شاملة بدلا من الدراسة الذاتية الاستبطانية ·

ولكي يدرس بافلوف النشاط الاشاري للمخ في صورة افراز لعابي أجرى لكلاب التجارب عمليات جراحية بسيطة ملتزما فيها بكل قواعد التعقيم ذلك لأنه رأى أن من الاهمية بمكان أن تستعيد الحيوانات صحتها وسلوكها السوي قبل اجراء التجارب عليها في المعمل · وقوام العملية الجراحية هذه زرع فتحة القناة اللعابية عند السطح الخارجي للفك وبذلك لا يسيل اللعاب داخل الفم بل فوق خد الحيوان · وتتصل القناة بأنبوبة زجاجية بحيث يتسنى لجهاز كهربائي أتوماتيكي احصاء عدد قطرات اللعاب أو قياسها داخل مخبار مدرج ·

ونظرا لأن النصفين الكرويين للمخ جهاز معقد شديد التعقيد ويتسم بحساسية شديدة لآلاف المنبهات المتعارضة والمتباينة التي ترد اليه من البيئة فقد كان من الضروري بصورة مطلقة اتخاذ كل التدابير اللازمة لتلافي هذه المؤثرات اذ لو حدث أن تلقى الجهاز هذه المؤثرات جميعها في وقت واحد فلن نجد أمامنا غير حالة من التشوش الكامل يستحيل معها الاستمرار في التجارب · ومن ثم لزم تبسيط ظروف التجربة الى حد كبير · وتم بالفعل تشييد معمل خاص بمعهد الطب التجريبي على نفقة أحد رجال الأعمال المستنيرين في موسكو · وكان الهدف الرئيسي من المعمل تلافي كل المنبهات الخارجة عن الموقف قدر الطاقة · وتحقيقا لهذا الغرض تم تقسيم غرفة البحث الى حجرتين مبطنتين بعوازل للصوت ، احداهما للمجرب والأخرى للحيوان·واستخدم المجرب أجهزة لنقل مؤثرات هوائية أو كهربائية متصلة بلوحة توجيه في حجرته بحيث تيسر له استخدام المنبهات المختلفة لتنبيه الكلب · ولقد كانت لوحة المراقبة والتوجيه معقدة أشد التعقيد وهذا ضروري نظرا لحاجة المجرب الى استخدام العديد من المنبهات لبحث نشاط الجهاز الارشادي للمخ وهو نشاط واسع المدى ودقيق غاية الدقة ·

واليك وصفا مبسطا لأنبوبة اللعاب كتكنيك تجريبي لبحث النشاط الاشاري اللاشعوري للحاء المخ ·

« الوصف . أرينا الطعام للحيوان . بدأ افراز اللعاب كما ترون بعد خمس ثوان ، وجمعنا بعد خمس عشرة ثانية ست قطرات من اللعاب ·· » ·

× بافلوف ـ « المؤلفات المختارة » ص ١٩٠ ·

« وهذه أيضا حالة من حالات الاشارة مردها الى نشاط النصفين الكرويين للمخ وقد اكتسبها الحيوان أثناء حياته ومن ثم فهى ليست ارجاعا فطريا ٠٠ اذن فان رؤية الطعام لا تستثير بذاتها ارجاعا لعابيا كما لا تمثل مؤثرا فطريا لهذا الارجاع ٠ ان رؤية اللحم والخبز لم تسبب افرازا للعاب الا بعد أن تناولت الجراء منها عدة وجبات » ٠

وحدد بافلوف مشكلته الرئيسية على ضوء تجارب مماثلة ، اذ يقول :«والآن يأتى السؤال الأساسى : ما هى طبيعة عملية التمييز الاشارى وكيف لنا أن نفسرها من وجهة نظر فسيولوجية بحتة ؟ » × ويجيب على سؤاله هذا من خلال تجاربه التالية : الفعل المنعكس الشرطى بكل حقائق وقوانين ادائه الوظيفى ٠

نافذة الأحلام عند فرويد

كانت أهم مشكلة واجهت فرويد هى طريقة دراسة العمليات اللاشعورية للنشاط العقلى ٠ واهتدى الى الحل مصادفة بينما كان يعالج مرضاه العصابيين ٠ ويروى لنا قصة اكتشافه فيقول : « بينما كنت أجرى هذه الدراسات من التحليل النفسى اهتديت مصادفة الى مسألة تفسير الأحلام ٠ فبعد أن كان مرضاى يطمئنون الى جانبى واكسب ثقتهم يشرعون فى الادلاء بكل ما عن لهم من أفكار وخواطر ترتبط بموضوع معين ويقصون على أحلامهم ٠ ومن هنا تعلمت أن ثمة أحلاما تتداخل فى نسيج سلسلة من الوقائع النفسية »٠« واقتنع فرويد بأن الأحلام لها معنى وأن تفسيرها أمر ممكن ٠ « مرة أخرى لم أجد هنا مناصا من الايمان بأننا ازاء حالة من تلك الحالات التى نرى فيها احدى العقائد الشعبية القديمة الراسخة وقد أصبحت أقرب الى الحقيقة الموضوعية من بعض الآراء التى يبديها العلم الحديث ٠ ويتعين على أن أقرر أن الحلم له معنى حقيقة وفعلا ، وأن الوصول الى منهج علمى لتفسير الأحلام ممكن تماما » ٠

اذن ما هى مقومات « التفسير العلمى للأحلام » عند فرويد ؟ أولا « يلزم اعداد المريض اعدادا نفسيا خاصا » ٠ اذ يجب أن يقر فى ذهنه أهمية اذكاء وشحذ كل مدركاته النفسية ، أو بمعنى آخر يجب أن يولى اهتماما كبيرا لكل الأفكار والمشاعر والخواطر والدوافع التى قد تجول بخاطره فيفصح عنها دون رقابة أو محاولة لرفض أى منها بسبب ما تتصف به من بذاءة أو ألم أو حرج أو تفاهة ٠ويقول فرويد « يجب أن نعلمه فى صراحة ووضوح أن ينبذ كل صورة من صور النقد للمكونات الفكرية التى قد تجول بخاطره ٠٠ ويجب أن يلتزم جانب الحياد المطلق فى نظرته الى أفكاره ، اذ لو حدث وأخفق فى الاهتداء الى الحل المنشود للحلم ، فسوف يكون سبب ذلك أنه يعطى لنفسه الفرصة ليتأملها تأملا نقديا » ٠ نخلص من هذا الى أن الشرط الأول للتفسير العلمى للأحلام هو الملاحظة الذاتية فى شكل تداع لا ارادى طليق دون أى تدخل نقدى من جانب العقل الواعى للمرء ٠

بيد أن العقل الواعى يجب بالضرورة فى حالة الفكر الرشيد ، سواء أكان فى شكل مناجاة مع النفس أم حديث مع الغير ، أن يمارس أقصى قدر ممكن من

× المرجع السابق ـ ص ١٩٣ ـ ١٩٤ ٠

التوجيه النقدى مستهدفا حجب كل الأفكار التى لا صلة لها بموضوع التفكير ·
ولكن فرويد يصر على اتخاذ مسار مناقض عند تفسير الاحلام « فالأمر على العكس من ذلك فى حالة الملاحظة الذاتية · فليس على المريض هنا غير العمل على قمع كل محاولة نقدية · واذا قدر له النجاح فى هذا فان عددا لا حصر له من الافكار سوف يدخل منطقة الشعور وهو ما كان سيفلت من قبضته لولا هذه الطريقة · وسيجد المستبطن بين يديه مادة جديدة تعينه على تفســير مكونات الحلم · فتفسير الأحلام يقتضى بالضرورة قمع الفكر الرشيد « وخلق حالة نفسية تماثل بدرجــة أو بأخرى حالة العقل قبيل النوم ، كما تماثل بطبيعة الحــال حالة التنويم » · وفى مثل هذا الوضع « تتكشف الأفكار غير المرغوب فيها نتيجة تخفف نوع من النشاط القاهر ، وهو نشاط نقدى بطبيعته أيضا ، الذى يؤثر على منحى أفكارنا ·· وفى حالة تحليل الأحلام يتخلى المريض عن هذا النشاط عمدا وقصدا ، أما الطاقة النفسية المدخرة (أو بعضها) فيستخدمها بوعى مركز لتتبع الأفكار غير المرغوب فيها والتى بدأت تظهر على السطح » · فالتداعى الحر للأفكار غير المرغوب فيها من شأنه أن يستثير ممانعة كأشد ما تكون الممانعة لصد هذه الأفكار عن بلوغها منطقة الشعور · ومن ثم فان تعطيل الفكر النقدى الرشيد هدفه مراوغة هذه الممانعة · ولكى نصل الى هــذه الحالة غير الراشدة الشبيهة بالنعاس والتى يتم فيها الاســتبطان أو الملاحظة الذاتية « ينبغى على المريض أن يتخذ وضع استرخاء وراحة ويغمض عينيه · » ×

وهنا نسأل المريض أن يقص علينا الحلم · ونتناول الحلم لا باعتباره كلا واحدا بل باعتباره « ركاما من التكوينات النفسية ·» فنأخذ تفاصيل الحلم كلا على حدة ونحللها للكشف عن معناها · ونتوسل لبحثنا عن معانى الحلم المختلفة بسؤال المريض أن يطلق لفكره العنان مع كل عنصر من عناصر الحلم دون أى محاولة نقدية من جانبه · وهذه هى عملية التداعى الطليق التى أسلفنا ذكرها· ويجد المحلل بين يديه عددا من الرؤى البصرية والسمعية الناتجة عن الحلم والمستدعيات الطليقة لكل عنصر من عناصره · وتأتى بعد ذلك الخطوة الثانية وهى تفسير هــذه الرؤى · وتبدأ هــذه العملية أولا فى ضوء عدد من الرموز النمطية التى تحدد معناها مسبقا · ويسمى فرويد هذه العملية « ترجمــة الرموز » × × ويقول : « نصل بهذه الطريقة الى ترجمات ثابتة لسلسلة من عناصر الحلم ، تماما على نحو ما نجد فى كتب الأحلام الشعبية ترجمات لكل ما يتراءى فى الأحلام ·· ونحن نسمى مثل هذه العلاقة بين عنصر الحلم وترجمته علاقة رمزية كما نسمى عنصر الحلم ذاته رمزا لفكرة الحلم اللاشعورية · ويؤكد فرويد أن « العلاقة بين الرمز وفكرته علاقة ثابتة » · × × × وهذا الطابع الثابت غير المتغير للترجمة الرمزية هو أساسا ما يجعل من تفسير الأحلام أمرا ميسورا · ويرى فرويد أن ثمة حالات معينة يمكن فيها تفسير الأحلام دون سؤال الحالم وانما نكتفى فقط بترجمة الرموز وهى الحالات التى يكون فيها المحلل عارفا بشخصية المريض وظروف حياته وخبراته الجديدة ·

× فرويد ــ تفسير الأحلام ــ ص ١٠٨ ــ ١١١ ·

× × المرجع السابق ــ ص ٢٤١ ·

× × × فرويد « محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى » ــ لندن ــ ١٩٢٩ ــ ص ١٢٦ ·

والملاحظ أن أكثر رموز الأحلام ذات طابع جنسي • ويقول فرويد في هذا الصـــدد « ان جل رموز الأحلام رموز جنســية » • × ويفسر لنا هـــذا السبب في أن الأفكار والدوافع التي تمثلها هذه الرموز هي أفكار ودوافع غير مرغوب فيها • وهي تستثير دائما استياء الحالمين جميعا حين نفسرها كرموز جنسية تمثل أعضاء التناسل أو المعاشرة الجنسية أو انحرافات جنسية •

يتضح لنا اذن أن « ثقب المراقبة » أو النافذة الاساسية التي أطل منها فرويد على العمليات العقلية اللاشعورية هي الحلم وتفســيره وبخاصة تفسيره الرمزي • والتفسير الرمزي هو العنصر الحاســم في تفســير الأحلام ، وهو ما تكشف عنه اشارة فرويد حين يقول « كم هو محال على المرء أن يصل الى تفسير للحلم لو أنه استبعد النظرة الرمزية للأحلام » • × ×

نستطيع الآن أن نلقي نظرة على نافذة فرويد أو تفســيره للأحلام أثناء الممارسة العملية لنرى كيف يكشف عن العمليات العقلية اللاشعورية • والمثال التالي مأخوذ عن احدى الحالات التي تناولها بالدراسة :

القبعة كرمز للرجل (أو الأعضاء التناسلية الذكرية) :

(مقتبسة من حلم لامرأة شابة كانت تعاني من حالة خوف من الاماكن الفسيحة نتيجة خوفها من الغواية •)

أخال أنني أسير في الطريق أثناء الصيف • أضع على رأسي قبعة من القش ذات شكل خاص ، ارتفع جزؤها الأوسط بينما تدلى جانباها (هنا تتردد المريضة عند روايتها لهذا الوصف) بحيث كان أحد جانبيها يتدلى دون الآخر • أحس بالبهجة والثقة • وبينما كنت أسير مررت بعدد من الضباط الشبان وحدثت نفسي قائلة : لا تستطيع أن تفعل معي شيئا » •

وحين تعذر عليها ذكر أي مستدعيات عن هذا الموضوع قلت لها : « القبعة في حقيقتها تعبير عن عضو التناسل الذكري بجزئها الأوسط المرتفع وطرفاهـا المتدليان • » قد يكون غريبا الزعم بأن قبعتها تعبير عن الرجل ، بيد أن المثل يقول « دخل تحت القبعة » والذي يعني : تزوج • وأحجمت عـامدا عن تأويل تفاصيل الصورة فيما يتعلق بعدم تساوي الطرفين ، هذا على الرغم من أن تحديد مثل هذه التفاصيل لابد وأن يشير الى طريقة تأويلها • وقلت لو أنها كانت امرأة لزوج له مثل هذه الأعضاء التناسلية ما كانت لتخاف الضباط أي ما كانت لتشتهي شيئا من قبلهم ذلك لأن ما تعانيه من أوهام الغواية هو في جوهر الأمر ما منعها من التجول وحدها دون رفيق أو حماية • واســتطعت أن اكرر عليها تفسيري الأخير لقلقها بناء على معطيات أخرى غير تلك •

والشيء الجدير بالذكر هنا أن نوضح كيف كان سلوك صاحبة الحلم بعـد سماعها لهذا التفسير • تراجعت عن وصفها السابق للقبعة ، وبدأت تنفي ما ذكرته قبلا من أن طرفي القبعة كانا متدليين • بيد أنني على يقين مما سمعت بحيث لم أكن لأشك فيه ولذلك جزمت لها بأنها قالت قولها ذاك • وصمتت

× المرجع السابق – ص ١٢٩ •

× × فرويد – تفسير الأحلام – ص ٣٤١ •

هنيهة ثم واتتها الشجاعه لتسألنى عن السبب فى أن احدى خصيتى زوجها كانت متدلية دون الأخرى . وهل كل الرجال سواء فى هذا • وبات واضحا بعد سؤالها هذا حقيقة تفسير التفاصيل الغريبة عن القبعة . وقبلت كل تفسيرنا للحلم •

ولقد كان رمز القبعة شيئا مألوفا لى منذ زمان طويل قبل أن تقص هذه المريضة حلمها • بيد أن ثمة حالات أخرى أقل وضـوحا من تلك قادتنى الى الاعتقاد بأن القبعة يمكن أن تكون تعبيرا عن الأعضاء التناسلية للأنثى • ×

واقترح فرويد أن نتوسل بتفسير الأحلام على هذا النحو للكشف عن الأداء الوظيفى للجهاز العقلى اللاشعورى • وسوف نعرض فى الفصل التالى ما رآه حين أطل من نافذة تفسير الأحلام والتداعى الحر والترجمة الرمزية • بيد ان ما يعنينا الان هو المقارنة بين النافذتين وتكنيك البحث الذى استخدمه كل من بافلوف وفرويد •

لعل أهم انطباع هنا أن نهج فرويد هو أولا وأساسا نهج استبطانى أو ذاتى أما نهج بافلوف فهو نهج موضوعى•ويرتكز أسلوب فرويد فى الجانب الأكبر منه على الملاحظة الذاتية وملاحظة الملاحظة الذاتية • وطبيعى أنه لن يكون ثمة شهود لتفسير الحلم كما ان التفسيرات غير قابلة للتكرار الا فى صورتها العامة جدا • بل ان التحقق من فروض غير ميسور ، كما يشهد فرويد نفسه بذلك ، ما لم يخضع المرء أولا للتحليل النفسى سواء عن طريق التحليل الذاتى للنفس ، أو التحليل على يد أحد المحللين المتمرسين •

ويقول فرويد : « الآن يحق لكم أن تسألوا السؤال التالى : اذا لم تكن ثمة بينة موضوعية على التحليل النفسى ، أو أى امكانية للبرهنة على صدق العملية اذن كيف يتيسر لنا دراسته أو أن نقنع أنفسنا بصوابه ؟ ان دراسته ليست أمرا هينا كمـا لا يوجد عدد كبير ممن أحاطوا به علمـا ، ولكن هناك بطبيعة الحال ، وعلى الرغم من ذلك كله ، وسـيلة لتعلمه • ان التحليـل النفسى نتعلمه أولا وقبل كل شىء بتطبيقه على أنفسنا أى بأن يدرس المرء شخصيته هو • وليس هذا هو المقصود على وجه الدقة والتحديد من مصطلح الاستبطان بيد أننا قد نتخذ له هذه الكلمة باعتبارها أفضل الكلمات • وثمة سلسلة كاملة من الظواهر العقلية الشائعة والمعروفة تماما والتى يمكن لنا أن نتخذها مادة للتحليل الذاتى اذا ما تيسر للمرء بعض الالمام بالمنهج • فهذا هو السبيل للاقتناع بحقيقة العمليات التى يصفها التحليل النفسى ، وبصدق مفاهيم التحليل النفسى عنها وان كان التقدم التزاما بهذا النحو ليس أمرا بغير حدود • ان المرء يستطيع أن يحقق المزيد من التقدم اذا ما أخضع نفسه للتحليل على يد محلل حاذق ، وأن يمارس عمل التحليل لتحليل نفسه تحليلا ذاتيا ، ويتحين هذه الفرصة ليلاحظ أدق تفاصيل التكنيك الذى يستخدمه المحلل • هذه هى أفضل الطرق على الاطلاق وهى بطبيعة الحال الطريقة العملية الوحيدة بالنسبة للأفراد » •

ان التحليل النفسى لا يمكن أن نراه رأى العين أو أن نسترق السمع اليه • ويقول فرويد « ليتنا نستطيع أن نسترق السمع للكلمات التى تدور بين المحلل

× فرويد ـ تفسير الأحلام ـ ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ •

والمريض ففي هذا الكفاية بيد أنه مستحيل تماما • ان الحوار الذى يدور أثناء عملية التحليل لا يسمح بوجود شهود عيان ، ومن ثم فالعملية لايمكن تأييدها بالبرهان القاطع •• ولهذا فانك تنشد المجال اذا شئت أن ترى رأى العين معالجة عن طريق التحليل النفسى ، ولكن كل ما تستطيع أن تصل اليه هو ما يروى لك عنه • وأن تتعلم التحليل النفسى سماعا بأدق معانى هذه الكلمة » • ×

« ان البديل الوحيد للدليل السماعى هو أن يخضع المرء ذاته للتحليل • معنى هذا أن فرويد يذهب الى أن التحقق من صدق فروضه عن تفسير الحلم ، والعناصر الأخرى لمذهبه ، لن يتأتى لنا فى نهاية الأمر الا عن طريق الاستبطان أو تاريخ الحالة عن طريق الاستبطان • » × ×

والاستبطان يعني النظر داخل عقل الذات أو أن يفحص المرء أفكاره ومشاعره • انه ممارسة للفحص الذاتي أو الملاحظة الذاتية • وتحليل الذات يعني في نظرية التحليل النفسى الاستبطان بأدق معاني هذه الكلمة • بل ان التحليل الذى يقوم به المحلل متمرس لأحد مرضاه انما يتوقف في نهاية المطاف على النشاط الاستبطاني للمريض • وتفسير الأحلام والتداعي الطليق وغير ذلك من الأساليب التكنيكية للبحث تتوقف بصورة أساسية على الملاحظة الذاتية من جانب المريض • اذ يجب على المريض أن يقص حلمه ويكشف عن مستدعياته التلقائية • ومن ثم فان اتجاه المريض هو الأساس ، فلو كان غير متعاون أو متحفظا أو غير صريح تماما أو مخادعا أثناء التحليل فان عملية التحليل تصبح كلها محفوفة بالمخاطر • وأكثر من هذا أن كل شيء يتوقف على المريض ذاته ، اختياره وأحكامه ومشاعره واتجاهاته ومزاجه وأهوائه الشخصية وخلفيته الانفعالية وما شابه ذلك من عناصر ذاتية الطابع •

والذاتية هنا تعني الاعتماد على الخصائص الشخصية لانسان فرد بكل انفعالاته ودوافعه وأهوائه وخصائصه وعاداته واتجاهاته • انها تعني أن العامل المحدد هو التكوين الذاتي لعقل الفرد قبل أى حقائق أو ظروف موضوعية • مثال ذلك أن الحكم الذاتي هو الحكم الذى تكون فيه للأهواء الذاتية الأسبقية على أى تقييم يكون أساسه الحقائق الموضوعية التي تتميز بوجود مستقل عن أى مصالح وأهواء شخصية •

ان منهج البحث عند فرويد أو منهج التحليل النفسى عن طريق تفسير الأحلام والتداعي الطليق لا يمكن الا أن يكون منهجا ذاتيا واستبطانيا في جوهره والقول بأن فروض فرويد تعميم لما استقاه من تحليل لتاريخ الحالات ولا يمكن تأييدها بالبرهان ، وانما يمكن فقط أن يختبرها المرء ذاتيا ، هذا القول يمثل في حقيقته أبلغ دليل على أن منهج بحثه منهج ذاتي واستبطاني •

ونحن على العكس من ذلك لا نستطيع أن نثير الشكوك حول منهج البحث الموضوعي عند بافلوف • فالموضوعية تعنى النظر الى الظواهر باعتبارها وجودا خارجيا مستقلا عن الشعور الذاتي والموضوعية تنأى قدر المستطاع عن العنصر

× فرويد ــ « محاضرات تمهيدية عن التحليل النفسى » ص ١٣ ، ١٤ ، ١٥ •

× × ظهرت فى الأعوام الأخيرة محاولات تستهدف الاستعانة بالمنهج التجريبى لاثبات صحة فروض فرويد • وسوف نتناول هذه المحاولات فى كتاب آخر نوشك أن نفرغ منه •

الذاتي في الملاحظة والحكم والبحث • ان ما يعنيها هو العقل في وجوده ونشاطه المستقل عن الانفعالات والأهواء الشخصية • انها تدرس الموضوع كما هو في ذاته مستقلا عن الخصائص الفردية الشعورية وغير الشعورية للملاحظ أو الباحث • ومن ثم فهي النقيض تماما للذاتية •

وكان من أهم ما يعنى بافلوف حين شرع في تحديد أسلوب عمله التجريبي أن يستبعد العامل الذاتي بقدر ما تسمح به الطاقة البشرية • ولقد اختار لهذا السبب ، على سبيل المثال الافراز اللعابي وأثره على الاستجابة العضلية كمؤشر للنشاط الإنعكاسي • اذ رأى أن الاستجابة العضلية قد تفسح مجالا لعبارات ذات دلالة شخصية أو يدخل فيها العامل الذاتي نظرا لان الباحث سيعتمد هنا أساسا على الملاحظة البصرية ، أما الافراز اللعابي فعلى العكس من ذلك اذ يمكن قياسه بأجهزة قياس كهربائية أو قياسه بأنابيب اختبار وهو ما يعفى الباحث التجريبي من أى تفسير ذاتي • وهذا هو ما كان يعنيه أيضا حين شرع في أعداد معمله فاتخذ كل التدابير الممكنة للحيلولة دون أى منبهات خارجية قد تؤثر على الكلب أثناء وجوده داخل غرفة التجارب ضمانا للموضوعية الكاملة •

ثم هناك فضلا عن هذا امكانية كاملة لاعادة تكرار تجارب بافلوف وهو ما حدث بالفعل من جانب أعداد غفيرة من العلماء في جميع أنحاء العالم • × وهذا دليل على امكانية التحقق تجريبيا من صدق كل ما انتهى اليه بافلوف من حقائق وقوانين وفروض علميه • ولقد خضعت كلها بالفعل للبحث الموضوعي التجريبي، ويمكن لكل من تدرب من العلماء على استخدام مناهج البحث العلمي أن يختبر صدقها •

بيد أن موضوعية منهج البحث عند بافلوف ليست هي قضيتنا الرئيسية، فلن نجد من ينكر ذلك على نحو جدى • ولكن القضية الرئيسية موضوع بحثنا هنا والتي قد يثيرها الكثيرون ، ولهم كل الحق في ذلك ، هي امكانية عقد مقارنة بين منهج فرويد الذاتي الاستبطاني ومنهج بافلوف الموضوعي التجريبي على الرغم من الاختلاف الكيفي بين موضوع بحث كل منهما • ألا يمكن القول أن موضوع البحث عند فرويد ، وهو الحياة العقلية اللاشعورية عند البشر ، لايمكن اخضاعه لمناهج البحث الموضوعية ؟ وألا يمكن القول كذلك بأن هذا المنهج قد يصلح لدراسة الأداء الوظيفي للمخ عند الكلاب ولكنه لا يلائم دراسة النشاط العصبي الراقي الذي ترتكز عليه الطبيعة البشرية بكل مظاهر التعقد الشديد فيها ، ومن ثم فربما يكون الاستبطان هو الوسيلة الوحيدة الميسورة لدراسة الظواهر العقلية • وتماثل هذه القضية المشكلة التي واجهناها عند المقابلة بين الاتجاهين المتعارضين في حياة فرويد العلمية • بيد أننا نود أن نشير هنا الى أن الهدف البعيد لبافلوف كان الرغبة في اكتشاف أساس الحياة العقلية للبشر والمرض العقلي متوسلا لذلك ببحوثه الموضوعية عن الحيوان والنشاط العصبي الراقي عند الانسان • ولكن لنرجىء مؤقتا البحث في هذه القضية الرئيسية

× نذكر من بين هؤلاء معمل جانت بجامعة جون هو بكينز ، ومعمل ليديل بجامعة كورنيل ، ومعمل لا شلى بجامعة شيكاجو •

حتى نفرغ أولا من المقابلة بين أعمال كل من بافلوف وفرويد ، وحتى نفرغ بوجه خاص من المقارنة بين نتائج منهج كل منهما فى مجالات البحث الأساسية لعلم النفس والطب العقلى .

لقد زعم كل من بافلوف وفرويد انه توصل الى « اكتشافات » أساسية عن طريق نافذته الخاصة ومناهج بحثه ، وسواء أكان هذا صوابا أم خطأ فالمسلم به أن هذه « الاكتشافات » تثير اليوم نقاشا حادا على المستوى العالمى . لقد استطاع بافلوف عن طريق نافذة اللعاب والمنهج التجريبى الموضوعى أن ينتج عددا من الظواهر استنبط منها نظرية الأفعال المنعكسة الشرطية . واستطاع فرويد بنافذة الاحلام أن يكشف عن عدد من الظواهر استنبط منها نظرية الكبت . ونبدأ الآن بعرض دراسة مقارنة بين النظريتين .

الفصل الثالث

نظرية الكبت والطاقة النفسية ونظرية الفعل المنعكس الشرطي

جمع كل من بافلوف وفرويد عن طريق منهج البحث الخاص به ثروة دراسية هائلة ، صاغها كل منهما فى شكل نظرية خاصة به : نظرية الفعل المنعكس الشرطى ونظرية الكبت • ويمثل الفعل المنعكس الشرطى النظرية الأساسية فى كل أعمال بافلوف عن النشاط العصبى الراقى ، ويمثل الكبت ، كما عبر فرويد بنفسه ، « حجر الأساس » للتحليل النفسي ، وسوف نعرض هاتين النظريتين الواحدة تلو الأخرى حتى يتسنى للقارىء أن يعقد مقارنة بين العناصر الأساسية والقيمة العلمية لكل منهما •

نظرية فرويد عن الكبت

يقرر فرويد أن « مبدأ الكبت نتاج للدراسة فى مجال التحليل النفسى ، وهو استدلال نظرى مشروع استقيناه من بين عدد لا حصر له من المشاهدات »• × والمشاهدات التى استدل منها فرويد على نظرية الكبت هى مشاهداته عن طريق تفسير الأحلام مستعينا بالتداعى الطليق ومعانى الرموز • وكشف فرويد فى كل الحالات التى تناولها بالفحص عن الظواهر الثلاث التالية :

١ ــ دل تحليل الحلم والتداعى الطليق على أن المريض نسى كثيرا من وقائع حياته الماضية •

٢ ــ كل ما نسيه المريض كان بشكل أو بآخر شيئا مؤلما سواء أكان يثير فى نفسه الخوف أم النفور أم الخجل حسب المعايير الخاصة بالشخص ذاته •

× فرويد ــ « الأبحاث الكاملة » مجلد ١ ــ ص ٢٩٩ •

٣ ـ لكي يتذكر المريض وقائع حياته التى طواها النسيان يلزم التغلب على شيء يحول بقوة دون استعادتها ـ ومن ثم يصبح ضروريا على المحلل أن يبذل قدرا كبيرا من الجهد لينتهر هذا الشيء ويخضعه ، × هذه هي خلاصة مشاهدات فرويد والتي تكررت مئات المرات وقادته الى استدلاله لنظرية الكبت ٠

ان نقطة البدء فى نظرية الكبت هي ملاحظة وقائع النسيان والتذكر ٠ بيد أن المشكلة الأولى تظهر للعيان عندما تتعذر عملية التذكر ٠ ولكن كيف يتسنى للمحلل أن يكشف عن الماضي والخبرة التى طواها النسيان منذ زمان طويل سواء أكانت فكرة أم دافعا اذا كان المريض نفسه لم يتذكرها بعد بل ولا يعرف عنها ولا عن وجودها شيئا على الاطلاق ؟ ذهب فرويد الى أن حل هذه المشكلة يتمثل أولا وأساسا فى تفسير الحلم وما يتضـــــمن ذلك من تداع طليق حول العناصر المختلفة للحلم ومعالجة رؤى الحلم باعتبارها رموزا ذات دلالات ثابتة نترجمها اليها . ويستعين فى الكشف عن هذه الوقائع المنسية او الذكريات اللاشعورية باللجوء الى بعض الظواهر التى يمكن ملاحظتها مثل بعض المظاهر السلوكية التى تأخذ طابع الاعراض المرضية او النقر بالأصابع أثناء التحليل ٠ وكان يوجه عناية خاصة لزلات القلم واللسان والاخطاء التى تكشف عن نسيان لأى شيء . يضاف الى هذا الاهتمام الشديد بظهور أى اتجاه من جانب المريض نحو المحلل قد يكشف عن انفعالات تشير الى مشاعر طواها النسيان ولكن المريض يطرحها عندئذ على الاخرين أو على المحلل ذاته .

حاول فرويد ، مستعينا بكل هذه المؤشرات وبخاصة تفسير الأحلام ، أن يكشف عن المادة اللاشعورية المنسية والمختزنة فى الأعماق الدنيا من العقل ٠

ونظرية الكبت فرض يستهدف تفسير معارضـــة المريض العنيدة لتذكر خبراته المؤلمة التى طواها النسيان منذ زمان طويل واستطاع المحلل أن يميط عنها اللثام ويستخرجها من باطن اللاشعور مستعينا بترجمة رموز الأحلام ٠ واذا كان تفسير الأحلام يشكل أساس منهج التحليل النفسى فان نظرية الكبت تمثل على حد تعبيـر فرويد « حجر الأســـــاس الذى يرتكز عليه كل بنـــــاء التحليل النفسى ٠ » × × وقد عرضنا نظرية الكبت فى أبسط صورها بعيـــدا عن كل مظهر من مظاهر التعقيد ٠

ويفسر فرويد على النحو التالى ميكانيزم كبت الأفكار والدوافع وما يتبعه من نسيان ٠ يتولد فى عقل المرء دافع نفسى لا يقاوم ولكن تظهر معه مباشرة نوازع اخرى قوية معارضة له على أساس أنه دافع فاضح ٠ وبعد صراع قد يطول أو يقصر بين الاثنين ينبذ المرء الدافع الفاضح ويطرده قسرا من نطاق الشعور ٠ الا أن هذا لا يعنى أن الدافع قد تلاشى وتبدد وانما يعني أنه بقي كامنا فى مكان آخر من العقل كدافع لا شعورى محتفظا بقوته الأصلية ٠ ويحاول الدافع بقوة وعناد أن يجد لنفسه وسيلة ليدخل بها الى الشعور ، ولكن يقظة الشعور تظل حائلا يصده دائما وأبدا عن تحقيق ذلك ٠ ويأبى الدافع القوى أن يستسلم ٠ واذا تعذر عليه أن يهتدى الى مدخل يصل منه الى منطقة الشعور بطريقة مباشرة

× فرويد « دراسة عن حياتى » ص ٥٠ ـ ٥١ ٠

× × فرويد « الأبحاث الكاملة » مجلد ١ ص ٢٩٨ ٠

فانه يتوسل لذلك بطرق ملتوية وغير مباشرة • ويلج الدافع الى منطقة الشعور بطرقه الملتوية بين الحين والآخر ولكن بصـــور عديدة ومقنعة • هذا هو الاطار العام لنظرية الكبت • ×

والمهمة الأولى للتحليل ذات شقين : تحديد ما هية الصور المقنعة والنفاذ من خلالها للكشـــف عن الدافع الأصلي المكبـــوت الذى طواه النسيان زمنا • والمهمة الثانية ذات شقين أيضا : حمل المريض على تذكر الدافع القديم الذى كان دافعا شعوريا فى وقت من الأوقات ، ومساعدة المريض ، بحمله على التذكر ، فى التغلب على مقاومته ، التى تختلف قوة وضعفا ، لتذكر ما سبق أن كبته ونساه •

ويمكن النظر الى التحليل النفسى باعتباره عملية متطورة وصياغة متجددة دائما وأبدا لنظرية الكبت فى حدود المعالم الرئيسية لها والتى أسلفنا ايجازها ولم تنته الا بوفاة فرويد • وسوف نعرض فى الفصول التالية صورا لمحاولات الصياغة المتجددة • ولكن ما يعنينا الآن هو عرض أهم العناصر الأساسية لها •

تتضـــمن النظرية فى جوهرها أن الدافع الفاضح ما هو الا صورة عقلية لواحدة أو أكثر من الغرائز وبخاصة غريزة الجنس • واذا حدث مثلا أن دخـل منطقه الشعور دافع أو فكرة يمثل الغريزة الجنسية فسرعان ما تجابهه نوازع عاتية فى صورة الضمير للمرء • والضمير من حيث هو تجسيد للمعايير الاجتماعية والخلقية والمثل الأخلاقية والعقائد الدينية للشخص ، فانه هو الذى يصدر حكمه على الدافع أو الفكر مقيما اياه بأنه دافع فاضح ومن ثم مؤلم ، وسرعان ما يدخل فى صراع معه • وبعد صراع حاد ومرير يخرج التعبير الغريزى الفاضح مطرودا من منطقة الشعور • ويعمل الضمير هنا كرقيب وظيفته فرز ما يصح وما لا يصح أن يبقى فى الشعور • ولكن الضمير له وظيفة أخرى غير هذه • فوظيفته ليست قاصرة على طرد التعبيرات الغريزية المنبوذة بل يعمل أيضا كحارس يقف عند بوابة الشعور ليحول دون عودة الدوافع والأفكار المرفوضة الى الشعور ثانية • فالضمير اذن هو الحارس اليقظ المسئول عن الكبت بمعناه الدقيق • ويتألف الكبت من عمليتين : النبذ والحجز لكل ما هو فاضـــح حتى لا يبقى منه شىء فى الشعور •

ولكن التعبير الغريزى الفاضح يحاول بعد كبته العودة الى مثوى كل الأفكار المكبوتة والذى يطلق عليه فرويد اسم اللاشعور • فاللاشعور مستودع عقلى موجود فى مكان ما من العقل ولا يختزن فقط الدوافع المكبوتة بل يختزن أيضا كل التعبيرات الغريزية ســواء ســبق لها أن دخلت الشعور أم لم تدخل • ويذهب فرويـد الى أن التعبير الغريزى هو فكرة أو دافـــع يعبر عن غريزة بيولوجية •

وحين يرتد التعبير الغريزى المكبوت الى اللاشــعور فأنه يظـل محتفظا بقوته أو بقدرته على الافصاح عن نفسه فى ثنايا الانفعالات أو فى النشاط الحركى •• ويسمى فرويد هذه القوة المدخرة « شــحنة الطاقة النفسية » • ويرى أن كل التغبيرات الغريزية ســواء أكانت باقية فى اللاشعور أم داخل

× فرويد « دراسة عن حياتى » ـ ص ٥٠ ـ ٥٣ •

الشعور أم ارتدت مكبوتة الى اللاشعور فانها تظل محتفظة بشحنتها من الطاقة النفسية • ويظل الدافع أو الفكرة المعبأ بالشحنة النفسية يحاول في دأب وقلق بعد كبته النفاذ الى الشعور أو تفريغ شحنته من خلال النشاط الحركي للسلوك •

ونحن نعثر على الصور المقنعة لشحنات التعبيرات الغريزية في شكل عناصر للأحلام وفي شكل مستدعيات طليقة أو فلتات للقلم واللسان أو سلوك يعبر عن أعراض مرضية أو انفعالات واتجاهات مطروحة أو اشباعات بديلة ومقبولة اجتماعيا ، والتي نطلق عليها اسم « التسامي » وتتضمن أوجه النشاط الثقافي أو الفني أو السياسي أو الأخلاقي أو الديني ، أو تتبدى في شكل نكات ودعابات ، وأخيرا فقد تفصح عن نفسها في شكل حالات مرضية نفسية (سيكوباثولوجية) كأعراض عصابية أو ذهانية بما في ذلك التخييلات والهجاس • ×

بعد هذه الصورة التي قدمناها لنظرية الكبت تصبح مهمة المحلل أكثر وضوحا • فاذا كانت مهمته اكتشاف الدوافع اللا شعورية المكبوتة التي طال أمد نسيانها اذن يصبح لزاما عليه أن يفحص بدقة أحلام المريض ومستدعياته الطليقة وفلتات قلمه ولسانه والمظاهر السلوكية الدالة على أعراض مرضية ، وانفعالاته واتجاهاته التي يطرحها على الغير ، وسلوكه الهادف الى التسامي ، ونكاته ودعاباته • واذا كان المفحوص مريضا وجب على المحلل أن يفحص بدقة وعناية المحتوى الذاتي لتخييلاته وهجاسه • ان واجب المحلل النفسي البحث في كل هذه الظواهر لأنها صور تعبيرية مقنعة قد تشير الى طبيعة التعبير الغريزي الأصلي المعبأ بشحنة الطاقة النفسية والذي حدث أن كبته المريض في لحظة من لحظات حياته الماضية •

وما ان يكتشف المحلل ، أو يظن أنه اكتشف ، التعبير الغريزي الأصيل المكبوت حتى يصبح من واجبه العمل على قهر معارضة المفحوص لاستعادة التعبير الغريزي الى الشعور • فواجب المحلل في هذه المرحلة الثانية من مهمته هو التغلب على ما يبديه ضمير المفحوص أو الرقيب أو حارس الشعور من ممانعة ، ويكون هدف المحلل من ذلك السماح بعودة ما كان مستبعدا في الماضي • وما أن تقل درجة ممانعة الضمير الى الحد الذي يسمح بعودة الدافع المكبوت الى الشعور حتى تبدأ عملية تنفيس أو تفريغ تبدد شحنة الطاقة النفسية للدافع المكبوت ومن ثم يتلاشى هذا الدافع بعدها • وهنا وبعد تلاشي الدافع المعبأ بالشحنة النفسية نتيجة دخوله الى الشعور • تختفي كل صور الانحراف وتعبيراتها الملتوية المتمثلة في عناصر الحلم وفلتات اللسان ، والأعراض المرضية للسلوك اذا كان المفحوص مريضا •

طور فرويد في مرحلة تالية نظريته عن الكبت وتوسع في بيان عناصرها تفصيلا • وتتضمن هذه العناصر : الغرائز والجنسية الطفلية واللا شعور ، والممانعة والشعور ، والتسامي ، والضمير والرقيب ، ومبادىء اللذة والألم والواقع ، والطاقة النفسية • وسوف نقصر حديثنا هنا على تطوير فرويد

× المرجع السابق – ص ٦٦ – ٦٧ •

لمفهومه عن الطاقة أو الشحنة النفسية ، أما باقي العناصر فسوف نتناولها في فصول تالية ٠

تلعب الطاقة النفسية دورا حاسما في نظرية الكبت كما هو واضح من العرض الذي أسلفناه ٠ ويقول فرويد عن الطاقه النفسية : « اننا لن نتقدم خطوة الى الامام بدون افتراض وجود طاقة من هذا النوع يمكن ابدالهـا » ٠ وسيتضح لنا أن مفهوم الطاقة النفسية هو عماد نظرية الكبت ، وأن الكبت هو المفهوم الرئيسى فى التحليل النفسى ٠

يتصـــور فرويد مفهوم الطـاقة النفسية على نحو مماثل لهذا المفهوم فى العلوم الطبيعية ــ علوم الميكانيكا والحرارة والكهـرباء والكيمياء ٠ وتنظـر الفسيولوجيا الى جسم الانسان باعتباره نظاما معقدا من الطاقة يستخدم الطاقة المستمدة من الطعام لأداء عمليات عضوية مثل الدورة الدموية والتنفس والهضم والتوصيل العصبى والنشاط العضلى والغدى بوجـه عام ٠ وأضاف فرويد الى هذه الأشكال المختلفة من الطاقة شكلا آخر هو « الطاقة النفسية » وافترض أنها علة نشاط العمليات النفسية الخاصة بالادراك والتذكر والتفكير ٠٠ الخ ٠ فالطاقة النفسية ، حسب تصور فرويد لها ، تباشر عملا سيكولوجيا مماثلا تماما لعمل الطـاقة الميكانيكية على سبيل المثـال فى مجال الحركة الميكانيكية ٠ ويذهب فرويد الى أن الطاقة البدنية تتحول الى طاقة نفسية كما أن هذه يمكن أن تتحول الى طاقة بدنية ٠ مثال ذلك أن قوة انقباض المعدة تتحول الى طاقة نفسية متمثلة فى غريزة الجوع ٠ ولقد كان فرويد بالفعل يعتبر الطاقة النفسية ككل طاقة غريزية أساسا ٠ ويحدثنـا عن الجهاز العقلى فيقول : « ان الطاقة التى تملأ هذا الجهاز انما تصدر جلها عن دوافعه الغريزية الفطرية » ٠ ويذهب فرويد الى أن كمية الطاقة النفســية الخاصة بأى دافع غريزى انما تتوقف على شدة المنبه لهذا العضو أو ذاك ٠

والطاقة الغريزية أو النفسية التي وجه لها فرويد جل اهتمامه ورصد لها كل جهده وأعماله هى طاقة الغريزة الجنسية ٠ واتخذ كلمة ليبيدو اسما دالا على الطاقة النفسية للغريزة الجنسية ٠ ويقول فرويد « يماثل الليبيدو الجوع مماثلة تامة ، فاذا كان الجوع هو القوة التى تعبر بها غريزة الطعام عن نفسها فان الليبيدو هو القوة التي تعبر بها الغريزة الجنسية عن نفسها » × ٠ بيد أن فرويد كان يتصور الطاقة النفسية باعتبارها شيئا يمكن ابداله ، بمعنى أن طاقة غريزة ما يمكن أن تنفصل وتتحول الى طاقة غريزة أخرى مختلفة عنها كيفيا ، ولذلك فاننا لا نجد فى الحقيقة ما يبرر اصراره على أن الليبيدو طاقة نفسية جنسية خاصة ٠ ويقول فى هذا الصدد « انني اما أن أسقط مصطلح « الليبيدو » تماما أو أن استخدمه للدلالة على نفس الطاقة النفسية بمعناها العام » × × ٠

لم يكن فرويد واضحا تماما في مفهومه عن الطاقة النفسية ٠ فهو يقول على سبيل المثال : « ســبق أن تصورنا العقل وكأن به طاقة قابلة للابدال ،

---

٧ فرويد ــ الأنا والهو » ٠ ص ٦١ ــ ٦٢ ٠

× × فرويد « محاضرات تمهيدية جديدة » ص ــ ١٤١ ٠

وهي طاقة محايدة في ذاتها ، ولكنها قادرة على أن تلتحم بقوى ذات دافع شبقي أو تدميري وهي قوة متباينة كما هو واضح وتضيف الى الطاقة شحنتها الكلية . وأحسب أننا لا نستطيع أن نتقدم خطوة الى الامام دون افتراض وجود طاقة من هذا النوع قابلة للابدال . والسؤال هو من أين تصدر والى أى شيء تنتمي وما أهميتها ؟ . » تنتمي الطاقة الى غريزة مشتقة بدورها من مصدر عضوى ، وترجع أهميتها ، عند فرويد الى أنها المعين الذى تصدر عنه كل الطاقة المستخدمة في الجهاز العقلي ويمكن أن تتحول من دافع غريزى الى آخر . ويصف فرويد طبيعة عمل الطاقة النفسية بالنسبة للغرائز الجنسية فيقول : « بالنسبة للمكونات الغريزية الجنسية والتي تتميز بسهولة ملاحظتها يمكن لنا أن نلاحظ نشاط العمليات التي تقتنمها فئة واحدة على النحو الذى نعرضه ، بمعنى أننا نلحظ أن ثمة درجة من الاتصال المتبادل بين المكونات الغريزية بحيث ان احدى الغرائز النابعة عن معين شهوانى النشأة قد تنقل شحنتها لتعزز بها غيرها من المكونات الغريزية النابعة من مصدر آخر ، أى بعبارة أخرى أن اشباع غريزة ما قد يكون بديلا لاشباع غريزة أخرى مغايرة . وثمة حقائق أخرى كثيرة لها نفس هذه الطبيعة » × .

اذن فالطاقة النفسية (أو الليبيدو) قابلة للابدال وهي طاقة محايدة مستمدة من الغرائز وتستمدها هذه بدورها من شدة المنبهات الصادرة عن أعضاء البدن . هذا هو على وجه التقريب جماع ما أدخله فرويد من تطوير على مفهومه . بيد أن لديه الكثير مما يقوله عن دور الطاقة النفسية فى عملية الكبت . سوف نعرض لهذا الدور حين نتناول فى الفصول التالية آراء فرويد فى علم النفس وعلم الأمراض النفسية . أما الآن فسوف نقصر عرضنا على ما سماه فرويد « اقتصاد الديناميات النفسية » .

ان شحنة الغريزة من الطاقة النفسية هى التى تمنح الغريزة دافع الاتجاه نحو الشعور والتعبير الحركى . فاذا كان اتجاه الدافع الغريزى نحو الشعور اتجاها عدوانيا حسب معايير الضمير والقيم والعقائد فان الشعور يتعين عليه أن يبذل قدرا من الطاقة معادلا لتلك لكبت أو طرد الدافع الغريزى المشحون خارج الشعور . ويسمى فرويد هذه الشحنة المقابلة للطاقة النفسية باسم الشحنة المضادة . فالشحنة تنبع من الغرائز أما الشحنة المضادة فتنبع من الضمير . وتؤلف العلاقات الدينامية بين الاثنين اقتصاد الديناميات النفسية . ولكى يتحقق نوع من الأداء الوظيفى الصحى يلزم أن يتحقق توازن دينامى بين الشحنة والشحنة المضادة للطاقة النفسية . وان أى زيادة فى شدة شحنة الدافع الغريزى أو شحنة الدافع الغريزى المكبوت من شأنها أن تقلب التوازن الدقيق بين الشحنة والشحنة المضادة . ومن ثم فان أى زيادة فى الشحنة يستلزم على أقل تقدير زيادة تعادلها فى الشحنة المضادة .

ويقول فرويد « لنا أن نتخيل أن المكبوت يبذل جهدا متصلا بغية الوصول الى الشعور وهذا يقتضى المحافظة على التوازن ببذل ضغط مقابل بصورة مطردة . ومن ثم فان البذل المستمر للطاقة يستتبع استمرار الكبت ، وابطال أثر الكبت يعنى اقتصاديا الادخار » . ان الكبت يبلغ أقصى درجات النجاح اذا

× فرويد ـ « الأنا والهو » . ص ٦١ ـ ٦٢ .

أمكن تفريغه من شحنة الطاقة النفسية أو اذا أمكن طرح الشحنة طرحا كاملا [١]. وفي مثل هذه الحالة فان الدافع المكبوت الذى تجرد من شحنته يصبح عاجزا عن ممارسة أى ضغط نحو الشعور أو السلوك ومن ثم لا يستلزم أى شحنة مضـادة • أما فى حالات الكبت الفاشـلة فان الدافع الغريزى المكبوت يظل محتفظا بشحنته من الطاقة النفسـية ويستمر بالتـالى فى بذل هذه الطاقة بصورة ثابتة ومطردة وهو ما يستلزم توافر شحنة مضادة للابقاء على الكبت • والشحنة الباقية فى حالة الكبت الفاشل ستظل تمارس ضغطا مطردا معاكسا للشحنة المضادة ، وتحاول بالفعل بين الحين والآخر أن « تخادعها » لتجد لنفسها مدخلا الى الشـعور متوسلة لذلك بالطرق الملتوية وبالعـديد من الأشكال السلوكية المقنعة ـ رؤى الأحلام وفلتات اللسان والأعراض العصابية •• الخ •

ان ديناميات الحياة النفسية تتألف عند فرويد من « اقتصـاد » الجهاز العقلى أى التوازن الدينامى أو التوازن غير المستقر بين شحنة الغريزة والشحنة المضادة •

وتمثل نظرية فرويد عن الكبت محاولة لتفسير الحياة العقلية بمصطلحات عقلية خالصة ودون الاحالة الى المخ • ومفهوم الطاقة النفسية عنده هو البديل لمفهوم الطاقة العصبية أو التوصيل الكيميائى والكهربائى للدوافع فى الجهاز العصبى المركزى • ولم يجد أمامه من دليل على مثل هذه الطاقة العقلية الا أن يقدم نظريته عن الكبت • ولهـذا كان لزاما على فرويد أن يبتدع طاقة نفسية أسطورية لتكون الأسـاس لنظرية العقليـة الخالصـة عن العمليات العقلية • أما بافلوف فعلى النقيض من ذلك اذ حـاول تفسـير الحياة العقليـة فى ضوء مصطلحات النشـاط العصبى الراقى للمخ ، ووجـد فى الطاقة الكيميائيـة والكهربائية للجهاز العصبى المركزى ما يغنيه تماما عن افتراض وجـود طاقة نفسية واتخذ المفهوم التقليدى عن الفعل المنعكس الفسيولوجى محورا لمبحثه عن النشاط العصبى الراقى • وزعم أنه قادر بمنهجه هذا على أن يفسر الظواهر العقلية دون التخلى عن المفاهيم أو الأساليب العلمية التى تأكد صوابها • ويمثل الفعل المنعكس الشرطى أجـل مساهماته وصـولا الى تفسير فسيولوجى واف للحياة العقلية •

ولنبدأ الآن فى المقابلة بين مفهوم فرويد عن الطاقة النفسـية ونظريته العقلية الخالصـة عن الكبت وبين نظـرية بافلوف عن الفعل المنعكس الشرطى والطاقة العصبية •

نظرية الفعل المنعكس الشرطى عند بافلوف

توصـل بافلوف بالأنبوبة اللعابية لبحث فسيولوجيا أو طريقة الأداء الوظيفى للأجزاء العليا من المخ أو النصفين الكرويين •

يبدأ بافلوف عند عرضـه لنظريته عن الأداء الوظيفى للنصفين الكرويين بتعريف الفعل المنعكس كما حـددته الأبحاث الفسيولوجيـة على مدى قرون خلت • والفعل المنعكس مفهوم علمى يعنى أن عاملا محـددا مصـدره العالم الخارجى أو الجهـاز العضوى الباطنى للحيوان يسبب تأثيرا محـددا فى هذا

الجهاز أو ذاك من أجهزة الاستقبال العصبية (العينين أو الأنف أو الأذنين أو الجلد أو الأغشية المخاطية ٠٠ الخ) ويتحول هذا التأثير الى عملية عصبية أى الى اثارة عصبية ٠ وتنتقل الاثارة عبر الياف عصبية محددة الى الجهاز العصبى المركزى حيث تكونت من قبـل ارتبـاطات عصبية أو حيث فتحت لها طرق جديدة ٠ وتتم عملية الارتباط عن طريق النخاع الشوكى أو قطاعات محددة من المخ أو بهما معا ٠ وبعد عمليـة الارتبـاط هذه تنتقل الاثارة عبر ألياف عصـبية محددة الى الجهـاز العصبى المركزى حيث تكونت من قبـل ارتباطات عصـبية أو حيث فتحت لها طرق جديدة ٠ وتتم عملية الارتباط عن طريق النخاع الشوكى أو قطاعات محددة من المخ أو بهما معا ٠ وبعد عملية الارتباط هذه تنتقل الاثارة عبر ألياف عصبية أخرى الى هذا العضو أو ذاك من الأعضاء العاملة (اليد أو القدم أو الفم ٠٠ الخ) حيث تتحول بدورها الى نشاط خاص لخلايا العضو الذى يبدأ فى الاسـتجابة الحركيـة الملائمة ٠ وهكذا فان العامل التنبيهى فى الفعل المنعكس هو العلة التى تصدر عنها فى داخل الكائن الحى ، حيوانا أم انسـانا ، نتائج عصـبية محـددة عضلية أو غدية ٠ وهذه العلاقة بين العلة والمعلول انما هى تعبير عن علاقات يمكن اكتشـافها والاهتـداء الى قوانينها ، على نحو ما هو حادث بالنسـبة لعلاقات العلة والمعلول فى الطبيعة الحية وغير الحية ٠

وتبدأ مساهمة بافلوف بالتمايز بين الأفعال المنعكسة الفطرية والمكتسبة ٠

الفعل المنعكس الشرطى والنشاط الاشارى :

لوحظ أن الحيوانات التى استؤصل منها لحاء المخ لا تستجيب الا للمنبهات القريبة المباشرة ، وعدد هذه المنبهات محدود للغاية وتتسم بأنها عامة جدا وغير متمايزة ٠ فالحيوان بدون اللحاء لا يستجيب الا لعدد محدود من القسمات العامة للبيئة المباشرة ٠ ان ما يعوز الحيوان فى هذه الحالة هو الجهاز الاشارى برمته ٠ ذلك لأن الحيوان الذى استؤصل منه لحاء المخ يفقد القـدرة على الاسـتجابة للاشـارات ومن ثم يعانى من اختـلال عميق للتوازن مع البيئـة ، اذ فقد ، باستئصال اللحاء ، نصف قدرته على التكيف فى ظروف الحياة المحيطة به ولم يبق له الا الجزء الخاص بالتكيف الوراثى المتمثل لدى النوع فى شكل أفعال منعكسـة فطرية ٠و هذا النوع من الأفعال المنعكسـة قاصر على التكيف مع القسمات الثابتة نسبيا للطبيعة أى تلك القسمات التى تظل ثابتة فى جوهرها لمئات وآلاف السنين ٠

ويمثل اللحاء جهاز التكييف المطرد مع ظروف البيئة المتغيرة دوما من يوم الى آخر ٠ ويتميز الجهاز الاشارى للحاء بأنه فى حالة تغير متصل يواكب حالة التغير التى تطرأ على قسمات البيئة الأقل ثباتا ٠ وتتطلب الحياة اليومية خلق ارتباطات تفصيلية متخصصـة بين الحيوان والعالم المحيط به ٠ والوظيفـة الاشارية للحاء هى التى تهيىء لعدد كبير من المنبهات الطبيعية الفرصة للعمل كاشارات دقيقة وبديلة لهذا العدد القليل نسبيا من العوامل الاساسية المؤثرة التى تحدد الأفعال المنعكسة الفطرية ٠ فمن خلال هـذا النشـاط الاشـارى للنصفين الكرويين للدماغ ومن خلاله وحده ، يحقق الكائن الحى التكيف الدقيق والمحكم مع بيئته فضلا عن أنه تكيف متغير أبدا ٠

ويكشف النشــاط الاشارى للنصــفين الكرويين للدماغ عن العناصر الأساسيه للنشاط العصبى بوجه عام وتعنى بها الافعال المنعكسه • ويرتكز النشاط الاشارى على ميكانيزم الفعل المنعكس ولكنه نوع آخر من الفعل المنعكس غير النمط الفطرى • فالنشاط الاشارى هو نشاط فعل منعكس وقتى ومكتسب مشروط بالزمان والمكان أما الفعل الخاص بالقطاعات الدنيـا من المخ والجهـاز العصبى المركزى فهو فعل منعكس ثابت وفطرى • ولهذا سمي بافلوف الفعل المنعكس الاشارى فعلا منعكسا شرطيا والفعل المنعكس الفطرى فعلا منعكسا غير شرطى • وذهب بافلوف الى أن النصفين الكرويين للدماغ يؤديان وظيفتهما على أساس الفعـــل المنعكس الشرطى • وقضى بافلوف قرابة خمســة وثلاثين عاما ليحكم تجريبيا صوغ حقائق وقوانين العقل المنعكس الشرطى مستوضحا طريقة تكونه وتنقيته ليكون فعلا دقيقا مرهفا وطريقة انطفائه ولا يسعنا هنا الا أن نعرض لعدد قليل من قسماته العامة •

التركيب : تكوين الارتباطات الشرطية :

الشرط الأول لتكوين فعل منعكس وقتى أن يحدث توافق ، لمرة واحدة أو لعدة مرات كما يحدث غالبا ، بين منبه محايد ــ الذى يمكن أن يكون أى شىء فى البيئة وتدركه الحواس ــ وبين فعل منعكس فطرى أو غير شرطى • وتمثل هذه الحقيقة حجر الزاوية فى نظرية بافلوف وأكدت صحتها آلاف التجارب التى استخدم فيها الباحثون أشد الظواهر تباينا ، ابتداء من رنين الأجراس وومضات الضوء الى تهيج الجلد والروائح ، وأصبحت بالفعل منبهات شرطية أو اشارات دالة على موضوعاتها كالطعام أو المواد الحمضية وتثير الفعل المنعكس غير الشرطى الخاص بافراز اللعاب • وبرهنت هذه التجارب على أن أى شىء فى البيئة ، فى حدود طاقة أعضاء الحس ، يمكن أن يصبح اشارة بديلة للمؤثر غير الشرطى المألوف •

وتنشأ الأفعال المنعكسة الشرطية الجديدة نتيجة لعملية عصبية تسمى اثارة • وتتكون هذه الأفعال اما على أســاس أفعال منعكســة فطرية أو أفعال منعكسة شرطية راسخة • ويتمثل ميكانيزم حلقة الارتباط فى عملية توافق زمانية بسيطة • فأى شىء تبصره العينان أو تسمعه الأذنان أو يشمه الأنف عدة مرات قبل التنبيه مباشرة لهذا أو ذاك من الأفعال المنعكسة الفطرية ، كالاطعام مثلا ، يرتبط بهذا الفعل • خلاصة القول أن اطراد تزامن منبهين شرط كاف لتكوين فعل منعكس شرطى جديد • وقد يؤلف هذان المنبهان رابطة واحدة بين منبه شرطى وآخر غــير شرطى ، أو بين منبهين شرطيــين أحدهما قديم والآخر حــديث التكوين • وأطلق بافلوف مصطلح « التركيب » على عملية تكوين ارتباطات شرطية جديدة •

التحليل : تنقية الارتباطات الشخصية

بيد أن التركيب ليس الا البداية لعملية التكيف أو التوازن الدينامى بين الحيوان وبيئته • فالارتباطات الشرطية الجـديدة هى استهلال فج ، ذلك لأن أى ارتباط شرطى يربط بين صوت محدد والطعام على سبيل المثال ينتشر بحيث يندرج ضمنه أى صوت من الأصوات • ومن ثم فان الأمر يتطلب عملية ثانية

بالاضافة الى التركيب حتى يصبح التكيف أو التوازن فعالا وايجابيا بحق • والخطوة الثانية هي تحليل الرابطة الانعكاسية الوقتية الجديدة • فليست الأصوات جميعها تحذيرا جادا يشير الى خطر داهم للحيوان وانما يجب أن يكون صوتا محددا بذاته صادرا عن هذا العدو أو ذاك •

وعملية التنقية التحليلية للأفعال المنعكسة الشرطية تختص بها عملية عصبية أساسية هي الكف فالكف والاثارة يؤلفان عند بافلوف الوجهين الأساسين للنشاط العصبي الراقي على نحو ما هو حادث بالنسبة للنشاط العصبي الأدنى •

والوظيفة الأساسية للكف هي التكيف وذلك باعتبار دوره التحليلي • اذ ان وظيفته بوجه عام هي اعاقة الاثارة عن طريق انقاص تعزيز المنبهات الشرطية• وتبدأ هذه العملية في الطبيعة منذ لحظة الميلاد • فالحيوان تنبهه دائما وأبدا أصوات متباينة بيد أنه من خلال الخبرة لا يستجيب الا لتلك الأصوات التي تأكدت فعاليتها كأن يحصل معها على طعامه مثلا أو تجنبه خطرا يهدده أو يجد معها أليفه • ولكن اذا نظرنا الى الموضوع من الناحية العلمية نجد أن الحيوان تعلم ، خلال نشأته ونموه ، كف المنبهات الشرطية التي لم يعززها اشباع الأفعال المنعكسة الفطرية ، كما رسخت لديه ، من ناحية أخرى ، أفعال منعكسة شرطية للمنبهات التي وجدت ما يعززها بقوة • وهكذا فان التحليل عن طريق الكف مثله مثل التركيب عن طريق الاثارة كل منهما يشكل جانبا حيويا للنشاط العصبي الراقي للنصفين الكرويين للدماغ • اذ أن أي واحد منهما بدون الآخر سيؤدي الى اختلال مدمر للتوازن بين الكائن العضوي الحي وبيئته •

وعملية التحليل هي في حقيقتها تنقية للسلوك الخاص بالتكيف • ونحن ننظر اليها لدى الحيوان وكأنها ذكاء وادراك بل فكر وروية ، وهي أهم الأسباب التي دعت الناس الى أن تنسب الى الحيوانات خصائص البشر العقلية • اذ تتراءى لنا وكأن الحيوان يظهرنا على درجة كبيرة من القدرة والنشاط الواعيين • وحقيقة الأمر كما يرى بافلوف ، أن الجهاز الدقيق والمرهف المسئول عن النشاط العصبي الراقي لدى الحيوان ، أي النصفين الكرويين للدماغ ، هو الذي يفسر لنا أشد أنواع سلوك الحيوان تعقدا دون حاجة الى أن ننسب اليه أي صفة من صفات العقل البشري •

الانطفاء : النسيان والتذكر عند الحيوانات

ثمة صورة أخرى وثيقة الصلة بعملية الكف الخاص بالتكيف ونعني بها انطفاء الأفعال المنعكسة الشرطية • ان أهمية تكوين ارتباطات شرطية جديدة تعادل أهمية تلاشي هذه الارتباطات بعد أن تصبح غير ذات فائدة بالنسبة للحيوان • أو بعبارة أخرى فان « النسيان » يعادل في أهميته « التعلم » في المرحلة الأولى أو « التذكر » • مثال ذلك • صوت أصبح اشارة أو منبها شرطيا للدلالة على خطر قد يصبح هو ذاته فيما بعد مصدر خطر ، أو عائقا على أقل تقدير ، او ظل باقيا بعد أن يبطل مفعوله كاشارة ايجابية •

ووجد بافلوف أن الأفعال المنعكسة الشرطية تكف عن العمل أو تذوي ويبطل مفعولها اذا لم يعززها بصورة دورية الفعل المنعكس غير الشرطي الذي

يعمل كاشارة دالة عليه • وهذا النوع من الانطفاء للارتباطات الشرطية يحدث عمليا فى الطبيعة بصورة مستمرة • فأى تغير يطرأ على البيئة كالانتقال من موضع الى آخر يستلزم ، اذا كان تحولا ثابتا نسبيا ، انطفاء بعض الاشارات القديمة ونشوء اشارات اخرى جديدة •

ان الأفعال المنعكسة الشرطية قابلة دائما وأبدا لأن تنطفىء مثلما هى قابلة لأن تتكون وأن يعاد تكوينها من جديد أى أن « يتذكرها » الكائن الحى بفضل اعادة تعزيزها ولو مرة واحدة بالفعل المنعكس غير الشرطى الذى ارتبطت به أصلا • وهكذا فلو أن صوتا محددا انطفأ بعد أن كان منبها شرطيا للاطعام فان الحيوان يمكن أن يستعيده اذا ما اقترن الصوت ولو مرة واحدة بعد ذلك بعملية الاطعام الفعلية •

والعمليات الثلاث : تكوين وانطفاء واعادة تكوين الأفعال المنعكسة الشرطية تطابق بصورة ما عمليات « التعلم » و « النسيان » و « التذكر » عند الانسان •

لقد أغفلنا ، من بين ما أغفلنا ، فى هذا العرض الموجز لأبحاث بافلوف عن النصفين الكرويين للدماغ دراساته عن الظواهر البشرية النوعية • اذ قصرنا اهتمامنا على المكونات الأولية جدا الدالة على الأداء الوظيفى العام للنشاط العصبى الراقى ، وهى المكونات التى ذهب بافلوف الى أنها عناصر مشتركة بين الانسان والحيوان على حد سواء •

مقابلة بين النظريتين

فى هذه المقابلة بين نظرية فرويد عن الكبت ونظرية بافلوف عن الفعل المنعكس الشرطى تبرز صورتان على الأقل متمايزتان أشد التمايز •

يبدأ فرويد نظريته انطلاقا من ملاحظتين يشرع بعدهما فى بناء صرح علوى ضخم من الفروض التى تفسرهما • فلكى يفسر نسيان الأحداث الأليمة والممانعة فى استعادتها الى الشعور يطرح فرويد عددا من الفروض ، بالاضافة الى غريزتى الجنس والموت ، وهى الشحنة أو الطاقة النفسية ، والرقابة أو الشحنة المضادة ، وادخار الشحنة بعد الكبت ثم أخيرا الطرق الملتوية أو الصور السلوكية المقنعة التى تتوسل بها الدوافع المكبوتة للعودة الى الشعور • ×

× تقوم نظرية الكبت عند فرويد على نوع من الاستدلال الدورى • ويبدو هذا جليا اذا عرفنا ان المحلل يبدأ « باكتشاف » الدوافع اللاشعورية المكبوتة والمنسية • ويتوسل المحلل لاكتشافة هذا بتفسير رؤى الحلم وفلتات اللسان والمظاهر السلوكية الدالة على إعراض مرضية والمستدعيات اللاشعورية • وتذهب النظرية بعد عدد من الفروض الأخرى الى أنهذه الظواهر ذاتها انما هى طرق ملتوية أومقنعة تتوسل بها الدوافع المكبوتة للدخول الى منطقة الشعور • وهكذاتنتهى النظرية الى حيث بدأت ونجد الذيل فى موضع الفم ، ذلك لأن الخطوةالنهائية وهى الطرق الملتوية والوسائل المقنعة متضمنة فى الخطوة الأولى وهى اكتشاف الموضوعات المنسية ـ نظرا لأن المحلل لا يجد وسيلة لاكتشاف الموضوعات المنسية غير تفسير الأحلام والفلتات والسلوك الدال على أعراض مرضية •• الخ باعتبارها طرقا ملتوية ومقنعة تسلكها الدوافع المكبوتة •

ولكن بافلوف ، على العكس من ذلك ، قدم نظريته عن النشاط العصبى الراقى المكتسب أو الناتج عن التطور انفردى ، وهو الفعل المنعكس الشرطى ، باعتبارها تعميمات لوقائع استدل عليها تجريبيا • ووضع هذه التعميمات موضع الاختبار والتنقيح فى ضوء عدد لا حصر له من التجارب انتهى منها الى مجموعة من القوانين والنتائج النظرية التى تأكدت صحتها وقابله للبرهنة عليها تجريبيا • ثم انه فضلا عن ذلك انطلق فى دراسته التجريبية عن الفعل المنعكس الشرطى من النظرية العلمية الراسخة عن الفعل المنعكس باعتباره خصيصة مميزة للنشاط العصبى بوجه عام • وهو فى واقع الأمر لم يفعل سوى أن طبق مفهوم الفعل المنعكس الثابت تجريبيا على النشاط العصبى الراقى •

وذهب بافلوف أيضا الى أن التكيف هو مناط وظيفة كل من النشاط العصبى الراقى الفطرى والمكتسب • وتكيف الكائن العضوى الحى مع بيئته حقيقة أكدتها من قبل دراسات علماء البيولوجيا فى مقدمتهم داروين • بيد أن فرويد ذهب الى أن وظيفة النشاط العقلى الراقى ، الفطرى والمكتسب على السواء، لا تختص أساسا بعملية التكيف وانما تختص أولا بالصراع الداخلى بين الغرائز والشعور • وهنا يقف فرويد على النقيض تماما من كل الحقائق والقوانين التى أكدت صوابها العلوم الأخرى وبخاصة علم الحياة •

صفوة القول أن المقارنة بين نظريتى الكبت والفعل المنعكس الشرطى تظهرنا على أن فرويد كان يركن أساسا الى فروض تأملية ، على النقيض من بافلوف الذى كان يركن أساسا الى وقائع تجريبية •

ولقد كان فرويد نفسه يمايز دائما فى وضوح وصراحة بين ملاحظاته وفروضه • وكان يسوق فروضه لتفسير ملاحظاته — بيد أنه أكد وباصرار أن الافتقار الى المعارف العلمية فى مجالات البحث الأخرى وبخاصة الفسيولوجيا والبيولوجيا هى التى اضطرت علماء النفس الى سوق فروض تأملية خالصة •

انه صحيح تماما أن الفروض التأملية التى تضمنتها نظرية فرويد عن الكبت يمكن ، باعتبارها نسقا منطقيا ، أن تفسر نظريا حقيقتى الممانعة والنسيان • ولكن ماذا لو كانت هناك نظرية علمية تجريبية دقيقة يمكن أن تفسر بدورها هاتين الحقيقتين ، فضلا عن حقائق أخرى غيرهما ، ألا يحق لنا أن نقول ان تاريخ كل العلوم يقف شاهدا قاطعا على أنها هى النظرية الصحيحة ؟

أما عن القطع بأن نظرية بافلوف عن النشاط العصبى الراقى بأفعاله المنعكسة الشرطية وغير الشرطية تفى بهذا الغرض فلا زال حكما سابقا لأوانه فى هذه الصفحات الأولى من الكتاب • اذ يتعين علينا أن نرجىء حكمنا النهائى حتى نرى فى الفصول التالية الموقف العملى لنظرية بافلوف فى تفسير الظواهر البشرية • ولكن قد يكفينا أن نشير هنا الى أن عمليتى الاثارة والكف العصبيتين يتضمنان عناصر تفسر « النسيان » و « التذكر » عند الحيوانات على أقل تقدير• فالنسيان هو عملية انطفاء للفعل المنعكس الشرطى بعد أن توقف تعزيزه ، والتذكر هو عملية اعادة تكوين للفعل المنعكس الشرطى بعد تعزيزه من جديد •

وجدير بنا أن ننوه هنا الى نقطة هامة وهي أن علم النشــاط العصبي الراقي لا زال قاصرا عن أن يشكل أساسا لتفسير كل أو جل الظواهر النفسية. ان العلوم التجريبية تخطو خطوات بطيئة في انتقالها من حقيقة الى أخرى ــ وهو بطء نسبي قياسا الى قفزات وشطحات التأمل النظرى .

ونحن في هذا العرض الاجمالي للمقابلة بين نظريتي فرويد وبافلوف لم نعقد بينهما مقارنة تفصيلية متوازية ولم يكن هذا هدفنا وانما كان محور هدفنا بيان أنه في الوقت الذى ابتدع فيه فرويد نظرية تأملية مستهدفا تفســير كل الظواهر العقلية ، أرسى بافلوف أساسا مكينا يبشرنا بأمل الوصول الى فهم للعقل البشرى بناء على عمل تجريبي يتسم بالمثابرة والدأب . والقضية الحاسمة التى تطرحها علينا هذه المقابلة هى هل لنا أن نطمح الى تحقيق مزيد من التقدم فى مجالى علم النفس والطب العقلى التزاما بنهج فرويد أم بافلوف ؟ وهل الطاقة النفسية والكبت يشكلان الأساس لتفسير علمى للحياة العقلية أم أن الطاقة العصبية والنشاط الانعكاسى هما اللذان يشكلان هذا الأساس ؟

ولن نجد سوى بضع نقاط مشتركة بين بافلوف وفرويد يمكن أن نعقد بينهما مقارنة متوازية بحيث تيسر لنا الاجابة على هذا السؤال . وســـوف نتناول فى الفصول التالية نهج كل منهما مع عرض تفسيراتهما المتقابلة لعدد من الظواهر « العقلية » مثل : الغرائز ، النوم والاحلام والتنويم ، والايحاء أثناء التنويم ، والعصاب .

وسوف نبدأ بالمقابلة بين نظرية فرويد عن الغرائز ونظرية بافلوف عن الفعل المنعكس غير الشرطى .

الفصل الرابع

الغرائز والفعل المنعكس غير الشرطي

ان من أهم المشكلات التى أسرت اهتمام الانسان وخدعته فى نظرته الى ذاته هى طبيعة دور ومدى الارجاعات الفطرية التى عرفت تقليديا باسم « الغرائز » • وكم من علماء وفلاسفة وشعراء تصارعوا على مدى الأحقاب والقرون حول هذه القضية الهامة : هل الانسان تسيره الغرائز الفطرية أم العادات المكتسبة التى تعلمها خلال حياته العملية • وكان تاريخ الفكر يتأرجح دوما من النقيض الى النقيض بالقول ان الغرائز وحدها أو العادات وحدها هى التى تحكم سلوك الانسان • وجاء فرويد فى القرن العشرين ليجسد التأكيد المطلق على الغرائز بينما مثل ج٠ب٠ واطسون والسلوكيون عامة النقيض الآخر ونعنى به التأكيد المطلق على البيئة والعادة والتعلم • والالتزام بضرورة المقابلة بين النقيضين يعنى الدخول فى صراع عقيم لا ينتهى •

ولكن اذا التزمنا بالمقابلة بين نظرية الغريزة وبين نظرية أخرى عن طبيعة دور ومدى النشاط الفطرى فاننا قد تصل الى نتيجة حول القيمة النسبية لكل منهما • ولم يكن بافلوف لينكر النشاط الفطرى على نحو ما فعل السلوكيون ، بل على النقيض منهم ، اذ أوضح ، بناء على أدلة تجريبية ، أن التعليم مستحيل بدون الارجاعات الفطرية ، فهذه تشكل الأساس النهائى لكل سلوك مكتسب • وهكذا فان المقابلة بين نظرية فرويد عن الغرائز وبين نظرية بافلوف عن الأفعال المنعكسة الفطرية أو غير الشرطية انما هى مقابلة تجرى على مستوى مختلف تماما عن مقابلة تجرى بين فرويد وواطسون على سبيل المثال • والصراع بين بافلوف وفرويد حول هذه القضية ليس موضوعه ما اذا كان ثمة نشاط فطرى وانما يدور حول طبيعة هذا النشاط • ولهذا فان المقابلة بين الموقفين سوف تساعدنا على حسم القضية فى صورتها العامة لنعرف ما اذا كان بافلوف أم فرويد هو الذى يبشر بأمل أعظم فى محاولة الانسان لفهم نفسه •

ولنبدأ بنظرية فرويد عن الغرائز •

نظرية الغرائز عند فرويد

يقول فرويد : « ان نظرية الغرائز هي الآن ، كما كانت من قبل ، دراستنا عن الاساطير » . ويردف قائلا : « الغرائز كائنات أسطوريه جليلة رائعة في غموضها . اننا لا نملك ان نغفلها في دراستنا ولو للحظه واحدة ، ومع ذلك فنحن لسنا على يقين أبدا من أننا نراها بوضوح » . × ويتحدث في موضع آخر عن « غرائز الجسم » فيصفها بأنهـا « أهم عناصر البحث السـيكولوجي وأكثرها غموضا في آن واحد » . × ×

وكان فرويد يشكو من أنه لا علم البيولوجيا ولا علم الفسيولوجيا بقادر على أن يزود علم النفس بنظرية علمية عن الغرائز ومن ثم فلا بديل من افتراض الفروض عنها . وكتب في هذا الصدد يقول : « ان أجل معارفنا شـأنا التي تصلح أساسا لدراسة نفسية حقة لا تعدو أن تكون ادراكا تقريبيا للقسمات المشتركة المتمايزة للغرائز . ولكن هذا هو وضعنا في كل مجالات الدراسات النفسية نحاول أن نتحسس طريقنا في الظلام . ولقد ذهب كل واحد كما شاء له الهوى وافترض أي عدد من الغرائز أو « الغرائز الأساسية ، وتلاعب بها على نحو ما تلاعب فلاسفة الاغريق القدامى بعناصرها الأربعة ــ التراب والهواء والنار والماء . ولم يجد التحليل النفسي مناصا من أن يضع لنفسه بعض الفروض عن الغرائز » . × × ×

ويسمي فرويد الغريزة « مفهوم اساسي مصطلح عليه وان كان لا يزال مبهما الى حد كبير بيد أننا على الرغم من ذلك نراه لازما لنا في علم النفس » . ويرى الغريزة من وجهة نظر « بيولوجية » باعتبارها « مفهوما وسطا بين العقلي والفيزيقي ». × × × × انها التعبير العقلي للمنبهات الصادرة من باطن الجسم. فالغريزة « فيزيقية » بالنظر الى المنبه الصادر عن هذا العضو أو ذاك من الأعضاء الباطنية للجســم ، وهي في ذات الوقت « عقليــة » بالنظر الى الحالة الكيفية للوجدان التي تواضعنا على تسميتها اثارة غريزية . مثال ذلك التعبير العقلي للغريزة الجنسية فانه يبدو لنا في صورة محددة لحالة وجدانية نعرفها باسم الاثارة الغريزية والتي تصدر عن المنطقة التناسلية . وهكذا فان الغريزة عند فرويد انعكاس عقلي لمتطلبات أعضاء الجسم المختلفة .

ونظرا لأن مسألة النشاط الفطري على جانب كبير من الأهمية في أي دراسة نفسية فقد رأى فرويد أن يتخذ موقفا محددا منها . وكان موقفه موقفا تأمليا بالضرورة مثل أي عالم نفسي يرى أن الحقائق والقوانين البرهانية لا وجود لها . ونظريته عن الغرائز هي نتاج لاعتبارين : أولا ــ متطلبات مذهبه ككل في علم النفس . ثانيا ــ عدم التعرض للحقائق الشائعة والتي ترتكز على العلوم الأخرى . و لايختلف موقفه عن طبيعة الغرائز عن موقف كثيرين من معاصريه أمثال ولبم جيمس . ونظرا لأن علماء النفس كانت تعوزهم فسيولوجيا الجهاز العصبي الراقي فانهم عجزوا ، ومعهم فرويد ، عن اتخاذ الموقف السـديد من مسألة طبيعية الغرائز .

× فرويد : « محاضرات تمهيدية جديدة عن التحليل النفسي ــ نيويورك ١٩٣٣ ــ ص ١٣١

× × فرويد : ما وراء مبدأ اللذة ــ ص ٤٣ .

× × × المرجع السابق ــ ص ٦٩ .

× × × × فرويد ــ « الأبحاث الكاملة » ــ مجلد ٤ ص ٦١ ، ٦٤ .

ولكن وجه الاختلاف الاســـاسى بين فرويد والآخرين من علمـاء النفس بالنسبة لهذه المسألة انما يتمثل فى اختياره وتصنيفه للغرائز • فحيث تنتفى المعرفة البرهانية يصبح المجال مفتوحا للاختيار التعسفى • ويتساءل فرويد « والآن ما هى الغرائز التى يحق لنا أن نفترضها وكم عددها ؟ » ثم يردف سؤاله بقوله « واضح اننا هنا ازاء فرصة كبيرة للاختيار • » ونظرا لأنه لم يكن شائعا وقتذاك أى دراسة نسبية ومؤكدة علميا عن الغرائز فلم يكن من المستطاع اثارة أى اعتراضات حقيقية ضد أى اختيار • ويقـول فرويد : « لا ســـبيل للاعتراض على أى انسان يستعمل مفهوما خاصا عن غريزة للعب أو للتدمـير أو غريزة اجتماعية طالما وأن الأمر يستلزم هذا منه فضلا عن أن حدود الدراسات التحليلية فى علم النفس تسمح بذلك » • ولكنه يقول ربما يرتكز كل هذا العدد الهائل من الغرائز المفترضة على عدد آخر محدود من « غرائز أولية لايمكن ردها الى غيرها » •

وقبل أن يعرض علينا فرويد اختياره الخاص « للغرائز الأولية » يعود ليندد مرة أخرى بنقص معارفنـــا عن الغرائز • فلو أن علـوما أخـرى مثـل الفسيولوجيا أو البيولوجيا حالفها التوفيق فى بحث المشكلة لأعفى هذا علم النفس من اللجوء الى الفروض التعسفية • وفى هذا يقول فرويد : « يخامرنى شك كبير فيما اذا كان العمل وفقا للمعطيات السيكولوجية سيصل بنا الى دليل حاسم فيما يتعلق بتصنيف الغرائز والتمييز بينها • ولكن يبدو لى أننا سنلجأ اضطرارا الى اضافة عدد من الفروض الى هذه المعطيات حتى يتسنى لى مواصلة دراستها وان كنا نود لو أننا استقينا هذه الفروض من فرع آخر من فـروع المعرفة ثم نقلناها الى مجال الدراسات النفسية • » ×

ونظرا لاستحالة مثل هذا النقل فقد كان لزاما عـلى فرويد أن يصطنع لنفسه فروضه الخاصة ــ تأسيسا على متطلبات موضوع الدراسة الخاص مع تجنب الصراع قدر الطاقة مع أى من الحقائق العلمية المعروفة • ويقول فرويد: « اننا نفترض أن ثمة نوعين من الغرائز مختلفين اختلافا أساسيا ونعنى بهما الغرائز الجنسية (أو ايروس اذا كنت تؤثر هذا الاسم) والغرائز العدوانية التى تستهدف التدمير » • وهاتان الغريزتان هما اللتان اصطلح التحليل النفسى على تسميتهما غرائز الشهوة وغرائز الموت • وفى هذا يقول فرويد « والآن فان الغرائز التى ذهبنا اليها تنقسم الى مجموعتين : غرائز الشهوة التى تستهدف دائما التئام المادة الحية فى شكل وحدات أكبر ، وغرائز الموت التى تعمل ضد هذا الاتجاه وتحاول أن ترد المادة الحية الى حالتها غير العضوية » • × ×

ويرى فرويد أن غرائز الشهوة أو الغرائز الجنســية متعددة كما أنها تصدر عن مصادر عضوية عديدة • وتهدف كل منها الى تحقيق « لذة العضو » • وثمة مصادر ثلاثة من هذه المصادر العضـوية العديدة أو المنـاطق الشهوية التى تلعب الدور الحاسم وهى المنطقة الفمية والمنطقة الشرجية والمنطقة التناسلية • وسوف يبين لنا فيما بعد (فى الفصلين الســادس والســابع)

× المرجع السابق ــ ص ٦٦ ــ ٦٧ •

× × فرويد ــ « محاضرات تمهيدية جديدة ــ ص ١٤١ ــ ١٤٧ (قصرنا عرضنا هنا على ما انتهى اليه فرويد من حيث اختياره للغرائز وتصنيفه لها » •

الأهمية الجوهرية لهذه المناطق باعتبارها مراحل فى نظرية فرويد عن نمو الشخصية وباعتبارها أيضا مظاهر للتثبيت والكبت فى نظرينه عن العصاب النفسى ٠

أما غرائز الموت التى تضم بينها « غريزة خاصة بالعدوان والهدم عند الانسان » × فهدفها تحلل الحياة والعودة بها الى الحالة غير العضوية ٠ ويتمثل اشباع غريزة الموت فى تدمير الذات وتدمير الآخرين٠وعجز فرويد تماما عن أن يحدد لنا موضع المصدر البدنى لهذه الغرائز ٠ وكان شاهده الأساسى عليها الحرب والعدوان عامة من ناحية ، وظواهر الانحراف المتمثلة فى المازوكية والسادية من ناحية أخرى ٠

وكتب فرويد عن هذا التحول الى الاعتقاد بغريزة الموت يقول : « بعد تأمل فى نشأة الحياة والنظائر البيولوجية خلصت الى نتيجة مفادها أنه بجانب غريزة المحافظة على المادة العضوية والتئامها فى وحدات أكبر ثم أكبر ، لابد من أن يكون هناك النقيض لها غريزة تستهدف تحلل هذه الوحدات واعادتها الى حالتها غير العضوية السابقة ، أعنى غريزة للموت مقابل ايروس ٠ ومن ثم يتيسر تفسير ظواهر الحياة فى ضوء تفاعل الاثنين والتأثير المضاد لكل منهما على الأخرى ٠ بيد أن البرهنة على نشاط هذه الغريزة المفترضة للموت لم يكن أمرا هينا ٠ اذ أن مظاهرا يروس جلية ومسموعة بوضوح كاف ٠ ولكن يمكن القول بأن غريزة الموت كانت تعمل فى صمت داخل الجسم مستهدفة تحلله ، الا أن هذا ليس برهانا بطبيعة الحال ٠٠ ان افتراض وجود غريزة للموت أو غريزة للتدمير أثار معارضة حتى فى داخل أوساط التحليل النفسى ٠٠ وهذه التصورات التى أوجزتها كنت قد وضعتها بادىء الأمر قاصدا اختبارها بيد أنها بمرور الوقت استبدت بى حتى أصبحت لا تقوى على التفكير بأسلوب آخر » ٠

ويذهب فرويد فى حديثه عن غريزة الموت الى أن « الميل الى العدوان نزوع فطرى وغريزى لدى الانسان » ثم يتحدث بعد ذلك عن « غريزة العدوان الطبيعية لدى الانسان ، وعداء الفرد للكل وعداء الكل للفرد » ٠ ويضيف قائلا: « وغريزة العدوان هذه هى التعبير الأساسى المشتق عن غريزة الموت التى وجدناها جنبا الى جنب مع ايروس تشاركه السيادة على الأرض » ٠ × ×

وبعد أن ألمح فرويد الى المعارضة شبه الاجماعية لمفهومه عن غريزة الموت يقرر أن هذا المفهوم يصدم وينتهك الفكرة الشائعة عن أن الانسان خير بطبيعته وأنه اذا ما لجأ الى العنف والعدوان والحرب فليس ذلك الا نتيجة « لنظام اجتماعى معاد خلقه الانسان لنفسه » ويقول فرويد « ومن دواعى الأسى أن شهادة التاريخ وخبرتنا الخاصة لا تنفى بل تؤكد ما ذهبنا اليه من أن الاعتقاد بخيرية طبيعة الانسان انما هو وهم من الأوهام يؤمل به الانسان أن يجمل أو يصلح قدره بيد أنه لا يجلب فى واقع الأمر غير النوائب » ٠ × × ×

× فرويد ـ محاضرات تمهيدية جديدة ٠ ص ١٤٢ ٠

× × فرويد « الحضارة ومساوئها » ص ٩٧ ـ ٩٨ ، ١٠٢ ٠

× × × فرويد « محاضرات تمهيدية جديدة » ص ١٤٢ ٠

ولكن الأمر لم يكن قاصرا على غريزة الموت وحدها بنزعتيها العدوانية والتدميرية بل ان الغريزة الجنسية بمرحلتيها الفمية والشرجية والتثبيت والكبت صدمت وانتهكت مشاعر الناس حيثما كانوا وفي كل درب من دروب الحياة • بيد أن فرويد يقرر أن هذه الصدمة وهذا الانتهاك ليسا الا تأكيدا لنظريته عن الكبت • ذلك لأن الغرائز اللاشعورية القائمة على العدوان والانحراف الجنسي اذا ما بلغت الشعور بصورة أو بأخرى عن طريق الأحلام والدوافع والأفكار والانفعالات المرفوضة فان الضمير يجد في هذا صدمة وانتهاكا مما يدعوه الى كبتها على الفور وردها الى اللاشعور • هذا هو في واقع الأمر جوهر الكبت الذى يشكل أساسا لنظرية التحليل النفسي •

وسوف يبين لنا فيما بعد أن غريزتي الموت والجنس ، بالاضافة الى مظاهر التحول أو التغير التي تطرأ عليهما ، تؤلف جميعها عند فرويد جوهر موضوع علم النفس وعلم النفس المرضي • والكبت مظهر من أهم مظاهر التحول هذه ، وثمة مظاهر أخرى يذكرها فرويد مثل القلب والتحايل والتثبيت والنكوص والتسامي • وسوف نعرض في فصول تالية لكل هذه المظاهر في ضوء نظريته عن تكون الشخصية والعصاب النفسي •

ولنبدأ الآن في عرض عجالة عن نظرية الأفعال المنعكسة غير الشرطية عند بافلوف •

نظرية الأفعال المنعكسة غير الشرطية
عند بافلوف

كانت الدراسات الفسيولوجية قبل أبحاث بافلوف عن النشاط الانعكاسي للنصفين الكرويين للدماغ قاصرة على الأفعال المنعكسة الفطرية أو الثابتة • وظلت الدراسة ولفترة طويلة من الزمان منصرفة الى الأفعال المنعكسة الفطرية المتعلقة بالأداء الوظيفي للاعضاء في انفصالها عن بعضها • ولكن كانت هناك ارجاعات فطرية أخرى أشد تعقيدا وهي تلك التي اصطلح على تسميتها الغرائز • وتقع هذه الارجاعات الغريزية داخل الجهاز العصبي أيضا وتخضع لقانون العلة والمعلول حيث تحددها الظروف الخارجية والباطنية • والغرائز هي ارجاعات تصدر عن الحيوانات المختلفة فيما يتعلق بالأداء الوظيفي ككل وتتجلى في شكل سلوك عام مثل غرائز الدفاع والطعام والهجرة •

ولقد كان الفيلسوف البريطاني هربرت سبنسر من أوائل من رأوا في الغرائز تعبيرا عن نشاط انعكاسي • وحذا حذوه علماء الحيوان والفسيولوجيا وعلم النفس المقارن وقدموا ، كل في مجاله ، العديد من الحقائق التي تدعم هذه النظرية • بيد أن بافلوف كان أسبق من أهل الاختصاص أنفسهم حين قدم نظريته ، وهو يقول في هذا المعنى ضمن دراسة له قدمها عام ١٩٢٣ « اننا لانجد قسمة جوهرية واحدة تمايز بين الأفعال المنعكسة والغرائز » • × وأيد رأيه بعدد من الحجج هذا ملخصها •

أولا : ثمة مراحل عديدة ودقيقة لا يدركها الحس المجرد هي مراحل انتقال

× بافلوف ـ « المؤلفات المختارة » ـ ص ١٨٠ •

من الافعال المنعكسة العادية الى الغرائز • لنأخذ مثالا على ذلك الفرخ الوليد حين تفرخه البيضة تصدر عنه حركات ينقر بها الأرض استجابة لأى منبه فى مجال بصره سواء أكان هذا المنبه جسما دقيقا أم بقعة على السطح الذى يمشى فوقه • ولكن ما هى أوجه الاختلاف بين هذه الحركات وحركة احناء الرأس واغماض الجفنين اذا ما ومض شىء قرب عينيه ؟ لقد اصطلحنا تقليديا علـى أن نسـمى الأخير فعلا منعكسا دفاعيا والأول غريزة البحث عن الطعام بينما لا فارق بينهما فى حقيقة الأمر • ان حركة النقر التى يؤديها الفرخ ليست واقعيا شيئا آخر غير الفعل المنعكس الخاص باحناء الرأس وتحريك المنقار اذا ما نبهت الفرخ عوامل خارجية مثل الأجسام الدقيقة أو البقع •

ثانيا : كانت هناك دائما اشارة الى أن الغرائز أشـد تعقدا من الأفعال المنعكسة ، ولكن ثمة أفعال منعكسة شـديدة التعقد ولم يدرجها أحـد ضمن الغرائز كالقىء على سبيل المثال • فالقىء سلوك معقد أشد التعقيد حتى انه يستلزم تآزرا غير عادى بين عدد كبير من العضلات التى يستخدمها الجسم فى وظائف أخرى وتمتد على نطاق واسع داخل الجسم ، ويستلزم كذلك افراز عدد مختلف من الغدد التى تسهم فى عدد متباين من نشاط الجسم •

ثالثا : كان الاتجاه السائد أن الغرائز تتمايز عن الفعل المنعكس من حيث أن الأولى تنطوى على سلسلة من الأحداث السلوكية المتعاقبة أما الثانى فهو سلوك من طبقة واحدة اذا جاز هذا التعبير • ولنضرب مثالا على ذلك بناء العش أو بناء المأوى عند الحيوان بوجه عام • بدهى أننا هنا ازاء سلسلة طويلة من الأحداث السلوكية ، اذ يجب على الحيوان أن يبحث عن عادة بناء مأواه ويأتى به الى موضعه ، ويجمعه ويضم بعضه الى بعض حتى يحكم بنيانه • واذا شئنا القول بأن هذا السلوك انما هو نشاط انعكاسى وجب علينا القول بوجود ميكانيزم يجعل من نهاية الفعل المنعكس منبها للفعل المنعكس الذى يليه أى أننا نكون ازاء سلسلة من الأفعال المنعكسة ، ومثل هذا الميكانيزم شىء مألوف تماما فى النشاط الانعكاسى • فثمة كثير من الأفعال المنعكسة المتلاحقة ، مثال ذلك أننا لو نبهنا عصبا معينا فان هذا التنبيه يعقبه ارتفاع فى ضغط الدم ونهاية هذا الفعل المنعكس الأول هى المنبه للفعل المنعكس الثانى الذى يخفف من أثر الفعل المنعكس الأول • ولقد أقام ر • ماجنوس الدليل على وجود الفعل المنعكس المتسلسل الذى يفسر لنا كيف أن قطا لو قذفنا به على أى نحو كان فانه سيسقط الى الأرض على أقدامه وسبب ذلك أن أى تغير يطرأ داخل أذن القط ينبه فعلا منعكسا محددا يؤدى الى انقباض عضلات الرقبة بحيث تبقى على رأس القط فى وضعه العادى بالنسبة للأفق • ونهاية هذا الفعل المنعكس تنبه فعلا منعكسا جديدا يتمركز فى عدد من عضلات الجسم والأرجل وهى المسئولة عن اعادة الحيوان الى وضعه الصحيح • وهكذا فان القول بسلسلة من الأحداث السلوكية المتتابعة لا يشكل وجها للممايزة بين الأفعال المنعكسة والغرائز •

رابعا : فارق آخر بين الأفعال المنعكسة والغرائز وهو أن الغرائز تتوقف فى أغلب الأحـوال على الحالة الباطنيـة للجسم • مثال ذلك أن الطائر لا يبتنى عشه الا فى موسم التسافد او عندما يكون متخما وليست به حاجة الى طعام •

بيد أن هذه الخصيصة ليست قاصرة على الغرائز وحدها ، فشدة أى فعل منعكس وكذلك وجوده او غيابه تتوقف كلها على حالة مراكز الفعل المنعكس من حيث قابليتها للاثارة والتى تتوقف بدورها على خصائص كيميائية وفيزيقية فى الدم وتفاعل عدد مختلف من الأفعال المنعكسة ٠

خلص بافلوف من كل هذا الى النتيجة التالية : « وهكذا فان الأفعال المنعكسة والغرائز كلها ارجاعات طبيعية من جانب الجسم نتيجة منبهات معينة، ومن ثم فلسنا بحاجة الى أن نسمى كلا منهما اسما خاصا به ٠ وعندى أن مصطلح الفعل المنعكس هو الأفضل نظرا لما يحمله من دلالة علمية دقيقة منذ بدء استعماله » ٠ اذن ما يسمى بالغرائز هى عند بافلوف سلاسل من الأفعال المنعكسة الفطرية ٠ ثم يقول ان هذه السلاسل من الأفعال المنعكسة الفطرية والأفعال المنعكسة الفردية الوراثية « تؤلف جميعها أساس النشاط العصبى عند الانسان والحيوانات » ٠ ×

قد يبدو لأول وهلة أن بافلوف يجرى ممايزة سيمانطيقية (لغوية) بين مصطلحى « الغريزة » و « الفعل المنعكس » فهو يؤثر الثانى على الأول كما يقول لما يحمله من دلالة علمية منذ البدء ٠ بيد أن المفاضلة هنا ذات دلالة علمية موضوعية ٠ فسلاسل الأفعال المنعكسة التى يحدثنا عنها بافلوف هى امتداد لمعنى الأفعال المنعكسة البسيطة ٠ ذلك لأن الأفعال المنعكسة البسيطة هى ارجاعات من جانب الانسان أو الحيوان فور تلقيه مؤثرات من العالم الخارجى ؛ أما سلاسل الأفعال المنعكسة التى يسميها بافلوف الأفعال المنعكسة غير الشرطية فهى ارجاعات خاصة بالتكيف مع قسمات البيئة الأكثر ثباتا والتى استمرت مئات الآلاف من الأعوام وأصبحت أفعالا وراثية ٠ وهذه السلسلة من الأفعال المنعكسة الوراثية تجسد تكيف الحيوانات الراقية بما فيها الانسان مع العالم المحيط به فى حدود مستوى معين ٠

ان الأفعال المنعكسة غير الشرطية أو الفطرية هى الاساس الذى ترتكز عليه عملية التعلم عند الفرد ، وبدونها لا تتم عملية التعلم ، وهى العملية التى تختص بتكيف الفرد مع ظروف البيئة الأقل ثباتا ٠ ولهذا يذهب بافلوف الى أن الفعل المنعكس الشرطى هو الميكانيزم العصبى لعملية التعلم ٠ وترتكز هذه العملية على الاشارات اللفظية والحسية الوقتية اذا ما عززتها أفعال منعكسة غير شرطية ٠ وبدون مثل هذه الارجاعات الفطرية تصبح عملية التعزيز ضربا من المحال ، وبدون عملية التعزيز يصبح اكتساب الأفعال المنعكسة الشرطية ضربا من المحال أيضا أى ينتفى التعلم ٠ مثال ذلك أنه لو لم تكن هناك أفعال منعكسة غير شرطية تختص بالألم أو الدفاع فان الحيوان أو الطفل يعجز عن تعلم تجنب الأشياء الساخنة أو الحادة القاطعة ٠ وهذا ما قصد اليه بافلوف بقوله ان الأفعال المنعكسة غير الشرطية هى اساس كل النشاط العصبى الراقى عند الانسان والحيوان ٠

واذا كانت الأفعال المنعكسة الفطرية غير الشرطية لها هذا القدر الكبير من الأهمية والضرورة الا أنها فى نفس الوقت محدودة وقاصرة تماما من حيث

× المرجع السابق ـ ص ١٨٠ ـ ١٨٣ ٠

مجال نشاطها الوظيفي • فهي أفعال نجة عمياء ومن ثم تكون بحاجة الى التعلم أو النشاط الانعكاسي الشرطي ليوفر لها القدر الكافي من التنقية والتمايز الدقيق كشرط ضروري لضمان فعالية الأداء الوظيفي للانسان أو الحيوان في المواقف التي تفرضها عليه بيئته • ويرى بافلوف أن ثمة عددا قليلا نسبيا من الأفعال المنعكسة غير الشرطية ذات النشاط العصبي الراقي ، وأن هذه ليست الا أساسا تنبني عليه خلال حياة الفرد ، انسانا أم حيوانا ، عملية اكتساب النشاط النفسي •

والميزة الكبرى التي يفضل بها مفهوم بافلوف عن الأفعال المنعكسة غير الشرطية مفهوم الغرائز ، أنه قادر على أن يوجه العمل التجريبي نحو اكتشاف عددها وطبيعتها ودورها • انها لا تفسح مجالا للتأمل النظري ، بل على العكس تؤكد طابع التحديد العلمي للنشاط العصبي الراقي الفطري • اذ بدون هذا التحديد يصبح الباب مفتوحا على مصراعيه ليفترض الباحث أي نوع من الغرائز حسب ما يمليه عليه هواه ونزعاته النظرية أو مذهبه الفكري على نحو ما فعل فرويد •

ونحن اذا قارنا نهج كل منهما نصل الى نتيجتين تفرضان نفسيهما على الباحث •

أولا : ان مفهوم فرويد عن العنصر الفطري أو النوعي للنشاط الراقي يتبع التصور التقليدي عن الغرائز وكأنها شيء عقلي ، أما بافلوف فعلى النقيض من ذلك اذ اتخذ من المعارف البرهانية عن النشاط الانعكاسي أساسا لبناء نظريته التي قدمت لنا تفسيرها للنشاط الراقي الفطري باعتباره سلسلة مترابطة الحلقات من الأفعال المنعكسة • ولقد استطاعت نظرية بافلوف عن الأفعال المنعكسة غير الشرطية أن تنتزع الظواهر التي عرفت تقليديا باسم الغرائز خارج نطاق التأمل النظري ووضعتها موضع الدراسة والبحث داخل المعمل لبيان طبيعتها وتصنيفها على أساس تجريبي •

ولكن فرويد أبقى على تصوره المبهم عن الغرائز وفصله وصنفه على نحو يتفق ومتطلبات مذهبه • وهو في تصنيفه للغرائز الى غريزة جنس (فمية وشرجية وتناسلية) وغريزة موت (عدوان وتدمير) أقرب الى التأملات النظرية لعدد من الفلاسفة (أمثال نيتشه وشوبنهاور ووليام جيمس) منه الى الفروض المحددة تحديدا علميا • ولقد كان فرويد نفسه واعيا بذلك وكان كما رأينا يتحسر على نقص معارفنا العلمية في هذا الصدد • ولهذا لجأ فرويد الى الفروض التعسفية لتفسير النشاط الراقي الفطري بينما ركن بافلوف الى التجريب •

نخلص مما سبق الى أن بافلوف هو الذي وضع الأساس لمنهج علمي أقدر على فهم وتفسير النشاط الغريزي أو النشاط النفسي الراقي •

الفصل الخامس

اللاشعور وعلم النشاط العصبي الراقي

مايز كل من بافلوف وفرويد بين ثلاثة نظم وظيفيـة للنشاط العصبي الراقي عند الانسان ، منفصلة عن بعضها ومتداخلة في آن واحد · تصـور فرويد النشاط الراقي عند الانسان نشاطا عقليا خالصا · وان لم يراوده شك في أنه يرتكز على قاعدة تشريحية وفسيولوجية قد يكشف عنها العلم يوما ما · وتصور بافلوف أساس النشاط الراقي عند الانسان في ضوء مصطلحات النصفين الكرويين للدماغ والأداء الوظيفي لهما ، اعتقادا منه أن فهمنا لهما سيصل بنا يوما ما الى تفسير كامل للنشاط النفسي عند الانسان ·

ذهب فرويد من ناحية الى أن علم النفس العـام وعلم النفس المرضي لايسعهما الانتظار الى أن تكتمل فسيولوجيا النصفين الكرويين للدماغ ، وانما عليهما ، والى أن يتحقق هذا أن يواصلا السير وكأن الحياة العقلية شيء مستقل تماما عن المخ ·

وذهب بافلوف مذهبا آخر اذ رأى ان علم النفس والطب العقلي لن يتيسر لهما التقدم خطوات أبعد كعلمين ما لم يتسن لفسيولوجيا النشاط العصبي الراقي أن ترسي دعائم أساس مكين تبنى عليه هذين المبحثين ·

وأحسب أننا سنكون في وضع أفضل لتقدير هذين المذهبين المتعارضين بعـد أن نفرغ من مقـارنة النظم الثلاثة للنشاط الراقي عند كل من فرويد وبافلوف ·

النظم الثلاثة للنشاط العقلي عند فرويد

يحاول فرويد في مبحثه المسمى ما وراء علم النفس أن ينظر الى الجهـاز العقلي ككل وأن يجلو النظم المكونة له · ويتحدث عن « محاولتنا لتوضيح تعقد

الأداء النفسي عن طريق تحليله ورد كل أداء مستقل قائم بذاته الى أحد المكونات المستقلة عن الجهاز » • ونظرا لأن هذا العمل لم يسبقه اليه أحد فقد اتخذ من التخمين منطلقا له • ويسترد قائلا : « لم تسبقنا على حد علمي أي محاولة لتقسيم بناء الأداة النفسية عن طريق تحليلها على النحو المشار اليه • وأحسب أن لا ضرر من القيام بمثل هذه المحاولة ، واظن ان لنا كل الحق في أن نطلق العنان لتخميناتنا شريطة أن نظل متمالكين لوعينا ولا نخطىء طريقنا فوق السقالة التى تصل بنا الى البناء » • ويشير الى طبيعة الفروض التخمينية التى يزمع استخدامها فيقول : « ونظرا لأننا أول من يرتاد هذا النهج وصولا الى موضوع مجهول تماما فاننا سنكون بحاجة الى الاستعانة ببعض الأفكار المساعدة وسوف نؤثر أبسطها وأقربها الى الواقع الملموس » • ×

لقد كان فرويد واعيا بحدود مخاطرته ، اذ يقول : « قدم لنا البحث العلمي برهانا يقينيا لا سبيل الى تنفيده يقضى بأن النشاط العقلي رهن بوظيفة المخ دون أى عضو آخر واكتشاف أهمية كل قطاع من قطاعات المخ وعلاقات كل منها بكل جزء من أجزاء الجسم وأوجه النشاط العقلي سوف ينقلنا حتما خطوة الى الأمام — ويالها من خطوة جبارة نعجز عن تقدير مداها اليوم • ولكن لقد أخفقت تماما كل محاولة استهدفت الوصول منهذه الحقائق الى توضيح لتمركز العمليات العقلية في الدماغ ، كما أخفقت كل الجهود التى حاولت النظر الى الأفكار باعتبارها شيئا تختزنه الخلايا العصبية أو أن الاثارة عملية تسرى عبر الألياف العصبية• وهذا هو نفس المصير الذى ينتظر أى محاولة تستهدف على سبيل المثال ، بيان الموضع التشريحى للنشاط العقلي الشعورى في اللحاء أو تحديد موضع العمليات اللاشعورية في منطقة ما تحت اللحاء • فها هنا تعترضنا ثغرة لا سبيل الى أن نملأها في الوقت الراهن فضلا عن أن هذه ليست هي مهمة علم النفس وان التفسير الذى قدمناه لطوبوغرافيا العقل لا علاقة له حتى هذه اللحظة بعلم التشريح ، فهو لا يعنيه بيان المواضع التشريحية وانما مناطق الجهاز العقلي دون النظر الى موضعها المرتقب في الجسم • وبهذا تزول كل العوائق التى قد تعترض طريقنا ويمكن ان تنطلق بحوثنا وفق ما تقتضيه متطلباتها هي دون شيء آخر •

والنتيجة التى انتهى اليها هي « أننا سوف نغفل حقيقة أن الجهاز النفسي المعنى معروف لنا أيضا كاستعداد تشريحى وسوف نتجنب بكل السبل الاغراء بتحديد الموضعية النفسية بأى معنى تشريحى • اننا سنبقى على أرض سيكولوجية • × ×

اننا نعرف ، كماكان فرويد يعرف أيضا ، أن هذا القرار لم يكن اختيارا حرا وانما ألزمته به الهوة المعاصرة وقتذاك في مجال معارفنا عن المخ • اذ أن نقص هذه المعارف من شأنه بالضرورة أن يجعل أى محاولة للتكهن بطبيعة الجهاز العقلي نوعا من الدراسة التأملية البحته لعلم النفس أو ما اصطلح على تسميته ما وراء علم النفس ، وهو في مجال الدراسات النفسية النظير للميتافيزيقا أوما وراء الطبيعة في الفلسفة • ولقد كان هذا المذهب تاريخيا هو البديل دائما للمعرفة العلمية •

× فرويد — تفسير الأحلام — ص ٤٩٥ •

× × المرجع السابق — ص ٤٩٤ •

وقدم فرويد على مدى تاريخ حياته نظريتين عامتين عن الجهاز العقلى · تبدأ الأولى مع نهـاية القرن الماضى حتى عام ١٩٢٠ تقريبا × وهى موضوعنا فى هذا الفصل · أما الثانية فهى فى جوهرها تنقيح للأولى وسارت فى خط متأرجح إبتـــداء من عــام ١٩٢١ حتى وافته المنية عــام ١٩٣٩ × × وهى موضوع الفصل التالى ·

الشعور والقبشعور واللاشعور :

ذهب فرويد فى نظريته العامة الأولى الميتا سيكولوجية الى أن الجهاز العقلى يتألف من ثلاثة نظم : الشعور والقبشعور واللاشعور · واذا شئنا تكوين فكرة عن معنى هذه النظم الطوبوغرافية عند فرويد أى دينامياتها واقتصادياتها ــ فعلينا أن نبدأ أولا بعرض فاحص لكل منهم على حدة ثم نرى بعد ذلك كيف يتصور نشاطهم معاكجهاز وظيفى عقلى موحد · ولنبدأ كما بدأ فرويد نفسه باللاشعور ·

١ ــ **اللاشعور :** افترض فرويد أن اللاشعور موضوع فى الجهاز العقلى ، ويتألف من العمليات التالية : أولا : ممثلات الغريزة صـادرة عن منبهـات منشؤها أعضاء الجسد بالاضافة الى دوافع وأفكار ورغبات مكبوتة وأساسها جميعا الغرائز · ثانيا : كل تلك الدوافع والأفكار والرغبات التى تدخل مؤقتا ضمن اللاشعور ولكنها قادرة نسبيا على أن تصبح فى يسر وسهولة شعورية·وهذا النمط الأخير من العمليات اللاشـعورية التى يمكن لها دخول الشـعور ليست عمليات خاصة باللاشعور بالمعنى المحدود الدقيق للكلمة ، اذ أنها قوام ما تحت الشعور أو نظام القبشعور ·

وقوام لب اللاشعور ، فيما ذهب اليه فرويد ، هو ممثلات الغريزة أو بعبارة أخـرى الرغبـات ــ الدوافع المعبرة عن الحفز الغريزى · وتتميز الرغبـات ــ الدوافع الغريزية بأنها ذات شحنة غريزية عارمة ومن ثم فهى تعمل جـاهدة ودون كلل لتجد سبيلها الى الشعور ومنه للتنفيس بصورة حركية · فاللاشعور أشبه بكتلة من النشاط الغريزى فى حالة حركة دائبة وغليان تستهدف أمرين فقط ــ النفاذ الى الشعور والاشـباع النشط · واللا شـعور لا يعرف قواعد الأخلاق والمنطق والزمان وهو شموس متمرد أبدا ولا يستسلم للكبت · وهو الممثل للقوى الأولية غير الشخصية للخلق والتدمير ، الجنس والعدوان ، الحياة والموت · والتنظيم الوحيد الذى يذعن له راضيا هو مبدأ اللذة ، وقانونه الوحيد هو البحث عن اللذة من خلال الاشباع الغريزى وتجنب الألم المتمثل فى انكار الغريزة · وهكذا فاللاشعور لا تربطه بالواقع أو الزمان غير روابط واهية · والواقع النفسى اللازمانى الذى ينشد اللذة هو الواقع الوحيـد الملائم لأدائه الوظيفى ·

× عرضها فرويد أساسا فى مؤلفاته التالية : « تفسير الأحلام » الفصل السابع و « الأبحاث الكاملة » مجلد ٤ ص ١٣ ــ ١٧٢ · و « محاضرات تمهيدية عن التحليل النفسى و « علم الأمراض النفسية لحياتنا اليومية » و « ما وراء مبدأ اللذة » ·

× × وعرضها أساسا فى مؤلفاته التالية : « محاضرات تمهيدية جديدة » و « الأنا والهو و « سيكولوجيا الجماعة » ·

ان مبدأ التناقض لا يصدق على اللاشعور بمعنى أن الدوافع ـ الرغبات الغريزية المتناقضة موجودة معا ومتجـاورة بل ومتعـاونة معا من حيث ابدال شحنة الطاقة النفسية • والحكم النهائى الذى يحدد مصير الدوافع ـ الرغبات انما يتمثل ويرتكز أساسا على قوة الطاقة النفسية والشحنة الغريزية الذى يلتزم بأمرها •

ان كل الاطوار التى مرت بها الغريزة خلال عملية النمو من الطفولة الى الرشد وخضعت للكبت تظل جميعا داخل اللاشعور جنبا الى جنب محتفظة بشحناتها من الطاقة النفسية ومن ثم تعمل طوال الحياة كقوة ضاغطة مستهدفة النفاذ الى الشعور والتعبير الحركي • معنى هذا عند فرويد أن الدوافع ـ الرغبات الخاصة بالمراحل الفمية والجنسية الطفلية الممثلة للغريزة الجنسية تظل موجودة عند الراشد كعمليات مكبوتة داخل اللاشعور ويسمى فرويد هذا التواجد المتجاوز للمراحل الزمنية للغرائز « مبدأ التناقض الوجدانى » وسوف يتبين لنا فى الفصول التالية ان هذا المبدأ له دور هام فى نظرياته عن تكوين الشخصية وتحديد أسباب العصاب •

يقول فرويد : « ان ظروف الحلم والعصاب هما سبيلنا الوحيد لملاحظة العمليات اللاشعورية » • × ولكن حتى فى هذه الظروف لن يتسنى لنا ملاحظة اللاشعور الا عن طريق الاستعانة بالاساليب الفنية للتحليل النفسى لتفسير الأحـلام وهى الأساليب التى تتضـمن تأويل الرموز وعملية التداعى الطليق وظواهر الطرح • ويستشهد بعدد من الظواهر تأييدا لدعواه عن اللاشعور ومنها « تداعى حلقات اللاشعور » Association by unconscious links × × وما يسمى « الظواهر السلوكية اللاشعورية » (فلتات اللسان والقلم ، ونسيان الأسماء وما شابه ذلك » والسلوك العرضى × × × والايحاء التنويمى × × × × والأحـــلام × × × × والعصـــاب × × × × × × • فكل هذه الظواهر معلولات لابد لها من علل • أما عن كونها معلولات فهـذا ما لا ريب فيه ولكن السؤال هو ما عللها ؟ ويقرر فرويد عن صواب أن الشعور لا يفسر هذه الظواهر كمعلولات • بيد أنه يستطرد قائلا ان اللاشعور والأفكار الغريزية والدوافع والرغبـات التى حرمت من الدخول مباشرة الى الشعور ومن افراغ شحناتها حركيا هى التى تفسر لنا هـذه الظواهر باعتبارها وسـائل مقنعة وملتوية للنفاذ الى الشعور وتفريغ الشحنة • معنى هذا أن فرويد يذهب الى أن علة الأحلام والعصـاب وما شابههما انما تكمن أولا وأسـاسا فى النشـاط الغريزى المتمرد لنظام اللاشعور فى الجهاز العقلى •

يتضح لنا أن ما يستشهد به فرويد تأييدا لنظريته عن اللاشعور انما يستند الى دعواه عن أن الأنشطة اللاشعورية والغريزية هى علة الأحلام • ثم

× فرويد « الأبحاث الكاملة » مجلد ٤ ـ ص ١٢٠ •

× × المرجع السابق ـ ص ٢٣ •

× × × فرويد : « علم النفس المرضى فى حياتنا اليومية » •

× × × × فرويد : الأبحاث الكاملة مجلد ٤ ص ٢٣ ، ٢٤ •

× × × × × فرويد ـ تفسير الأحلام •

× × × × × × فرويد ـ « الأبحاث الكاملة » مجلد ٢ •

يعود ليستدل بالاحلام على العمليات العقلية اللاشعورية التى افترضها مسبقا ٠ وهكذا يقع فيما يسمى بالاستدلال ألدورى ، فنظريته عن الاحلام تتضمن أفكارا غريزية لا شعورية ثم يتخذ من نظريته عن الأحلام والعصاب شاهدا على وجود اللاشعور الذى يتألف من افكار غريزية ٠

٢ ـ **القبشعور** : نعود لنذكر القارىء أن نظام القبشعور يتألف عند فرويد من كل تلك الأفكار والرغبت والدوافع التى ان ظلت مؤقتا لاشعورية الا أنها قادرة على أن تصبح شعورية فى سهولة ويسر نسبيا ٠ والوظيفة الأساسية للقبشعور هى تنظيم وادارة الرقابة التى تقف فى رأى فرويد حارسا يقظا بين اللاشعور والقبشعور ٠ وتعمل الرقابة على أن تجنب القبشعور كل الرغبات والدوافع الغريزية المتناقضة والمرفوضة والمؤلمة واللاأخلاقية واللامنطقية الواردة من اللاشعور ، كما يجنبه أيضا شحنتها القوية الضاغطة من الطاقة النفسية ٠ ولهذا فان نظرية الكبت ترى فى عملية الرقابة التى يقوم بها القبشعور أمرا حيويا وأساسيا ٠

ولكى يؤدى القبشعور دوره الأساسى كرقيب لابد وأن يكون مستودعا لكل الذكريات التى نشأت أصلا من الادراك الحسى للعالم الخارجى ٠ ويلزم ، كما يذهب فرويد ، أن يحتوى على مستدعيات لغوية Verbal associations التى تختزن القيم والمعايير الاجتماعية والأخلاقية والدينية والتى تؤلف ما يسمى الضمير البشرى ٠

فالضمير هو لب رقابة القبشعور ٠ ولكن ثمة عنصرا اضافيا فى بناء الرقيب ٠ اذ أن القبشعور يدعم مبدأ الواقع فى تعارضه مع مبدأ اللذة الذى يسود اللاشعور ٠ ومبدأ الواقع هو المحك الذى يختبر الأفكار والرغبات والدوافع وما أشبه من حيث صدقها وزيفها أى من حيث تطابقها أو عدم تطابقها مع الواقع الخارجى ٠ ويمثل مبدأ الواقع ، من حيث اهتمامه بالحقيقة ، أحد مقومات رقابة القبشعور ذلك لأنه يتطلب تبعية الاشباع الغريزى للضرورات الاجتماعية مثل الحصول على وظيفة أو اكتساب الرزق أو التوافق مع العرف الاجتماعى أو مواصلة مهام علمية وثقافية ٠ فكل هذه الأمور وما شابهها تستلزم كبت « عضو اللذة » Organ pleasure الغريزى المباشر ابتغاء اللذات المنشودة السامية والتى تساير المتطلبات الاجتماعية باعتبارها ناتجا ثانويا قبل أن تكون غايات فى ذاتها ٠

ويتحد الضمير الخلقى والوعى الاجتماعى فى القبشعور ليؤلفا مثالا للذات « مثال الأنا » والذى يعمل عمل الرقيب ليبقى على الدوافع الغريزية المتمردة داخل اسار اللاشعور ٠ فاللاشعور هو معقل الغرائز ، ومثال الأنا هو الحارس اليقظ ٠ وقياسا على هذا فان أسرى اللاشعور بكل ما يحملونه من طاقة عارمة وقدرة على المخاتلة يعملون بكل الوسائل لمخادعة الحارس حينا مباشرة وأحيانا بطرق ملتوية مقنعة ٠ وبقدر ما يزداد الكبت الذى يمارسه الحارس لاحباط هذه المحاولات بقدر ما يزداد ضغطها فى اصرار ٠

وقد تنجح بعض الوسائل المقنعة وتتسلل بعض الدوافع الغريزية الى القبشعور ، وتكون هنا محتفظة بشحناتها من الطاقة النفسية ومن ثم تواصل محاولاتها فى عناء ابتغاء النفاذ الى الشعور ٠

ولذلك ذهب فرويد الى أن نظرية الكبت تستلزم رقابة اضافية مكانها بين القبشعور والشعور ويصل بنا هذا الرقيب الثانى الى آخر نظام وأرقاه فى الجهاز العقلى ٠

٣ ـ الشعور : كان فرويد مقلا نسبيا فى حديثه عن الشعور ٠ ومرد هذا بطبيعة الحال الى اهتمامه النسقى ببيان الدور الغلاب للنشاط العقلى اللاشعورى لتعارضه مع الرأى السائد بين الناس عن أن الشعور هو أثمن وأجل ما نملك وهو أحد الصفات التى تمايز بين الانسان وسواه من الكائنات الحية ٠ ويقول فرويد « علينا ونحن نشق طريقنا ابتغاء الوصول الى نظرة ميتاسيكولوجية عن الحياة العقلية أن نحرر أنفسنا ، وبنفس القدر الذى تصيبه من نجاح ، من اسار احساسنا بجلال شأن ذلك العرض الذى يتألف من « الوجود الواعى » × وأخذ على علم النفس التقليدى توحيده بين ما هو عقلى وما هو شعورى ٠

بيد أن فرويد ذهب مذهب علم النفس التقليدى حين طابق بين الشعور والادراك المباشر اما فى شكل خبرة راهنة أو وجدانات راهنة للذة والالم أو تصورات ماثلة أمام العقل ٠ وخلاصة القول أنه يطابق بين الشعور والانتباه ويرد كل الظواهر العقلية الاخرى الى نظامى القبشعور والشعور ٠ ويقول فرويد والان لنطلق كلمة شعورى على التصور الماثل لوعينا والذى ندركه ، وليكن هذا هو المعنى الوحيد لمصطلح « شعورى » ٠ ويردف قائلا « أما عن التصورات الذهنية الكامنة فلنتخذ لها مصطلح « لاشعورى » للدلالة عليها اذا ما كان ثمة مبرر يدعونا الى افتراض وجودها فى العقل على نحو ما شاهدنا فى حالة الذاكرة » ٠ × ×

ويعبر فرويد ، بالنسبة للشعور ، عن نفس شكواه بصدد كل الظواهر العقلية الأخرى ونعنى بها ندرة معارفنا عنها التى تزودنا بها مصادر أخرى مثل التشريح والفسيولوجيا ٠ اذ يقول : « يجب ألا يغيب عن ذهننا أن المصادر الأخرى لا تزودنا الا بالنزر اليسير عن نشأة الشعور » ومن ثم وجد نفسه مضطرا الى أن يحذر القارىء فى صراحة قائلا : « لم يبق غير التأمل ، والتأمل الذى ورثناه منذ القدم ، وقد يقبله القارىء أو يرفضه طبقا لنزوعه الفردى » ٠

واختزل « التأمل التحليلى النفسى » الشعور وقصره على وظيفة تسجيل المدركات الحسية الباطنية والخارجية ٠ وهكذا أصبح الشعور ذا وجهين أحدهما يواجه به العالم الخارجى من حيث تأتيه الاثارات الخارجية الصادرة عن أعضاء الحس ، والثانى يواجه به الأعماق الباطنية للاشعور بنظاميه (اللاشعور والقبشعور) فى الجهاز العقلى ٠ وتأسيسا على هذه النظرة نسب فرويد للشعور وضعا فى المكان » ٠ اذ يقول « لابد وأنه قائم عند الحدود الفاصلة بين ما هو خارج وما هو داخل فلابد وأن يتجه الى العالم الخارجى كما لابد وأن يحجب النظامين النفسيين الآخرين » ٠ ويبرر فرويد عقليا « نظريته عن تمركز الوظائف العقلية فى الدماغ وتصويرها الطوبوغرافى وذلك بالتمثيل بينها وبين تشريح المخ ٠ فيقول « سيتضح فيما بعد أن افتراضاتنا هذه ليس فيها جديد ٠

× فرويد ـ « الابحاث الكاملة » ـ مجلد ٤ ص ١٢٤

× × المرجع السابق ـ ص ٢٣

اننا لم نفعل أكثر من التزامنا بما ذهب اليه تشريح المخ بالنسبة لتمركز الوظائف العقلية في الدماغ والذى يتخذ من لحاء المخ قاعدة للشعور ـ وهو الغشاء الخارجى الاعلى لهذا العضو المركزى » ٠

ولكن فرويد لم يقنع بالتمثيل بتشريح المخ ابتغاء تدعيم نظريته عن تمركز النظم العقلية فى الدماغ ، بل يستطرد للافادة من هذا التمثيل لينبت ويدعم نظرته الخاصة عن الشعور من حيث ان ما يحدده أولا وأساسا هو الغرائز الباطنية اللاشعورية مثل المنبهات الصادرة عن العالم الخارجى ٠ وسبيله الى هذا الاشارة الى أن الجمجمة نقى لحاء المخ ، قاعدة الشعور ، من الاتصال المباشر بمثيرات العالم الخارجى بينما لا نجد مثل هذا الدرع الواقى بين اللحاء والقطاعات الدنيا من المخ ٠ ويترجم فرويد هذا الى مصطلحات الجهاز العقلى فيقول ان الشعور يجد ما يقيه من المؤثرات الخارجية ولكنه أعزل أمام وجدانات اللذة والآلم التى ترد اليه من قوى الحفز فى اللاشعور ٠

واستطرادا لعملية التمثيل هذه يقرر فرويد أن أعضاء الحس هى المنافذ الوحيدة الموصلة الى لحاء المخ داخل الجمجمة والتى تهىء له قدرا محدودا من الاتصال بالعالم الخارجى ٠ ولكن هذه المنافذ أو أعضاء الحس مركبة فى شكل أجهزة بحيث تعدل المنبهات الخارجية ولذلك يشبهها فرويد « بقرون الاستشعار التى تظل طوال الوقت تتحسس العالم الخارجى ثم ترتد عنه » ٠ × واذا ترجمنا هذا بلغة المصطلحات العقلية فانه يعنى بالنسبة لفرويد أن الشعور هو أساسا منطقة استقبال تتلقى المنبهات اللاشعورية الباطنية من الاشباعات الغريزية فى شكل لذة وألم ، وهو ثانيا منطقة استقبال للخبرة الحسية ، ومناط التشبيه هنا تأكيد غلبة الوجدانات الباطنية للذة والألم على كل المنبهات الخارجية ومن ثم يقيم « الدليل » على دعواه بأن الشعور تحدده أولا وأساسا ممثلات الغريزة أما الخبرة الحسية فهى أمر ثانوى ٠

والقول بأن الشعور (وبالتالى الشخصية والسلوك والطباع وكذلك العلوم والفنون) تحدده القوى الغريزية الباطنية الفطرية قبل الخبرة الحسية الخارجية والمكتسبة ، يمثل القضية الأساسية التى ترتكز عليها كل نظريات فرويد ٠ وكما رأينا توا فان هذا الاعتقاد يدعمه فى المحل الأول تمثيل تأملى بتشريح المخ ٠ والقول الذى ذهب اليه فرويد قول هام وكذلك طريقة التمثيل للبرهنة عليه لذلك آثرنا أن نعرضها فى صورتها البليغة الموجزة التى عرضها فرويد : « ان الحقيقة المعروفة أن اللحاء الذى يتلقى المنبهات أعزل بغير درع يقيه من الاثارات الواردة اليه من الباطن تستلزم نتيجة مؤداها أن هذه المنبهات الداخلية هى الأرجح من حيث أهميتها اقتصاديا ٠ وأغزر مصادر الاثارة الباطنية هى ماوصفناه « بغرائز الجسم » ممثلات كل القوى التى تنشأ فى باطن الجسم وتنتقل الى الجهاز العقلى ـ وهى فى نفس الوقت أهم عناصر البحث السيكولوجى وأكثرها غموضا » ٠

هذه هى تأملات فرويد الميتاسيكولوجية التى عرضها صراحة فيما يتعلق بالنظم الثلاثة للجهاز العقلى ٠ ويقول عن نظريته الميتاسيكولوجية : « ان

× فرويد « ماوراء مبدأ اللذة » ص ٢٧ ـ ٣٣

الغموض الذى يكتنف كل مناقشاتنا عما سميناه ميتاسيكولوجيا انما مرده فى واقع الأمر الى جهلنا بطبيعة العملية الاثارية التى تجرى داخل عناصر النظم النفسيه وهذا ما يجعلنا نحس أننا لا نقف على أرض صلبة ونحن نصوغ أى فرض يتعلق بهذا الموضوع . وهذا ما يدعونا الى الظن بأننا نعمل طوال الوقت مع كم كبير مجهول مما يضطرنا الى أن نرجئه مع كل صيغة جديدة . × معنى هذا أن نقص المعلومات فى المجالات الأخرى وبخاصة فسيولوجيا المخ هو الذى اضطر فرويد الى أن يسلك كل السبل جاهدا ولكن دون جدوى .

ولكن ما هى أوجه الشبه بين النظم الثلاثة عند فرويد وبين تلك التى قال بها بافلوف .

بافلوف والنظم الثلاثة للنشاط العصبى الراقى

حين عرضنا نظرية بافلوف عن النشاط العصبى الراقى للنصفين الكرويين للدماغ قصرنا حديثنا على نتائج تجاربه بالنسبة للحيوانات . ورأينا كيف مايز بين نظامين للنشاط العصبى يشكلان أساس سلوك التكيف عند الحيوانات . ونعنى بهذين النظامين نظام الفعل المنعكس غير الشرطى ونظام الفعل المنعكس الشرطى .

ان الأفعال المنعكسة الفطرية ، عند الانسان والحيوان على السواء ، تدخل منذ الميلاد فى نسيج معقد متشابك مع الاشارات الحسية المكتسبة والوقتية . وهكذا ذهب بافلوف الى أن النظامين الأول والثانى ليسا مترابطين فقط بل متكافلين اذ يرتكز كل منهما على الآخر . فكل عملية خاصة « بغريزة » ما – أو سلسلة من الأفعال المنعكسة – تعمل فى نفس الوقت على ربط الاشارات الحسية بنسيجها ربطا قويا محكما . ينتج عن هذه العملية التحام « الغرائز » بالاشارات الحسية ويتألف من هذا الالتحام مركب من الأفعال المنعكسة المتلاحمة . ومع تكرار هذه العملية تتداخل هذه الأفعال المنعكسة المتلاحمة لتشكل نظما مستقلة هى التى أطلق عليها بافلوف مصطلح « القوالب النمطية الدينامية Dynamic stereotypes والتى يمكن التعبير عنها وصفيا بعبارة « أنماط السلوك أو العادات . والأفعال المنعكسة المتلاحمة التى تشكل القوالب النمطية للسلوك هى بصورتها هذه مركب من عمليات التكيف الوراثية والمكتسبة مع ظروف البيئة . وهى بوضعها هذا تعد شيئا حيويا أساسيا ومطلقا لبقاء الحيوان والطفل الوليد . مثال ذلك مركب الأفعال المنعكسة الغذوية المرتبطة بعمليات القبض والمضغ والبلع والهضم تدخل كلها ومنذ لحظة الميلاد فى نسيج واحد مع «التعلم عن طريق الخبرة» × × وتتم عملية اكتساب الاشارات الحسية تدريجيا وبصورة مؤلمة فى أغلب الأحيان وهى التى تحلل وتصنف البيئة الى اشارات تمثل الموضوعات الخارجية : اللاذع والحلو ، الفظ واللين ، المستساغ والبغيض ، الودود والخطر .. الخ .

× الموضع السابق .

× × ان الأبحاث التجريبية الحديثة ترد عملية تكوين الأفعال المنعكسة الشرطية لدى الطفل الى الشهر الأول من العمر .

هذا التكافل بين النظامين الأول والثاني للنشاط العصبي الراقي متمثلا في شكل أفعال منعكسة متلاحمة له دلالة مزدوجة لدعم وتأكيد التوازن الدينامي بين الجسم والبيئة • أولا : ان تلاحم الافعال المنعكسه غير اشرطية أو الفطرية مع الاشارات الحسية المكتسبة يحول الغرائز المعممة والفجة وغير المحددة الى عادات سلوك أو قوالب نمطية دينامية متخصصة ودقيقة ومرهفة • وهذا من شأنه أن يضمن فى نطاق حدود عملية ، فعالية الأفعال المنعكسة الفطرية أي ييسر أداءها الوظيفى بصورة فعالة ومجدية • ثانيا : ان التلاحم بين الأفعال المنعكسة الفطرية والمكتسبة هو الذى يكفل خلق رباط مباشر أو غير مباشر بين هذا الخليط المشوش من الاشارات الحسية وبين الأداء الوظيفى الحيوى لجسم الحيوان •

ويؤلف الجهازان الأول والثاني مجمل الأداء الوظيفي العصبي الراقي لكل من الحيوانات والأطفال حديثى الولادة • فهذان الجهازان الوظيفيان حين يعملان معا على خلق أفعال منعكسة متلاحمة تندمج لتكون قوالب نمطية دينامية (متغيرة أبدا) يصبح في استطاعتهما توليد نشاط عصبي مرهف ودقيق ومعقد للغاية ويشكل أساس سلوك الحيوان والطفل الوليد بكل مظاهره المتنوعة • وهى التى تجعل الحيوانات ، والأطفال بخاصة ، تبدو لنا وكأنها تسلك سلوكا يحمل الصفات الانفعالية والتصورية التى نلمسها عند الأطفال الكبار والراشدين ؛ ولكن شيئا واحدا هو الذى ينقصهم كشرط ضرورى بدونه لا يكون ثمة سلوك أو نشاط عصبى راق بشرى بمعناه الحقيقي المميز • ويتمثل هذا الشرط فى نشاط نظام آخر اضافى للأداء الوظيفى للمخ •

ويذهب بافلوف الى أن النظام الثالث للنشاط العصبى الراقى الذى يعد نظاما بشريا خالصا هو النظام الاشارى الخاص بالكلام أو اللغة • ومركزه تشريحيا هو لحاء المخ ، مثل النظام الحسى ، ويعمل على أساس الفعل المنعكس الشرطى • فالكلمات المنطوقة والمسموعة والمكتوبة تصبح منبهات شرطية أو علامات أو اشارات بديلة للاشارات الحسية التى تشير الى الواقع • ان الكلمات قوالب نمطية للأصوات والصور البصرية وأصبحت خلال عشرات الآلاف بل ومئات الآلاف من السنين ممثلا للصور الحسية أو مجردات مستخلصة منها • ان الكلمات تصف وتصنف موضوعات العالم الخارجي والأفعال وكل أوجه التمايز الدقيقة • ولهذا فان كلمة شجرة هى اشارة مجردة تمثل تعميما مستخلصا من كل الصور البصرية للأشجار أيا كان نوعها • انها اسم لفئة من الأشياء تميزها خصائص حسية معينة •

وتماثل الكلمات ، من حيث هى اشارات ، كل المنبهات الشرطية الاخرى• اذ أنها تخضع للقوانين العامة التى تخضع لها الأفعال المنعكسة الشرطية من حيث نشوئها وانطفائها وتحديدها من خلال التحليل العصبى الراقى بواسطة عمليتى الانتشار والتمركز • ولكن الكلمات من ناحية أخرى تختلف كيفيا عن كل المنبهات الشرطية الأخرى • ويتمثل أهم أوجه الاختلاف فى صفتها المجردة• فالكلمات يمكن تطبيقها والافادة منها فى كل الظروف والأزمان • ان كلمة شجرة على سبيل المثال بديل لكل شجرة ، وهى كاشارة قادرة على أن تستثير كل الأفعال المنعكسة الشرطية المقترنة بالاشارات الحسية الخاصة بالموضوع الراهن •

وهذه الصفة المجـــردة للكلمات من شأنهـا أن تهيء لنـا فهما عيانيا للموضوعات الخاصة المحددة ؛ انها تيسر للانسان عملية التعلم من الخبرة البشرية التى تجمعت عبر العصور وفى كل حالة بذاتها تصدق معها كلمة « شجرة » على سبيل المثال ٠

ان اشارات الفعل المنعكس الشرطى الحسى تتيح للحيوان والطفل الوليد أن يتعلم من خبرته الخاصة ٠ وهذه خطوة جبارة تجاوزت المراتب الدنيا من الحياة مثل النباتات التى ينحصر نشاطها فى اطار الانتحاء أو بعض الحيوانات التى يقتصر نشاطها على الارجاعات اللمسية ٠ ولكن اذا ما قارنا هذا بما تتمتع به ردود الأفعال عند الانســان من مرونة هائلة بفضـــل نظام الكلام لبدت لنا الأفعال المنعكسة الشرطية الحسية عند الحيوان والطفل الوليد شيئا بدائيا فجا ٠

ويتبدى لنا هذا واضـحا تماما عندما ندرك أن الفكر البشرى هو أولا وأساسا محادثة ذاتيــة مادتها اللغــة ، وعندما ندرك أيضا أن العمل والصناعة والزراعة والعلوم والفنون تتوقف كلها على اللغة أو النظام الاشارى للكلام ٠ ان نظام الأفعال المنعكسة الشرطية الخاصة بالكلام اذا نظرنا اليه فى اطار التطور التاريخى نجد أنه نما وتطور فى ومن خلال العمل والحياة الاجتماعية والعلوم والفنون ، ولهذا فان النظام الثالث هو فى آن واحـد نتـاج لكل النشـاطات البشرية وشرط لتطورها ٠

ان نقطة التحول الحاســمة فى مسار نمو وتطور الوليد الى الطفولة هى اكتساب النظام الاشارى للكلام ٠ ومع نشاط هذا النظام الثالث نشهد بزوغ مستوى جديد من الأفعال المنعكســة الشرطية المتلاحمة ٠ اذ تصبح الكلمات اشارات بديلة لكل مركبات الأفعال المنعكسة الشرطية الحسية والأفعال المنعكسة غير الشرطية ٠ بل وأكثر من هذا فانها تؤدى الى نشوء تلاحمات جديدة ثلاثية ، مثال ذلك أن الطفل قد يتعلم أولا التحكم فى العضلة القابضة الخاصة بالتبول وذلك عن طريق الأفعال المنعكســة الشرطية الحســية ــ أى عن طـريق الثواب والعقاب ٠ وهنـا يلتحم فعل منعكس شرطى مع آخر غير شرطى ٠ ولكن مع نشوء وتطور الجهاز الاشارى للكلام عند الطفل تتم هنا عملية تدعيم لهذا الفعل المنعكس المتلاحم الخاص بعضــلة التبول ــ الخجل الاجتماعى والسـخرية التى يتلقاها فى شكل كلمات من قبل أقرانه اذا لم يؤد هذا الفعل المنعكس وظيفته على نحو فعال ومقبول ٠ وها هنا ينشـأ نمط دينامى ثلاثى من أفعال منعكسة غير شرطية وأخرى حسية شرطية وثالثة لغوية شرطية وكلها تفيد الانسان بصورة فعالة فى حياته ٠ وليس هذا سوى مثال مبسط للغاية لمعنى التلاحم الثلاثى بين الأفعال المنعكسة فى شكل قالب نمطى دينامى ٠

صاغ بافلوف ، بناء على أبحاثه التجريبية والعيادية ، قانونا عاما يحدد التداخل والتكافل بين النظم العصبية الراقية : « فى حالة اليقظة أو الصحو يكون الجهاز الأرقى هو الجهاز المنظم والمهيمن على النشاط العصبى الراقى » ٠ ويعنى هذا القانون عند تطبيقه على الحيوانات أن الغلبـة لنظام الفعل المنعكس الشرطى الحسى فهو الذى يهيمن على تنظيم الاداء الوظيفى العصبى الراقى ٠ ويعنى بالنسبة للانسان أن جهاز الكلام هو الذى يقوم بهذا الدور ٠ وفى حالة الأفعال المنعكسة البشرية المتلاحمة ومركباتها فى شكل قوالب نمطية دينامية فان الأفعال المنعكسة الشرطية للكلمات هى التى تشكل العنصر الرائد والمنظم٠

والجهاز الاشارى للغة هو بالمثل الجهاز المهيمن فى حالة الظواهر الأكثر تعقدا مثل الترابط والوعى والانتباه ·

والترابط عند بافلوف هو ، بلغة الفسيولوجيا ، رابطة وقتية لمنبهات سابقة غير مرتبطة · وثمة أنماط عديدة لهذا النوع من الترابطات أحدها الفعل المنعكس الشرطى أو الوقت وهو رابطة بين منبه محايد وآخر غير شرطى · وهنا يكون الترابط أو الاقتران الوقتى تصنيفا عاما يحتوى الفعل المنعكس الشرطى دون أن يكون قاصرا عليه وحده · ثم ان الرابطة أو الاقتران الوقتى هو أى تزاوج بين منبهين فى اللحاء · ويتكرر ميكانيزم عملية المزاوجة اللحائية فى آن واحد أو على سبيل التتابع بين المنبهات بينما يكون اللحاء فى حالة استثارة ·

وقد تحدث الرابطة الشرطية نتيجة تزاوج عرضى بين منبهين دون أن يعكس هذا رابطة واقعية فى العالم الموضوعى ، وقد تعكس ظواهر مقترنة ومطردة الوقوع فى العالم الخارجى · والنوع الأول قد يكون علة الوقوع فى خطأ أو التفكير على نحو خرافى ، أما الآخر فيمثل ميكانيزم التعلم واكتساب المعرفة · ولكن فى كلتا الحالتين فان الرابطة الوقتية تخضع لنفس قوانين الفعل المنعكس الشرطى من حيث النشوء والانطفاء والضبط · انها نشاط انعكاسى يتضمن عمليات التركيب والتحليل والانتشار والتمركز والاثارة والكف ·

ومصطلح « الرابطة الوقتية » هو بلغة النشاط العصبى الراقى البديل لمصطلح « الترابط » بلغة علم النفس ·

والروابط الوقتية عند الحيوانات هى مزاوجة بين اشارات حسية فقط دون سواها · وهنا تتحدد ظاهرة الانتباه على أساس الفعل المنعكس الفطرى الموجه Orientation Reflex واثارة المنبه الأقوى وانطفاء كل المنبهات الضعيفة المتزامنة · وبهذا المعنى يقال ان الغزال « ينتبه » أو يصدر عنه ارجاع وفق طريقة الاستثارة لاشارات الخطر اذا ما كانت هذه الاشارات هى فى تلك اللحظة المنبهات الأقوى ، ونقول انه « ينسى » أو « يكبت » أو يكف أى منبهات غير شرطية ملازمة فى تلك اللحظة سواء أكانت مثيرات غذوية أم تناسلية أم غير ذلك ·

ويمكن القول ان الحيوان فى حالة الصحو « ينتبه » لأقوى المنبهات فى لحظة بعينها ، و « ينسى » أو « يكبت » كل المنبهات الضعيفة · بيد أن حديثنا على هذا النحو هو حديث بلغة ذاتية · ولو جاز لنا أن نتحدث عن « شعور » الحيوان لقلنا انه يتألف من كل الأفعال المنعكسة المتلاحمة فى شكل روابط مزدوجة وقوالب نمطية دينامية اكتسبها الحيوان أثناء حياته ويمكن استثارتها من جديد كلما حانت المنبهات الملائمة · ولكن ربما كان الأدق والأصوب علميا أن ننأى عن قولنا « شعور الحيوان » ونتحدث عن قدرته المكتسبة على الارجاع أو التكيف مع ظروف حياته · ان مصطلح « قابلية الارجاع Reactability أو « قابلية التكيف » هو الأدق والأكثر ملاءمة كمصطلح علمى للتعبير عن ظواهر الحيوان ·

والترابط عند الانسان اقتران حسي أو لغوي أو أفعال منعكسة متلاحمة ثلاثية ، ومركباتهـا في شـكل قوالب نمطية دينامية ينظمها في حالة اليقظة النظام العصبي الأرقى وهو نظام الكلام • والنظام العصبي الراقي الذي ترتكز عليه عملية الانتباه عند الانسان هو الاستثارة بفعل المنبهات الأقوى في لحظة بذاتها وكف كل ما سواها من المنبهات الأضعف • ولنا في أي لحظة من لحظات حياة الانسان أن نصف ، عن صواب ، هذا النشاط العصبي الراقي باعتباره « انتباها » لهذه المجموعة أو تلك من المنبهات الخارجية (البيئية) أو الباطنية (أفكار أو انفعالات في العادة) • والجانب الآخر من الانتباه هو الكبت أو الكف حيث تكف مؤقتا كل المنبهات الأضعف (الخارجية منها أو الباطنية) •

بيد أن الانتباه عند الانســان ليس قاصرا على الصورة التي ألفناها عند الحيوان أعني المنبهات الأقوى الراهنــة • كما أن الكبت عند الانســان ليس قاصرا على المنبهات الأضعف في لحظة بذاتها • ان الانتباه عند الانسان يخضع بصفة خاصة لتوجيـه وتنظيم النظام الأرقى وهو نظـام الكلام • انه يرتبط ارتباطا وثيقا بالشعور والفكر والنشاط الهادف • وسوف نناقش هذه الظواهر باقاضـة كاملة في الفصـل التالي ، ولكن يجدر بنا الآن أن نلم المامة عاجلة بالنشاط العصبي الذي ترتكز عليه •

يذهب بافلوف الى أن الشـعور الفردي عند الانسان يتضمن كل الأفعال المنعكسة الثلاثية المتلاحمة النشطة والراهنة وكل عمليات التزاوج والقوالب النمطية الدينامية التي تشكلت أثنـاء حيـاة المرء • وبهذا يتضمن الشعور الانفعالات والعواطف والقدرة المكتسبة على خلق اقترانات منطقية أو ترابطات• وهذه الأخيرة هي جوهر الفكر • فالتفكير التزام بمسـار محـدد لسلسلة من الترابطات وفق القواعد المنطقية للاســتقراء والاســتنباط • وهذه القواعد الأخيرة ما هي الا روابط شرطيــة تؤلف قوالب نمطية اكتسبها الانسان أثناء حياته دون تدرب أكاديمي على المنطق كعلم • وسلسلة الترابطات التي تنظمها قواعد منطقية قد تكون اما صـادقة أو زائفـة أي قد تكون مطابقـة للواقـع الموضوعي أو غير مطابقة • ولكن مثل هذه السلسلة من الترابطات هي قوام الفكر في كلتا الحالتين • ويستطيع الانسان بفضل هذا الطراز من التفكير أن يفكر قبل أن يقدم على عمل ما ، بمعنى أن الترابطات المنطقية هي التي تمكنه من أن يتصور وسائل عديدة وبديلة للسلوك ثم يختــار أكثرها ملاءمة وبعد ذلك يكون السلوك •

ومثل هذا النوع من النشاط الهادف غير ميسور الا للانسان وحده ذلك لأنه متوقف على عمليات الفكر التي تتوقف بدورها على النشاط العصبي الراقي للكلام وكذلك النظامين الحسيين • فالانســان لا يستطيع الا بالفكر وحـده أن يدرك التعارض بين الحال الذي تكون عليه الأشياء وبين ما يريده أن تكون عليه ومن ثم يحدد لنفســه هدفا ليهيء الظروف بما يتلاءم مع احتياجاته • وبهذا يستطيع أن يسلك سـلوكا هادفا يصـل به الى غرضــه المنشود • ان الفكر (أو التفكير) هو ركيزة النشاط الهادف ، والنشـاط العصبي الراقي المؤلف من سلاسل منتظمة منطقيا من الاقترانات اللحائية هو ركيزة الفكر •

ان شعور الانسان ليس انشغالاته المباشرة • فهذه ليست سوى الانتباه • ان الشعور يعني هذه القدرة الهائلة التي يتمتع بها الانسان لخلق عدد لاحصر له

من الروابط الشرطية · أما الاقترانات الترابطية الماثلة فى لحظة بعينها فهى قوام الانتباه · والانتباه عند الانسان يخضع بصورة أساسية لسيطرة توجيه الغرض المنشود فى اللحظة الراهنة قبل المنبهات الأقوى على نحو ما يحدث عند الحيوانات · وطبيعى أن الغرض قد يكون هو المنبه الأقوى الا أن الانتباه عند الانسان يختلف كيفيا فى كل الأحوال عن الانتباه عند الحيوان من حيث ارتباطه بنشاط هادف ·

والهدف المنشود هو الذى يحدد أنماط المنبهات التى يتعين على أن استجيب لها وكذا المنبهات الأخرى الدخيلة التى يجب أن أكبتها مؤقتا او أكفها · ومن ثم يمكن تشبيه الانتباه ، أو الاقترانات الفعالة ، بكشاف يضىء مساحة محدودة من الشعور لحين أداء نشاط وقتى · أما المساحة الباقية من الشعور أو الترابطات الممكنة وسلاسل الترابطات فانها تظل معطلة مؤقتا · وطبيعى أن أحداثا عارضة قد تقتحم نفسها على انتباهى الهادف الموجه ، وقد أوفق فى كبت بعضها وقد يشغل البعض الآخر انتباهى ويصرفنى مؤقتا عن هدفى الأصلى ·

اننا فى كل هذا لم نكن نمايز بين الشعور واللاشعور وانما بين الشعور باعتباره خليطا هائلا من ترابطات قائمة ولكنها غير فعالة أو خليطا من الاقترانات الشرطية (مرتكزة على كل الخبرة الماضية للفرد وما لها من فعالية) وبين هذا القطاع الصغير من الشعور الذى يكون فعالا ونشطا فى لحظة بذاتها · ومن ثم فان المقابلة التى عقدناها كانت بين الشعور ككل من ناحية وبين الانتباه الشعورى من ناحية أخرى ·

مقابلة بين المذهبين

استطعنا فى عرضنا السابق أن نعقد مقارنة وافية بين نظريتى بافلوف وفرويد وقارنا بين آراء فرويد عن النشاط الراقى عند الانسان وبين أبحاث بافلوف التجريبية على الكلاب · الا أننا وصلنا الى نقطة يتيسر لنا عندها عقد مقارنة أكثر تكافؤا ، حيث نشرع فى دراسة نظرية بافلوف عن النشاط العصبى الراقى وكيف تعيننا على فهم الظواهر العقلية ·

نذكر أن النهج الذى التزم به فرويد يقضى بأن علم النفس والطب العقلى لا يسعهما الانتظار الى حين أن تقدم لهما العلوم الأخرى ، وبخاصة فسيولوجيا المخ ، الأساس الذى يبنيان عليه نظرياتهما ، وانما يتعين عليهما أن يواصلا السير على أساس خطة عقلية محضة · وكان نهج بافلوف على النقيض من ذلك اذ يقضى بأن علم النفس والطب العقلى لن يحققا أى تقدم يذكر دون أن يتوفر لهما الأساس الذى تقدمه لهما العلوم الأخرى وبخاصة فسيولوجيا وعلم أمراض النصفين الكرويين للدماغ ·

ولقد طرحنا هاتين النظريتين للبحث فيما يتعلق بالنظرية العامة عن جهاز النشاط الراقى عند الانسان · ورأينا أن فرويد ، وبشهادته هو ، اعتمد على التخمين والتأمل والافتراض وأطلق على جهوده لبناء نسق سيكولوجى اسم الميتاسيكولوجيا أو ما وراء علم النفس · وبعد أن فرغنا من عرض محاولته لاعادة بناء « الجهاز العقلى » دون الافادة من العلوم الاخرى لم نجد أمامنا من بديل سوى أن نؤمن على ما قاله هو : « انه تخمين وتأمل وافتراض · حقا

ان وصفه للمركب الثلاثي للنظم الثلاثة للجهـاز العقلي والصراعات الداخلية بينها ومظاهر التمرد والرقابة كل هذه قد تكون عمـلا عبقريا وابداعا فنيا ، بل وقد يتسنى له ان يقدم تفسيرا لكل الظواهر العقلية ولكن سيشق علينا وعلى أى انسان بعد هذا كله أن يغفل شهادة فرويد ذاته ويسمى ذلك « علما »٠ والخلاصـة التي تفرض نفسها على كل باحث : ان ذلك أقرب الى الخيال منه الى العلم ٠ بل ان فرويد ذاته دفعته احدى المناسبات الى أن يشير قائلا « لنعد الآن لحظة الى موضـوع أسلفناه ولنفكر مليـا اذا ما كان ثمة أى أساس لكل هذه التأملات » × ويقول « كل هذه التأملات قادتنا الى فراغ » ولكن « حيث اننا لا نملك الانتظار حتى تزودنا العلوم الأخـرى بنظرية » فليس أمامنـا الا أن نواصل المسيرة على أساس التأمل النظرى ٠

ان عرض نظرية فرويد في الميتاسيكولوجيا تقودنا الى نتيجة مؤداها أن التأمل وليست النظرية العلمية ــ أو الفرض الخصب هو الذى قد يهدينا يوما ما الى العلم ٠ ولكن اذا ما قابلنا نظرية الجهاز العقلي بنظرية أخرى تجريبية عيادية مثل المخطط العام الذى وضـعه بافلوف عن النشـاط العصبى الراقى حتى تبدو لنا المقارنة حادة ومثيرة ٠

يحدثنا فرويد عن جهاز عقلي محض لا مادى ؛ ويحدثنا عنه بلغة التوزيع المكانى لسلسلة من القطاعات العقلية كل منها يضـم أفكارا مشـحونة بطاقة نفسـية ٠ وكل المكونات الأساسية فى وصفه هذا هى مفاهيم عامة لا تصدق الا على موضـوعات وعمليـات مادية : جهاز وتوزيع مكانى وطاقة ٠ ان هذه المفاهيم تكون ذات معنى حين يكون الحديث منصبا على جهاز كهربى أو ميكانيكى أو كيماوى أو عصبى ولكن ماذا يعنى هنـا الجهـاز العقلي أو التوزيع المكانى للعمليات العقليـة أو الطاقة النفسـية ؟ لقد كان فرويد فى كل حالة من هذه الحالات يصطنع مركبات لغوية هى مصطلحات علمية وواضحة المعنى تماما فى دلالتها على موضوعات أو عمليات مادية ولكنه أفرغها من معناها المادى وحاول أن يتناولها وكأنها أمور لها كيانها المادى موجودة فى الزمان والمكان لها حركتها الذاتيـة وتحركهـا قوى أخـرى ٠ وسار على نفس النهج فى تناوله للأفكار والذكريات كصفات مادية يمكن ، كغيرها من أمور أخرى ، أن تتوارثها الأجيال بيولوجيا جيلا بعد جيـل ٠ وليست الغرائز وحدها وراثية بل الأفكار التى ترتكز عليها أو ما يسـميه هو ممثلات الغريزة والتراث المهجـور من ذكريات تعود الى عهود القبيلة ينتقل بيولوجيا عبر الأجيال ٠ ويذهب الى أن الأفكار موجودات مختزنة فى القطاعات العقلية من الجهاز النفسى ٠

والتزم فرويد طوال عرضه لنظريته عن الميتاسيكولوجيا بمبدأ التمثيل بعمليات وموضوعات مادية ليشيد مذهبه العقلي المحض ٠ وأورده مبدأ التمثيل على هذا النحو موارد الزلل وأوقعه فى أخطاء مستهجنة على نحو ما شاهدنا فى حديثه عن توزيع العمليات النفسية مكانيا فى لحاء المخ والجمجمة ليؤكد تصوره عن التوزيع المكانى للشعور وخضـوعه أساسا للاثارات الباطنية الواردة اليه من اللاشعور نظرا لغياب درع فاصل كالجمجمة بين اللحاء والقطاعات الدنيا من المخ مثل ما هو قائم بين اللحاء والعـالم الخارجى ٠ ان الاسـتدلال عن طريق

× فرويد : « ماوراء مبدأ اللذة » ــ ص ٢٤

التمثيل خصب ومفيد ولكن له مكانة محـدودة فيمـا يتعلق بغرض الفروض العلميه ولكن اذا كانت له الغلبة والهيمنه فان حصيلتنا لن تعدو خيالا بعيدا تماما عن المعقول ٠

وذهب بافلوف مذهبا آخر فى نظريته العامة عن النشاط العصبى الراقى عند الانسان اد انه انتزم بالمفاهيم المفررة علميا عن العمليات الماديه ـ الجهاز العصبى وتوزيع الوظائف فى قطـاعات المخ والطـاقة العصبية ٠ فالميكانيزمات الفطريه هى طرق فطرية خاصـة بتوصـيل الاثارات العصـبية ٠ والافكار والترابطات الفكرية هى نتاج لأفعال منعكسه شرطية خاصة بالكلمات وقواعد اللغه والمنطق وتحدث فى شكل طرق عصبية تنشأ خلال الخبرة أثناء الحياة ٠ والأفكار ليست ودائع مخنزنة فى قطاعات مكانية أو فى الشعور أو اللاشعور وانما هى نتيجة امكانيات كامنة لخلق ترابطات تأسيسا على ارتباطات عصبية قائمة لا تنتظر سوى المنبهات الملائمة لاستحضارها ٠ فليست الأفكار موجودات مادية ، انها غير موجودة فى اللامكان ولا تختفى فى اللامكان عندما لا تكون موضوعا يشغل الذهن ٠ انها ارتباطات أو اقترانات عصبية موجودة بالقوة أو بالفعل Potential or actual اذ أن الأفكار حين لا تكون ماثلة أمام الذهن فانها تكون موجودة فقط فى شكل ارتباطات كامنة لطرق عصبية قد تنشط أولا تنشط يوما ما اعتمادا على المنبهات الحسية الخارجية أو المنبهات الترابطية الباطنية ٠

وحدثنا بافلوف عن نظم ثلاثة للنشـاط العصبى الراقى وعملياتهـا العصبية : التركيب والتحليل ، الاثارة والكف ، الانتشار والتمركز ، ورأى فى هذه ركائز مادية لنشاط مادى تحكمه قوانين موضوعية للحركة ٠ فالمخ عضو مادى يعمل وفق وخلال عمليات مادية ٠ وهذا لا يعنى بأى حـال من الأحوال رد الحياة العقلية الى نشاط مادى ، وهو ما سنتناوله بالتفصـيل فى الفصل التالى ، وانما يعنى أننا لانستطيع أن نفسر الحياة العقلية بمصطلحات عقلية خالصة ودون غيرها ذلك لأننا لو اقتصرنا على تفسير عقلى بحت فان حصيلتنا لن تعدو أن تكون استدلالا عن طريق التمثيل التأملى النظرى على نحو ما فعل فرويد فى نظريته الميتاسيكولوجية ٠

وهنا لا يسعنا الا أن نخلص الى نتيجة محددة وهى أن النظم الثلاثة التى قدمها بافلوف تشكل أساسا أكثر علمية مما قدمه فرويد وفى هذا ما يجعلنا نأمل الكثير على أساسها مستقبلا فى مجالى علم النفس والطب العقلى ٠ بيد أن المقارنة التى عقدناها لا تكفى وحدها للانتهاء الى رأى نهائى عن صحة وجدوى نظريات فرويد الذى اعترف صراحة أنها قائمة على الملاحظة ٠ ذلك لأن فرويد لم يضمن نظريته عن الميتاسيكولوجيا الشىء الكثير فضلا عن أنه لم يمل من تحذيره للقراء من أن « هذه الأفكار ليست هى الأساس لعلم يرتكز عليه كل ما سواه : انها على العكس ليست سوى ملاحظة ٠ انها ليست حجر الأساس بل هى مخطط عام للبناء فى مجمله ويمكن ابدالها ونبذها دون أن يمثل ذلك خطرا يهدد البناء » × وسواء أكان الأمر على هذا النحو أم غيره فاننا لن نكون فى وضع يسمح لنا باصدار حكم نهائى الا فى خاتمة هذا الكتاب ٠

× فرويد « الأبحاث الكاملة » ـ مجلد ٤ ـ ص ٣٤ ٠

والمحك النهائي والأخير لنظريات فرويد العاملة يتمثل في مقابلتها بنظريات أخرى أكثر علمية وبساطة وفعالية · ونعنى بهذه النظريات تلك التي استخلصها فرويد من ممارسته للتحليل النفسي وهو يطبق تكنيك تفسير الأحلام والتداعي الطليق والطرح على ظواهر مثل النوم والتنويم والايحاء التنويمي والنسيان وفلتات اللسان وحالات العصاب والذهان · فكل هذه الظواهر ظلت مستعصية على أى تفسير علمى واف من جانب علم النفس والطب العقلي وفسيولوجيا المخ وعلم الفسيولوجيا المرضى · لقد أخفقت كل هذه العلوم اذ لم تقدم لفرويد أو لغيره اجابات شافية لما طرحوه من قضايا مشروعة · ومن ثم اضطر فرويد الى أن يستخلص لنفسه اجاباته ورأى فيها الكثيرون من أهل الاختصاص وغيرهم اجابات علمية شافية ·

ولهذا فان المحك الحقيقى لنهج فرويد فى تناوله للنشاط العقلي يكمن فى قدرته على تقديم تفسير علمى واف للظواهر التى أسلفنا ذكرها · ولهذا سنواصل ما بدأناه من مقابلة بين نظريات فرويد ونظريات بافلوف عن التنويم والايحاء أثناء التنويم والنوم والأحلام ·

الفصل السادس

النوم والأحلام والتنويم

ربما كان أهم موضوعات المقارنة بين بافلوف وفرويد وأكثرها اثارة هي موضوعات التنويم والايحاء أثناء التنويم والنوم والأحلام · فقد التقى النهجان هنا في تناولهما للعقل البشرى وكان التقاء حاسما في مواضع كثيرة · ويرجع ذلك لما أولاه فرويد من أهمية كبرى لهذه الموضوعات وبخاصة الأحلام وتفسيرها · ولا ريب في أن عقد مقارنة بين نظريات فرويد ونظريات بافلوف عن النوم والأحلام والتنويم والايحاء أثناء التنويم سيساعدنا على استخلاص نتائج هامة فيما يتعلق بالقسمة الأساسية للتحليل النفسى عند فرويد · وسوف نتناول هنا نظريات كل منهما الواحد بعد الآخر ·

نظرية فرويد عن التنويم والايحاء أثناء التنويم والنوم والأحلام

سوف نعرض هنا تحليل فرويد لأربع ظواهر خاصة : التنويم والايحاء التنويمى والنوم والأحلام · ونذكر القارىء أن فرويد اتخذ من هذه الظواهر شاهدا على وجود النظام اللاشعورى للجهاز العقلى ·

١ ـ نظرية فرويد عن التنويم والايحاء التنويمى :

يحكى لنا فرويد تجربة بسيطة عن الايحاء التنويمى ، وتصور لنا هذه التجربة عمل النظامين الراقيين للجهاز العقلى ونعنى بهما الشعور والقبشعور · والتجربة هي شخص فى حالة تنويم أمره المنوم ، وهو لا يزال تحت سيطرته ، القيام بعمل ما فى لحظة محددة بعد ايقاظه ولنفترض بعد نصف ساعة · استيقظ صاحبنا وبدا أنه فى كامل وعيه عاديا تماما ولم يتذكر شيئا عن حالة التنويم

ولكنه قبل اللحظة المحددة ثار في ذهنه بغتة دافع يدفعه الى عمل ما أمر به ، وفعله عن وعي دون ان يعرف لماذا ٠

ويذهب فرويد في تحليله لهذه التجربة الى أن الأمر كان كامنا في لاشعور الشخص وهو في حالة التنويم وما أن استيقظ وحانت اللحظة الموقوتة حتى اخترق الأمر حاجز الرقابة في القبشعور ونفذ الى الشعور ٠ وما أن نفذ الأمر الى منطقة الشعور حتى أصبح موضوع انتباه وترجم الى نشاط حركي ٠ ولكن المنبه الحقيقي كان في رأى فرويد هو الأمر التسلطي الذي أملاه المنوم وان ظل لا شعوريا الا أنه كان فعالا قويا - أى أنه ظل محتفظا بشحنته من الطاقة النفسية داخل القبشعور وكانت هذه الشحنة هي العلة المباشرة لدخول فكرة الفعل الى الشعور وترجمتها الى تفريغ حركي للشحنة ٠ وأدى النشاط الحركي الى تبديد شحنة الطاقة النفسية للأمر اللاشعوري وبهذا انتفى وجوده بعد أن وضع خاتمة للايحاء التنويمي في التجربة ٠

على هذا النحو يصف فرويد ويفسر أبسط أنواع الايحاء التنويمي ٠ ويفترض هنا أن فكرة لا شعورية ، الا أنها فعالة نشطة ، هي علة الظاهرة ٠ اذ يقول « ان فكرة السلوك التي هي موضوع الأمر أثناء التنويم لم تصبح فقط موضوعا للشعور في لحظة بعينها بل أصبحت أيضا الوجه الأكثر اثارة المتمثل في أن هذه الفكرة نمت لتكون فكرة فعالة : انها ترجمت الى سلوك فور ادراك الشعور لوجودها ٠ ان المنبه الحقيقي للسلوك هو أمر الطبيب ومن العسير علينا أيضا أن نسلم بأن الفكرة المتمثلة في أمر الطبيب أصبحت شيئا فعالا أيضا ٠ الا أن هذه الفكرة الأخيرة لم تكشف عن نفسها للشعور ، على نحو ما حدث بالنسبة لنتاجها وهو فكرة السلوك ، اذ ظلت لاشعورية وهكذا كانت فعالة ولاشعورية في آن واحد ٠ » × اذن فان تلك الفكرة يمكن أن تكون فعالة ولا شعورية في وقت واحد ، وهذا هو ما أراد فرويد أن يبرهن عليه ليثبت وجود نظام اللاشعور في الجهاز العقلي ٠ وتحليل التجربة يتضمن وجود النظام اللاشعوري فقط ٠ ونظرية فرويد عن ميكانيزم التنويم تتضمن أيضا نظام اللاشعور بمعناه المحدد ٠

ففي نظريته عن كيفية حدوث التنويم لا يفترض فرويد فقط أن اللاشعور قائم وموجود بل يفترض أيضا أنه يتألف في جانب منه من ذكريات قبلية نظرية مكبوتة ورثها الانسان منذ العصور الأولى ٠ هذا الارث الفطري القديم موجود في اللاشعور ويمارس نفوذه الحاسم في دفع الانسان الى السلوك ٠ ويذهب فرويد الى أن الذكرى القبلية اللاشعورية التي تفسر التنويم هي الصورة المكبوتة عن أب « الجماعة البدائية » الذي لا يملك المرء الا أن يخضع لمشيئته ٠ ان هذه الصورة اللاشعورية هي التي تكمن خلف علاقة الخضوع التي تربط الطفل بأبيه - والوسيط بمنومه ٠

ولكن لندع فرويد يعرض لنا بكلماته هو نظريته عن ميكانيزم التنويم ٠ يقول « لنذكر أن التنويم يتضمن شيئا غريبا وايجابيا ٠ بيد أن الخاصية المميزة

× فرويد : « الأبحاث الكاملة » - مجلد ٤ - ص ٢٣ - ٢٤ ٠

لهذه الغرابة نوحى بان ثمة شيئا قديما ومألوفا طواه الكبت . اذن لنحاول معا أن نرى كيف يحدث التنويم . يؤكد لنا المنوم أنه يتمتع بقوة غريبة مبهمة تسلب الوسيط ارادته أو ، وهو نفس الشيء ، أن الوسيط يعتقد فيه ذلك . هــذه القوة المبهمة (والتى لازال العامة يصفونها بالمغناطيسية الحيوانية) لابد وأنها هى نفس القوة التى كانت الشــعوب البدائية ترى فيهــا مصدرا للمحرمات (التابو) وهى نفسها التى تصدر عن الملوك وشيوخ القبائل وتهدد كل من يقترب منها (القوة الغريبة) بالخطر . اذن فالمنوم يتمتع بهذه القوة حسب الرأى السائد ولكن كيف يكشف عنها ؟ وسيلته الى ذلك أن يطلب من الوسيط أن ينظر اليه وينبت عينيه فى عينيه . والحقيقة أن نظرته هذه هى التى تتضمن جل منهجه فى التنويم بيد أنها على وجه الدقة والتحديد نظرة شيخ القبيلة التى لم يكن يقوى الانسان البدائى على تحملها ويرى فيها مصدرا للخطر والتى أصبحت فيما بعد نظرة الآلهة الى البشر الفانين .. ويوقظ المنوم فى الوسيط باجراءاته الخاصة جزءا من ميراثه القديم الذى جعله يذعن لأبويه وبعث فيه من جديد خبرة فردية عن علاقته بأبيه ، ومن ثم فان ما أيقظه فى نفسه هو الفكرة عن شخصية طاغية سامية لا يجدى معها سوى اتجاه سلبى مازوخى والتى لا يملك الفرد ازاءها الا الاذعان والخضوع ــ هذا وان بدا لنا أنهما حينما يكونان وحدهما « وينظر الى عينيه » ليس الا عملا فيه مخاطرة ويعتمد على المصادفة . » ×

وهكذا فان ميكانيزم التنويم عند فرويد هو عملية طرح لا شــعورية على شخص المنــوم للاتجاهات الفطرية اللاشــعورية المكبوتة تجــاه أرباب القبائل وشيوخها وآبائهـــا . والاتجاهات المطروحة هى اتجاهات الخطر والمازوخية والاذعان . ان فعل النظر الى عينى المنوم يوقظ الذكريات اللاشعورية المكبوتة الخاصة بالقبيلة والطفولة ، كما يوقظ القوى النفسية المشحونة التى تخترق رقابة القبشعور لتصبح فى القبشعور سلطة مهيمنة فى الموقف التنويمى وان ظلت لاشعورية وهذه الذكرى اللاشعورية هى التى تعير شحنتها العارمة من الطاقة النفسية الى أمر المنوم ومن ثم يكون تحققها أمرا لا مناص منه .

ويرى فرويد تماثلا بين النوم والتنويم . فالمنوم عادة يعطى عند بدء التنويم أمرا بالنوم . وهو حين يفعل ذلك فانه ، فى رأى فرويد ، يضع نفسه موضــع الأب . واذا كان يلاطف الوسيط لينام فانه يضع نفسه موضع الأم . ولكنه فى كلتا الحالتين يضع نفسه موضع أبوى الوسيط بكل ارثهما المشحون من الذكريات القبلية اللاشعورية عن شيوخ القبائل وأربابها . وهكذا فان الأمر بالنــوم أو الملاطفة يجدان تدعيما وتعزيزاً من اللاشعور .

ويذهب فرويد الى أن أمر النوم أثناء بدء التنويم يعنى الانصراف تماما عن العالم الخارجى وتركيز الاهتمام على شخص المنوم . « وصرف الاهتمام عن العالم

× فرويد « سيكولوجيا الجماعة وتحليل الأنا » ص ٩٥ ــ ٩٩ .

الخارجي » هو فى رأى فرويد الشرط الأساسى للنوم • ويقول « ان الخاصية النفسية للنوم تكمن في عملية صرف الاهتمام عن العالم الخارجي كما أن الرابطة بين النوم وحالة التنويم ترتكز على هذا الأساس » • ×

٢ ـ نظرية فرويد عن النوم والأحلام :

يشير فرويد الى أن البشر مع كل مساء يجردون أنفسهم من ملابسهم ويطرحونها جانبا كما ينزعون أشياء أخرى يستخدمونها بدائل ومكملات لأعضائهم الجسدية ـ مثل النظارات والشعر المستعار والأسنان الزائفة •• الخ • ويقول « وعلاوة على ذلك فانهم حين يتهيأون للنوم فانهم يقدمون على عمل آخر مماثل لهذا تماما حين يعرون عقولهم ـ فيطرحون جانبا جل مكتسباتهم العقلية ، وهكذا يقتربون بدنيا وعقليا للوضع الذى كانوا عليه مع بدء الحياة • » ويذهب فرويد الى أن النوم بدنيا نكوص الى مرحلة مبكرة وعود قدر المستطاع الى مرحلة ما قبل الميلاد ، وهى المرحلة الجنينية داخل الرحم • ويعتبر النوم سيكولوجيا ، نكوصا الى مراحل أولية وبخاصة المرحلة التى يصفها بالنرجسية البدائية والاشباع الهلاسى للرغبات • أما من حيث أنه نكوص الى مرحلة النرجسية البدائية فان النوم يعنى سيكولوجيا أن المرء قد صرف كل اهتمامه عن العالم الخارجي وركزه حول نفسه • ولكن النرجسية البدائية تتضمن أيضا فى رأى فرويد ، عشقا جنسيا أو ليبيديا للذات ـ أى يعامل المرء ذاته كموضوع جنسى •

ويرى فرويد فى النرجسية ، كما سيتضح لنا فى الفصل التالى ، مرحلة من مراحل التطور الباكر لشخصية الطفل فالانسان الراشد ينكص فى نومه الى نرجسيته الطفلية قدر المستطاع • ويسمى هذه « نرجسية النوم » وهى عنده أول خاصية من بين خاصيتين عقليتين أساسيتين للنوم • ان نرجسية النوم هى الأنانية بمحتواها الليبيدى أو الجنسى • ويقول فرويد « يمكن النظر الى النرجسية باعتبارها المكمل الليبيدى للأنانية » ، اذ تنصرف الأنا كليا أثناء النوم عن العالم الى داخل ذاتها فى شكل عشق ذاتى جنسى •

كيف عرف فرويد هذا ؟ يقول « ان دراسة الأحلام هى التى علمتنا بطبيعة الحال كل ما نعرفه عن الخصائص العقلية للنوم » • ولهذا فان الحالم هو دائما الشخصية الرئيسية على المسرح فى الحلم ، كما أن مشاهد الحلم تكون جلها دائما ذات محتوى جنسى ـ ومن هنا جاءت « نرجسية النوم » • × ×

× المرجع السابق ـ ص ٩٨ •

× × فرويد ـ « الأبحاث الكاملة » مجلد ٤ ص ١٣٧ ـ ١٣٨ •

والخاصية العقلية الثانية المميزة للنوم هى الاشباع الهــلاسى للرغبات واكتشفها فرويد ايضا من خلال تفسيره للأحلام • فلابد بعد أن ينصرف اهتمامها عن العالم الخارجي ويتركز فى عشق ليبيدى للذات (النرجسية البدائية) تتضخم كل المنبهات الغريزية الصادرة عن أعضاء الجسد المختلفة حتى تكاد تفسد النوم • اذ تثير المنبهات الغريزية الممثلات الغريزية المكبوتة فى اللاشعور ومن ثم تضاعف من طاقة شحنتها • وهذه الشحنات الغريزية المكبوتة التى ضوعفت ، وبخاصة الشحنات الجنسية أو الليبيدية ، هى التى تهدد بفساد النوم حين تحاول أن تشق طريقها عنوة متجاوزة الرقيب الى القبشعور ومنه الى الشعور الذى ســيوقظ بدوره النائم • وحالة النوم من شأنها أن تؤدى الى حدوث أمور كثيرة ولكنها ليست قاصرة على زيادة ومضاعفة الأفكار اللاشعورية المكبوتة بل أيضا خفض يقظة الرقيب • ويتحد هذان العاملان وينشأ عنهما ما يهدد النوم •

بيد أن الجهاز العقلى يملك ما يدافع به عن نفسه ضد الضغط اللاشعورى الباطنى لافساد النوم ، وميكانيزم الدفاع هو ثانى الخصائص العقلية الأساسية للنوم ونعنى به الاشباع الهلاسى للرغبات • ويطلق فرويد مصطلح الاسقاط على ميكانيزم الدفاع الخاص بالاشباع الهلاسى للرغبات • والاسقاط عنده هو وسيلة خاصة للتعامل مع الاثارات الباطنية اللاشعورية التى تتميز بتفوقها على الرقيب من حيث قوتها مما يجعلها مثار ألم أو ضيق شديد اذا ما نجحت فى الوصول الى القبشعور والشعور • وهذه الوسيلة الخاصة فى التعامل معها تتلخص فى « معالجتها وكأنها واردة من الخارج وليست صادرة من الداخل » • ×

والرغبة الدافعة اللاشعورية التى تهدد النوم تتحول فى الحلم عن طريق الاسقاط الى شبه رغبة دافعة غريزية أشبعت عن طريق تفريغ حركى للشحنة • يقول فرويد « يشير الحلم الى أن ثمة شيئا كان يجرى وينزع الى افساد النوم ، وهذا ييسر لنا فهم السبيل الى دفع محاولة الافساد • والحصيلة النهائية هى أن النائم حلم وأصبح قادرا على مواصلة النوم ، أما المطلب الباطنى الذى شاء أن يســتغرقه فقد أبدل بخبرة خارجية ، أو بالمطلب الذى نجح فى تفريــغ شحنته • فالنوم اذن اســقاط ، بالاضــــافة الى أمور أخرى ، أى اســـتخراج Externalization لعملية باطنية » • × ×

اذن الحلم وقاية للنوم وذلك بأظهار رغبات الدوافع اللاشعورية بمظهر الاشباع ومن ثم يمكن للنوم أن يتصل • وربما كان أبسط مثال رواه فرويد عن الأحــلام هو الأحــلام الناتجة عن امتلاء المثانة • فالرغبة الدافعية للتبول النابعة عن هذا العضو الجسدى تهدد بافساد النوم • وهنا يمكن الابقاء على النوم عن طريق حلم يسقط هذه الاثارة الباطنية وكأنها عمل خارجى تحقق فيه التبول ، وبذلك يمكن للنائم أن يواصل نومه •

× فرويد : « ما وراء مبدأ اللذة » ص ٣٥ •

× × فرويد : « الأبحاث الكاملة » — مجلد ٤ — ص ١٣٩ •

ويرى فرويد أن الاحلام لها وظيفه أخرى عقلية بالاضافة الى الوظيفة البدنية المتمثلة فى المحافظة على النوم · والوظيفة العقلية للحلم هي تهيئة أحد الطرق الملتوية التى تسمح للدوافع اللاشعورية المكبوتة بالدخول الى القبشعور والشعور فى صورة مقنعة · ويتضمن ميكانيزم هذه الوظيفة العقلية للحلم ما سماه فرويد مادة ظاهر الحلم والمحتوى الكامن للحلم · ومادة ظاهر الحلم هى القناع الذى يخفى على الرقيب المحتوى الكامن للحلم · فالقبشور يكسو الرغبه الدافعية للاشعور (المحتوى الكامن للحلم) بكساء تنكرى قوامه تذكارات قبشعورية عن أحداث اليوم السابق (مادة ظاهر الحلم) · والحالم لا يذكر عند يقظته الا مادة ظاهر الحلم · ولكن تفسير الحلم التزاما بمنهج التحليل النفسى هو الكفيل بكشف معنى الحلم أى محتواه الكامن وذلك عن طريق ترجمة الرموز من خلال التداعي الطليق · فالرغبات الدافعية اللاشعورية تتخفى وراء رؤى الحلم الحديثة الحية المتمثلة فى الأحداث اليومية العادية ·

ويعرض فرويد للظواهر العامة المعروفة عن الحلم ـ الرؤى البصرية وقدرة الأفكار اللفظية ، والافتقار الى المنطق والاتساق ثم اللامعقولية ـ ويفسرها فرويد فى ضوء مفاهيمه العامة عن اللاشعور أولا ثم القبشعور ثانيا · ولا محل للسؤال هنا عن صحة ظواهر الحلم التى يحكيها ، وانما السؤال الحقيقى هو كيف نفسرها · أما فرويد فانه يفسرها بالاستناد الى قاعدة عقلية خالصة فى ضوء تصوراته عن النظم الثلاثة للجهاز العقلى عنده ·

نظرية بافلوف عن النوم
والأحلام والتنويم والايحاء التنويمى

خلص بافلوف من دراساته التجريبية على الحيوانات ودراساته فى عيادة الطب العقلى الى أن النوم كف منتشر لم تعقه بصورة فعالة العملية المعارضة له وهي الاثارة · وليس كل كف نوم كامل ، ولكن كل النوم كف منتشر غير معاق · يقول بافلوف : « الكف نوم جزئى محدود ومتمركز فى نقطة محددة ومحصور داخل حدود معينة بفعل العملية المعارضة ونعنى بها الاثارة · أما النوم فعلى العكس من ذلك فهو كف امتد فوق قطاع كبير من المخ ، فوق كل النصفين الكرويين للدماغ بل وربما المخ الأوسط الذى يليه ····· فاما أن ينتشر الكف فيحدث النوم أو أن ينحصر الكف ويتلاشى النوم · » ×

وثمة مجموعتان من المنبهات هى علة انتشار الكف الخاص بالنوم : المنبهات الباطنية الناتجة عن التعب وكل المنبهات الخارجية التى تتكرر على نحو رتيب أو ما يقابل ذلك من نقص رتيب للمنبهات · فنحن نأوى الى الفراش عندما نعجز عن مقاومة المنبهات الباطنية للتعب · ولكن حتى فى مثل هذه الحالة يمكن اعاقة الكف النومى بسبب ما تحدثه منبهات الفكر المختلفة من اثارة ، سواء فى شكل هموم أو مشكلات ···· الخ · ومن التقاليد الشائعة أن المنبهات الرتيبة مثل القول السائر « عد أغنامك » تسبب النوم · فهذا من شأنه فى حالات كثيرة أن يحدث أثرا مضادا للاثارة مما يسمح بانتشار الكف

× بافلوف : « محاضرات عن الأفعال المنعكسة الشرطية » ص ٣١١

وانتغلب على كل ما يعوقه · ولكن ثمة حالات لا تجدى معها منبهات التعب أو المنبهات الرتيبة وتكون النتيجة « ليلة مسهدة » ·

والنوم له وظيفة تكيفية هى التغلب على التعب (وهو حالة أيضية Metabolic تطرأ على الخلايا العصبية للمخ وبخاصة خلايا النصفين الكرويين مما يؤدى الى خفض القابلية للاثارة) وذلك عن طريق الراحة وما يتبع ذلك من تجديد لنشاط الخلايا (تجديد حالة الأيض فى هذه الخلايا وتنشيطها) · ويقرر بافلوف أن ليس ثمة مركز خاص بالنوم فى المخ ذلك لأن « الكف والنوم واقع يطرأ على كل خلية ومن ثم فليس ثمة حاجة لوجود مجموعة خاصة من الخلايا لهذا الغرض » · ×

ان النظم الثلاثة للنشاط العصبى الراقى عند كل منا تظل طوال ثلثى الاربع والعشرين ساعة فى حالة تغير مستمر وتوازن دينامى بين عمليتى الاثارة والكف ــ تحدث الاثارات وتنتشر الى أن يعوقها الكف فتتمركز · وتتكون ارتباطات وتتحلل وبهذا ننجز أنشطتنا الهادفة التى تملأ علينا فكرنا ونحقق ما ننشده من وظائف حيوية واستجمام · أما خلال الثلث الباقى من اليوم ، وهو الليل عادة ، يتحطم ذلك التوازن ويطغى الكف بدرجة أو بأخرى · ففى هذه الساعات الثمانى تكون للكف المنتشر السيادة المطلقة على النشاط العصبى الراقى ، وهذا هو الشرط لبدء حياة جديدة نشطة خلال الست عشرة ساعة التاليه حيث يتحقق التوازن الدينامى الباطنى للفرد والتوازن الدينامى الخارجى مع البيئة · ويتوقف كل هذا على الأداء الوظيفى الصحى للنظم الثلاثة للنشاط العصبى الراقى عند كل منا · والنوم هو الضمان الأول والأساسى للصحة العصبية ، ومن ثم فان أرقى مظاهر حياة الانسان تعتمد بكل معنى الكلمة على حالة الخمود التى تطرأ على الخلايا العصبية للمخ وبخاصة خلايا النصفين الكرويين ·

والنوم باعتباره كفا منتشرا لا يحدث دفعة واحدة وانما تدريجيا · فالنوم البشرى كف ينشأ بداية ، كما يقول بافلوف ، فى أرقى أجزاء النصفين الكرويين للمخ ثم يبدأ فى الانتشار تدريجيا فوق النصفين الكرويين والى مادونهما فى المستويات الأدنى من المخ · وأرقى قطاعات لحاء المخ هى المسئولة عن توجيه النشاط اللغوى أى أنها هى ركيزة نظام الكلام (أو النظام الاشارى الثانى) ولهذا فان النظام الخاص بالكلام هو أول ما ينتقل جزئيا الى حالة التوقف عن النشاط أو الكف المنتشر أو النوم · وعندما يحدث هذا نغفو وننام يتحطم على الفور التوازن الدينامى بين النظم الثلاثة للنشاط العصبى الراقى · ويحدث نتيجة لهذا تفكك بدرجة أو بأخرى للنظم الثلاثة أى يتعطل الأداء الوظيفى للأفعال المنعكسة المتلاحمة ·

واذا كان تلاحم الأفعال المنعكسة يخضع لتنظيم وتوجيه نظام الكلام فان الانسحاب الجزئى لهذا النظام (من خلال الكف) من شأنه أن يترك النظام الانعكاسى الحسى والنظام الانعكاسى غير الشرطى فى حالة تفكك وتخلخل بدرجة أو بأخرى · ولهذا فانه خلال فترة الانتقال القصيرة نسبيا من الصحو الى السبات

× بافلوف : « المؤلفات المختارة » ص ٣٨٦ ·

تأتي فترة يعمل فيها النظامان الأدنيان بعيدا عن السيطرة والتوجيه الكاملين للنظام الأدنى · ويقع الحلم خلال هذه الفترة وخلال الفترة الاخرى المناظرة لها وهي فترة الاستيقاظ · وهنا يذهب بافلوف الى أن الأحلام نتاج لحالة تفكك النظم الثلاثة للنشاط العصبى الراقي والمميزة لفترتى الانتقال من الاغفاءة الى السبات ومن السبات الى اليقظة ·

ومن ثم فان القسمات الأساسية للأحلام - الرؤى البصرية الحية والطابع العمائى اللامنطقى - هى نتيجة مباشرة لكف نظام الكلام وما يلازم هــذا من « تحرر » النظامين الأدنيين ، وبخاصة النظام الحسى ، من تنظيم وتوجيه النظام الاشارى للكلام · وتظهر فى الأحلام آثار الذكريات القديمة بكل أنواعها كما تنشأ ارتباطات غريبة لا تحدث فى حالة اليقظة فى ظل رقابة وتوجيه النظام الأرقى · ومن هنا تنشأ عناصر الحلم بكل ما فيها من مظاهر مغرية أو مفزعة ·

وهكذا فان الأحلام أولا وأساسا نتاج تفكك وتشــوش الأداء الوظيفى للنصفين الكرويين للدماغ وهى بصورتها هذه ليست قسمات مميزة للعمليات العصبية التى يتركز عليها النشاط العقلى السوى بقدر ما هى ظواهر فسيولوجية عابرة تتميز بها مرحلة معينة هى مرحلة الانتقال الى النوم والى اليقظة · بيد أن هذا لا يعنى على سبيل المثال استحالة التوصل الى فكرة جديدة عند التأمل فى مادة الحلم · فقد يحدث اقتران بين رؤى حســـية معينة تتولد عنه فكرة جديدة لا عهد للانسان بها ، بيد أن هذا أمر عرضى يعتمد أساسا على خبرات الماضى وبخاصة الماضى القريب ·

ظاهرة أخرى يتميز بها النوم وترتبط بالايحاء التنويمى وهى ما يسميها بافلوف « خفير الليل » اذ بعد أن يمتد الكف المنتشر ويغطى النصفين الكرويين للدماغ ويحل النوم تظل بعض المراكز فى النصفين الكرويين نشــطة والتى يطلق عليها اسم « نقاط الحراسة » · وتظل هذه المراكز المتفرقة يقظة لمنبهات بذاتها ووظيفتها وقاية الجسم أو النسل أو أى أمر آخر من الأمور التى يقتضيها عمل المرء ·

وتنشأ نقاط الحراسة هذه نتيجة التدرب أو الارتباط الشرطى - مثال ذلك : الحيوان النائم حين يستيقظ فور احساسه بأوهى اشارة تدل على وجود عدو أو أى شيء غريب ، أو حارس المنارة النائم حين يستيقظ فور حدوث خلل فى الجهاز ، أو الأم حين تهب من نومها مع أوهى صوت يند عن طفلها على الرغم من أن أصواتا عالية لا توقظها · معنى هذا أن « خفير الليل » هو « مركز » دقيق يظل على علاقة بمنبهات محددة دون غيرها ·

وترتبط ظاهرة « خفير الليل » كما أسلفنا بالايحاء التنويمى · اذ أن التنويم عند بافلوف نوع من النوم أو الكف المنتشر الذى يمتد تدريجيا من مركز أساسى فى لحاء المخ · هذا المركز الأساسى هو منطقة استقبال الحركات والنغمات الرتيبة التى تصدر عن المنوم · ويظل هذا المركز الرئيسى يقظا أثناء انتشار الكف ويكون بمثابة مركز نشط على علاقة ثابتة بالمنوم · وهذه العلاقة تعنى هنا قدرة الوسيط على أن يستقبل على نحو انتقائى كلمات المنوم وحده فقط دون الاحتفاظ بأى صلة تربطه بمن سواه أو ما سواه فى العالم الخارجى ·

ويطابق ميكانيزم هذه العملية ميكانيزم « خفير الليل » · فنظرا لضعف العملية الاثارية فى اللحاء بأكمله بسبب النوم الجزئى ، أى التنويم ، فان كل الاثارات التى يمكن للحاء المنوم أن يستقبلها تتمركز حول المنبه الأوحد (الايحاء أو الأمر من قبل المنوم) الذى ينبه المركز اللحائى اليقظ ، أما المنبهات الأخرى فتظل خاملة · وبهذا فان المنوم حين يلقى أمـره لن يجد الأمـر ، فمنبه ، أى مراكز أخرى تعترضه · ومن ثم لا يملك الوسيط الا أن يصدع للأمر ويلزم بما يوحى اليه به ، ذلك لأنه بعد أن يستيقظ يجد نفسه عاجزا ازاء مركز الاثارة المنعزل بسبب انفصاله عن كل المراكز الأخرى · ×

اذن الايحاء التنويمي عند بافلوف كعملية فسيولوجية مثله مثل الحلم ليس ظاهرة عقلية « سوية » وانما خاصية يتميز بها النشاط العصبى الراقى فى حالة تفككه ·

مقابلة وتقييم

اذا كانت الأحلام هى أكثر الأمور حسما وأخطرها عند فرويد فاننا سنبدأ تقييمنا بالمقابلة بين نظريتى الأحلام ·

يعيد فرويد فى كتابه « تفسير الأحلام » عرض الكثير من النظريات مسلما بكل عناصرها الجوهرية عدا اثنين · اذ يقول « لقد أكرهنا الى أن نستثنى فى حسم رأيين فقط من بين الآراء التى عرضناها ونعنى بهما القول بأن الحلم عملية لا معنى لها وأنه عملية بدنية · »

ولم يكن بافلوف على الاطلاق هو أول من تناول الأحلام باعتبارها أساسا عمليات « بدنية » أو فسيولوجية · وحقيقة الأمر أن الفسيولوجيا والطب والعلم بوجه عام ظلت كلها تنظر الى الأحلام هذه النظرة وعلى مدى قرون من الزمان · ويبدى فرويد نفسه اشارة تفيد أن النظرية الفسيولوجية البدنية كانت النظرية المفضـــلة لدى المؤلفين فى مجال الطب ولدى العلماء بوجه عام · اذ أن أكثر النظريات الفسيولوجية رأت فى الأحلام ظواهر مميزة للانتقال من النوم الى الصحو والعكس · أما فضل بافلوف هنا فهو أنه أحكم صوغ النظرية فى ضوء تفكك النظامين الاشاريين الحسى والكلام خلال طورى الانتقال من النوم الى اليقظة ومن اليقظة الى النوم · ونمثل مســـاهمة بافلوف خطوة جبارة تجاوز بهـــا النظريات الفسيولوجية القديمة التى ظلت قاصرة ترد الأحلام الى عمل مجموعات منعزلة من خلايا المخ النشطة وتحوطها خلايا أخرى نائمة · والحقيقة أن كل النظريات الفسيولوجية السابقة كانت نتاج تخمين علمي أكثر منها كشفا علميا للنشاط العصبى الراقى وهذا هو ما دعا فرويد الى أن يسقطها من حســـابه ويشرع هو فى بناء نظرية عقلية خالصة · ومرة أخرى نلحظ هنا أن قصـــور فسيولوجيا النصفين الكرويين للدماغ هو الذى مهد الطريق أمام تأملات فرويد النظرية ·

× بافلوف : « المؤلفات المختارة » ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨ ·

ولقد استطاعت نظرية بافلوف عن الأحلام ، وهي جزء مكمل لدراساته التجريبية والعيادية ، أن تخطو خطوات واسعة على الطريق نحو سد الثغرة التي تعاني منها معارفنا والتي قادت فرويد الى نظريته التأملية . وبات واضحا الطابع التأملي النظرى لنظرية فرويد والتي ذهب فيها الى أن الرغبات الدافعية اللاشعورية المكبوتة تتحدى رغبة الأنا في استرجاع كل الشحنات من العالم الخارجي والباطني ، ثم تتحين فرصة وهن الرقابة ساعة النوم لتكشف عن نفسها في شكل حلم متخفية وراء أحداث اليوم القريبة القائمة في القبشعور . ولكنها كانت على الرغم من ذلك محاولة بارعة من جانب فرويد لسد ثغرة قائمة في معارضنا . ولكن بعد أن تولى العلم سد هذه الثغرة أصبح التأمل النظرى غير ذي موضوع . وما يصـدق على نظرية الأحلام عند فرويد يصـدق بالمثل على نظرياته عن النوم والتنويم والايحاء التنويمي . فنرجسية النوم وتركـز الشحنات النفسـية في عشق الذات الليبيدى للأنا ليست دون نظريته عن الأحلام تعقدا واغراقا في التأمل النظرى ولا تقوم بديلا لنظرية علمية . وكذلك الحال بالنسبة لما ذهب اليه في نظريته عن التنويم والايحاء التنويمي وقوله بطرح التذكارات الوراثية اللاشعورية عن شيوخ القبائل والمخاوف الطفلية من الأب ـ المكبوتة على المنوم وكيف أنها تمنحه قدرة للتسلط على الوسيط والتحكم في سلوكه بعد يقظته من التنويم . ويبدو لنا هذا واضحا حين نقارن آراء فرويد بما ذهب اليه بافلوف عن التنويم كنوم جزئي ، وتفسيره للايحاء التنويمي في ضـوء ميكانيزم مراكز الحراسـة في اللحـاء . ومن ثم يحق لنا القول بأن مفهوم فرويد عن النشاط العقلي اللاشعورى هو بديل قاصر لفسيولوجيـا النصفين الكرويين للدماغ أو علم النشاط العصبي الراقي .

الفصل السابع

الأصول التاريخية لنظريات بافلوف وفرويد فى علم النفس

لعل العنصر المشرق فى المقابلة التقييمية بين نهجي فرويد وبافلوف فى علم النفس هو المقارنة بين الأصول التاريخية لنظريات كل منهما • ومثل هذه المقارنة هى مقياس للفارق بين التحليل النفسى وبين علم نفس قائم على علم النشاط العصبى الراقى • وسوف نبدأ بفرويد ونثنى ببافلوف ونحن نعرض نهج كل منهما في تناول مشكلات علم النفس منظورا اليه من زاوية التسلسل التاريخى لفكر هذا وذاك •

نهج فرويد فى علم النفس

حاول فرويد حل المشكلات الجوهرية فى علم النفس على أساس سيكولوجى بحت واستند فى محاولته هذه الى سبعة اتجاهات على الأقل كانت تسود فكر القرن التاسع عشر : الايحاء التنويمى ورمزية الأحلام وطرق تأويلها وتفسيرها ، وعلم الأساطير ، والاعتقاد بوجود ميراث عقلى قديم فطرى ، وعلم الجنس ، وسيكولوجيا اللاشعور ، وأخيرا المذهب الارادى الحيوى وفلسفة اللاشعور • ولنبدأ الآن بمناقشة التسلسل التاريخى لنظريات فرويد •

شدت هذه الاتجاهات الفكرية انتباه فرويد واستحوذت على اهتمامه حين تبين له أن الجانب الأكبر من الحياة العقلية للانسان يقع فيما وراء حدود الادراك الشعورى للذات • ونظرا لعدم توافر قدر كاف من المعلومات الفسيولوجية عن النصفين الكرويين للدماغ التى تعين على تفسير هذا النشاط اللاشعورى فقد وجد نفسه مكرها على البحث عن الاجابات حيثما يتسنى له ذلك •

وبينما كان طالبا يدرس الطب شهد معرضا عاما للتنويم والايحاء التنويمى أقامه هانزن « المنوم المغناطيسى » الأشهر فى القرن التاسع عشر ، وخلف المعرض أثرا عميقا فى نفس فرويد · اذ حدث أن أحد الوسطاء الذين نومهم هانزن مغناطيسيا شحب وجهه شحوب الموت عند بدء التنويم وظل هكذا طوال فترة التنويم · واقتنع فرويد اقتناعا جازما بأصالة ظاهرة التنويم على الرغم مما كان شائعا بين أساتذة الطب العقلى من ان التنويم والايحاء التنويمى خداع بل وتحايل خطير ، وهو رأى ظل سائدا حتى مطلع القرن العشرين · (×)

واطلع فرويد على الايحاء التنويمى على النحو الذى قدمه بيرنهايم وليبولت وآخرين ، ووجد فيما اطلع عليه دليلا على أن الذكريات اللاشعورية أمر موجود فعلا وأن النشاط العقلى البشرى ككل هو نشاط لا شعورى فى الجانب الأكبر منه أما الجانب الشعورى منه فلا يتعدى جزءا صغيرا ــ فهو يشبه الى حد ما جبال الثلج التى يختفى الجزء الأكبر منها تحت سطح مياه المحيط ·

ووجد فرويد فى الايحاء التنويمى برهانا شافيا على أهمية واتساع النشاط العقلى واللاشعورى بيد أنه لم يجد فيه ما يكشف له وبصورة وافية عن مقومات النشاط اللاشعورى · وحل فرويد هذه المشكلة على نحو يشبع رغبته وذلك باللجوء الى اتجاه فكرى مبهم كان ولا يزال مرفوضا من العلم ونعنى به تفسير الأحلام فى ضوء تأويل رموزها · وتيسر له هذا الاتجاه الفكرى من خلال اطلاعه على كتب الأحلام الشائعة وبخاصة نظريات عدد من الكتاب أمثال ك · أ · سكيرنر وب · راد ستوك و حـ · هـ · شوبرت وأرتميدورس · ويعترف فرويد فى كتابه « تفسير الأحلام » بدينه الكبير نحو كتاب أرتميدورس « الرمزية فى الأحلام » (١٨٨١) وكتاب شوبرت « رمزية الأحلام » (١٨١٤) وكتاب رادستوك « النوم والأحلام » (١٨٧٨) ويخص بالذكر كتاب سكيرنر « حياة الأحلام » (١٨٦١) · فكل هذه الأعمال كما قال فرويد « تنسب الى الأحلام قدرة عليا ، ونزوعا الى القيام بنشاطات نفسية ذات طبيعة خاصة قد لا نستطيع أن نمارسها على الاطلاق فى حالة الصحو أو أن نمارسها بصورة منقوصة » · ويرى هؤلاء أن نستعين بتأويل رموز الأحلام كوسيلة أساسية للكشف عن محتوى وطبيعة هذه النشاطات النفسية الخاصة · وأقنعت هذه الكتب فرويد بأمرين : أولا أن « ثمة نشاطا خياليا رامزا يظل هو القوة الأساسية فى كل حلم · » وثانيا أن على المرء أن يبحث جديا » عما اذا كانت أكثر هذه الرموز ليس لها معنى ثابتا دائما مثل علامات الاختزال » (× ×) ·

رأى فرويد فى مسألة رموز الأحلام ومعانيها النمطية مسألة حاسمة وشرع على الفور فى القيام بالأبحاث الضرورية فى هذا الشأن · وقادته هذه الأبحاث الى الفولكلور والأساطير والخرافات والحكم والأمثال والملح الشعبية السائدة · ولجأ الى علم الأساطير يلتمس منه العون وبخاصة الى مصادر بعينها مثل كتاب حـ · حـ · فريزر « الغصن الذهبى » وكتاب س · راينيخ « الشعائر والأساطير والأديان » ، وكتاب ف · ماكس ــ موللر «اسهامات لعلم الأساطير» ·

× فرويد : « دراسة عن حياتى » ·

× × فرويد : « تفسير الأحلام » ص ٩٢ ، ٩٦ ، ٣٣٣ ·

وخلص من دراساته هذه الى أن « الرمزية لاتتعلق بالاحلام على وجه الخصوص بل بالحياة اللاشعورية وبخاصة في شعور الشعب وانما نجدها في الفلكلور والأساطير والخرافات والحلم والامثال وطرائف الشعوب التي تطوروا مما هي عليه في الاحلام » (×) بيد أن هـــذا لم يكن اجابة على الســؤال الخاص بالمعانى الثابتة الراسخة للرموز وانما كان فقط توسيعا لمدى الرموز العقلية اللاشعورية الى ما وراء حدود الأحلام ٠

وأخيرا اهتدى الى ضالته في كتاب وصفي تأملي خالص عن علم النفس الاجتمـــاعى ونعنى به كتاب جوســتاف لوبون « ســيكولوجيا الجماهير » (١٨٩٥) ٠ (× ×) يقـــرر لوبون في كتابه ان ما يميز الناس كأفـــراد خاصية واحدة فقط تتمثل في بناء عقلي فوقي مكتسب مرتكز على بناء تحتي لا شعوري موروث وواحد لدى الناس جميعا ٠ وهذا البناء التحتي اللاشعوري موجود في صورة لا شعور سلالي او ميراث عقلي فطري قديم ينطوي على تذكارات قبلية ودوافع وحوافز وغرائز ٠ ويذهب لوبون الى ان هذا الميراث القديم الذي فطرنا عليه جميعا هو الذي يوجه أفكارنا وسلوكنا ويمدنا بحوافز خفية عميقة لكل أفكارنا ووجداناتنا قــولا وعمــلا ويقتبس فرويد الفقرة التالية من كتاب لوبون الصادر عام ١٨٩٥ اى قبل اكتشافه للتحليل النفسي بعام واحد : « تلعب الظواهر اللاشعورية دورا غلابا سواء في حياتنا العضوية أو في أعمالنا القائمة على العقل ٠ ان الحياة الشــعوريه للعقل ذات أهمية ضــئيلة بالقياس الى حياته اللاشعورية ٠٠٠٠٠ وأفعالنا الشعوريه هي نتاج أساسي لا شعوري نشأ في العقل بفعل مؤثرات وراثية في المحل الأول ٠ وقوام هذا الاساس عدد لا حصر له من الخصائص المشتركة التي يتوارثها جيل عن جيل وهي التي تؤلف الروح المميزة للسلالة ٠٠٠ والجانب الأكبر من أفعالنا اليومية هو نتاج حوافز خبيئة تخفى على الملاحظة » (× × ×) ٠ وهذا الميراث العقلي القديم الذي تتوارثه السلالة يكشف عن نفسه في صورة رمزية في الأساطير والفولكلور والأحلام ويشكل العلة الأساسية لنمطية الرموز اللاشعورية ٠ انها تؤلف في جزء على الأقل تراثا عقليا فطريا يرجع تاريخه الى العهود القبلية البدائية حيث كان الموضوع يرتبط بالرمز ارتباطا لفظيا وذهنيا ٠ وخلص فرويد من هذا الى أن « المحتوى النفسي الخاص والمتميز ، مثل الرمزية ، ليس له من مصدر آخر غير الانتقال الوراثي ٠ ويبـــدو أن الأبحاث التي تمت في المجــالات المختلفة لعلم النفس الاجتماعي (لوبون) الافتراض القائل بوجود مستودعات أخرى ، ليست أقل من ذلك تخصصـــا ، في ميراثنا القــديم انحدرت الينا منذ نشأة الانســـان الأول » ٠ (× × × ×)

× المرجع السابق ـ ص ٩٨ ٠

× × جوستاف لوبون ـ سيكولوجيا الجماهير ـ باريس ١٨٩٥ ، الترجمة الانجليزية بعنوان « الجماهير : دراسة في الفكر الشعبي » الطبعة ١٢ ـ ١٩٢٠ ٠

× × × لوبون ـ « سيكولوجيا الجماهير » والاقتباس وارد في كتاب فرويد « ســيكولوجيا الجماعة » ـ ص ٩

× × × × فرويد ـ « الأبحاث الكاملة » ـ مجلد ٥ ـ ص ٣٤٤ ٠

هذه هي محاولة فرويد التي استهدف بها تأكيد المعنى الثابت للرموز استنادا الى « المحتوى النفسي » الموروث والفطرى · ولقد كان فرويد فى حقيقة الأمر يبعث الى الحياة من جديد مذهب الأفكار الفطرية الذى رفضه جون لوك قبله بعهد بعيد ورأى فيه مذهبا متهافتـــا نظريا وعلميا · رفض لوك القول بفطرية الأفكار وقدم مبدأ بديلا يقضى بأن الأفكار منشـؤها خبرة الفرد وهو المبدأ الذى أكدت صوابه العلوم على مدى مائتين وخمسين عاما ·

واتضح من عرضنا السابق أن فرويد اعتمد فى المحل الأول على الايحاء التنويمي مستشهدا به على وجود نشاط عقلى لا شعورى ، كما استند الى الاحلام ولغه الأساطير برموزها النمطية ورأى فى تأويل الرموز وسيله للكشف عن محتوى العقل اللاشعورى ·

ومن ثم كانت خطواته الثانية هي القيام بدراسة شاملة للرموز النمطية الواردة فى الأحلام والاساطير · وأنجز فرويد دراسته هذه وانتهى الى أن جل الرموز اللاشعورية يمكن تأويلها على أساس ان لها معنى جنسيا مباشرا أو غير مباشر · والفقرة التالية التى اقتبسناها من بحث له كتبه عام ١٩١٠ تصـور لنا منهجـــه التأويلى الذى يكشف به عن الدلالة الجنســية للرموز النمطية اللاشعورية ، يقول فرويد : « هناك أولا موضوع الرمزية فى الاحلام واللاشعور ـ وهو مثار صراع ضار كما تعرفون ···· وسوف أجتزىء هنا بكلمات قليلة عن رمز واحد من الرموز التى كشفنا عنها مؤخرا · عرفت منذ فترة غير بعيدة أن طبيبا عقليا لا تختلف آراؤه عن آرائنا كثيرا ألمح الى واحد من جماعتنا أننا نبالغ فى تقديرنا للدلالة الجنسية للأحلام · وكان الحلم الذى يعرض له كثيرا هو ارتقاء درج السلم ، ويرى مؤكدا أن ليس ثمة شىء جنسى فى هذا على الاطلاق · وشد هذا الحلم انتباهنا وشرعنا فى دراسة الأحلام التى يتراءى فيها سلم ودرج واستطعنا على الفور أن ندلل على أن الدرج وما شابهه هو على وجه اليقين رمز لعملية جماع جنسى · والعنصر الأساسى المشترك هنا ليس من العسير اكتشافه : ان المـرء يرتقى أى مكان مرتفع بحركات ايقاعية وهى حركات يلازمهـا لهاث يتزايد بصورة مطردة ثم بقفزات قليلة سريعة يمكنه أن يهبط ثانية · ولهذا يتراءى لنا ايقاع الجماع الجنسى فى شكل ارتقاء للدرج · وجدير بنا ألا نغفل عن العرف السائد فى استعمال الكلمات فى مثل هذا المجال ، اذ أننا نستعمل كلمة « ارتقاء » أو « الاعتلاء » كرمز للعملية الجنسية « · (×)

يبين لنا هنا أن منهج فرويد يقوم على استخلاص الصور المشتركة الشائعة التى تتبدى فى الأحلام والأساطير والفولكلور ·· الخ ثم يخضعها لعملية استنتاج على أساس منهج الاستدلال القياسى · والاستدلال القياسى منهج مشروع ولكنه كان طوال القرون الماضية ولا يزال مشروعا فى نطاق المراحل التمهيدية لصوغ فروض عملية مبدئية وليس لا ستخلاص براهين قاطعة · بيد أن فرويد يستخدم المنهج ليقطع برأى نهائى فيما يمثل دون ريب العنصر الحاسم فى منهج التحليل النفسى ونعنى به الدلالة الجنسية الثابتة للرموز النمطية التى تتضمنها الأساطير والأحـــلام والفولكلور والطرائف وغيرها · ان فرويد لم يكتشف أن الرمـوز

× فرويد : « الأبحاث الكاملة » ـ مجلد ٢ ص ٢٨٧

اللاشعورية ذات دلالة جنسية وانما تعسف لتكشف الرموز عن دلالة جنسية حين أخضعها لمنهج الاستدلال القياسي ٠

وشرع فرويد في تحليل مرضاه مستعينا بهذا « المفتاح » حل طلاسم اللاشعور الخافية ٠ وتوسل لهذا باللغة الرمزية التى يروى بها المرضى أحلامهم ، وبالتداعى الطليق حول هذه الرموز ٠ ووجد بطبيعه الحال ان عقولهم اللاشعورية تطفح بدوافع جنسية خافيه وبالعديد من الغرائز والحوافز وانماط السلوك الموروثة منذ العصور الاولى للتاريخ ٠ وقرن فرويد رؤى الأحلام ، باعتبارها رموزا جنسية نمطية ، بالأم أو الأخ أو الأخت أو أشخاص من نفس الجنس فى الحلم أو التداعى الطليق ٠ وقاده هذا حتما الى استخلاص نتيجة محددة هى ان المريض لديه دوافع وحوافز ورغبات لاشعورية ذات طابع جنسى مثلى أو محرمى٠ ووجد أن كل تواريخ الحالات التى عرضت له غارقه فى لجه من الانحرافات الجنسية مما دفعه الى القيام بدراسة شاملة ومستفيضه عن علم الجنس ٠ واتجه وفاء بهذا الغرض الى الثقات فى هذا الموضوع من أمثال كرافت ـ ابنج وهافيلوك اليس وموبيوس وسكرنك ـ نوتزنج ولووينفليد وماجنوس هيرشفليد وعنى بوجه خاص بـ «الكتاب السنوى للانحرافات الجنسية» الذى صدر فى برلين ٠ وعززت كل هذه الدراسات تفسيره الجنسى مما شجعه على التوسع فى قائمته عن الرموز الجنسية النمطية ٠ وأسهم كثيرون من أقرانه فى هذا العمل ونخص بالذكر منهم ويلهلم ستيكل ٠

وحاول فرويد تتبع تاريخ الذكريات والدوافع اللاشعوريه فى حياة مرضاه متوسلا لذلك بالرموز الجنسية النمطية ٠ وصادفته هنا فكرة الحياة الجنسيه عند الأطفال وما تتضمنه من « انحرافات » فى صورتها الأولية ٠ وطور مفهومه هذا فى شكل نظرية عن الجنسية الطفلية بمراحلها الفمية والشرجية والتناسلية وعقدة أوديب المحرمية وعقدة الخصاء والغيرة القضيبية ٠

ولكن أهم مشكلة واجهت فرويد ظلت على الرغم من كل هذا تنتظر الحل : كيف يتأتى للذكريات والدوافع والحوافز الجنسية أن تكون لها الغلبة على الحياة اللاشعورية ولماذا تكشف عن نفسها متنكرة وراء قناع لغة الأحلام والاساطير الرمزية ؟ استعان فرويد على حل هذه المشكلة بما كان ذائعا آنذاك فى المانيا والنمسا (حوالى عام ١٨٩٦) عن « سيكولوجيا اللاشعور » التى طورها ج ٠ ف ٠ هيربارت وج ٠ ت ٠ فخنر وروج لها ف ٠ جريزنجر ٠

كان هربارت (١٧٧٦ ـ ١٨٤١) أرسخ علماء النفس فى المانيا قدما وأقواهم نفوذا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ٠ وكان اتجاهه بمثابة رد فعل مضاد للمذهب العقلى الممعن فى عقلانيته الذى عبرت عنه المدرسة الهيجلية فى مجال الفلسفة آنذاك ٠ وقدم نهجا جديدا لدراسة العقل قوامه أن الأفكار اللاشعورية المشحونة بطاقة طاغية هى التى تسود الحياة العقلية ٠ وذهب الى أن العقل مسرح يدور فوقه صراع لا ينتهى بين العديد من الأفكار المشحونة المتباينة حيث يلعب القمع أو الكبت الدور الرئيسى ٠ فالفكرة مصيرها القمع أو الكبت اذا ما عاقها عن الوصول الى الشعور فكرة ذات شحنة أعلى أو عندما تدفعها خارج الشعور فكرة كهذه ٠

وذهب هربارت الى أبعد من ذلك اذ تصور العقل ذا عتبتين (قارن الرقيب عند فرويد) · احداهما ويسميها العتبة السكونية Static threshold وتفصل الافكار المفرغة من الشحنة عن الشعور (قارن القبشعور عند فرويد) · ويسمى العتبة الأخرى العتبة الميكانيكية Mechanistic threshold وتفصل الافكار المقموعة أو المكبوتة ، والتى لاتزال محتفظة بشحنتها من الطاقة ، عن الأفكار المفرغة من الشحنة وعن الشعور (قارن اللاشعور عند فرويد) · ويرى هربارت أن الأفكار اللاشعورية المشحونة فى حالة ثورة دائمة ضد الأفكار الشعورية ، وأن هذا الصراع الضارى هو الذى يعطى الحياة العقلية ديناميتها · ويرى أيضا أن الأفكار اللاشعورية المشحونة قادرة على احداث آثار غير مباشرة مثل « مشاعر اضطهاد غير محددة الموضوع » ·

وينفى هربارت وجود شىء اسمه النسيان المطلق ، فالأفكار عنده خالدة ، ومايشغل مكانا فى العقل يظل فيه أبدا · والنسيان عنده يعنى الكبت · والقوى الحقيقية المحددة لفكر الانسان وسلوكه هى الأفكار اللاشعورية المكبوتة والتى تظل فى نفس الوقت ذات شحنة عالية من الطاقة · والمهمة الأساسية لعلم النفس هى « أن يستدل مما هو موضوع الخبرة (فى الشعور) على آثار القوى المحركة والفعالة من وراء ستار » ·

وهكذا وقبل اكتشاف فرويد للتحليل النفسى بما يقرب من سبعين عاما قدم هربارت صورة تقريبية للاشعور ومخططا أوليا موجزا لنظرية الكبت ·

ان احاطة فرويد بآراء هربارت فى علم النفس ليست موضع شك أو سؤال · فالكتاب المدرسى الذى كان مقررا فى المدرسة الثانوية (الجيمنيزيام) يوم أن كان فرويد طالبا بها كان قاصرا على تعاليم هربارت ، ومعلم فرويد تيودور ماينرت كان متأثرا أشد التأثر بهربارت · وأخيرا فان فرويد نفسه قدم دراسة دقيقة عن فخنر وهو من أتباع هربارت · وجدير بالذكر هنا أن فخنر هو أول من استعار التشبيه المشهور الذى يشبه العقل بجبل من الثلج يختفى تسعة أعشاره تحت سطح الماء وأن الذى يحدد مساره ليست الرياح وحدها التى تتحرك فوق السطح بل أيضا التيارات الخافية فى أعماق المحيط ·

وجد فرويد فى مفهوم هربارت عن الكبت والأفكار اللاشعورية المتمردة والفعالة الأساس لمعرفة السبب فى أن لغة اللاشعور لغة رمزية · ولم يبق أمامه الا أن يطابق بين الأفكار الشعورية واللاشعورية المشحونة والمتصارعة دوما ليجد بين يديه جوهر التحليل النفسى ــ ونعنى بذلك نظرية الكبت ·

كان فرويد مقتنعا قبل ذلك بأن الأفكار والدوافع اللاشعورية ذات طابع جنسى فى جوهرها · فما هى الأفكار التى تعارض السماح للأفكار الجنسيه بما فى ذلك الانحرافات النفاذ الى الشعور ؟ لم تبق غير خطوة بسيطة نسبيا لافتراض أن الأفكار المتعلقة بالأحكام الاجتماعية والخلقية والدينية المشحونة بكل طاقة الرأى العام وسلطة الكنيسة والدولة تعمل عمل قوى الكبت الشعورية · ومن ثم فان اللغة الرمزية السائدة فى الأحلام والأساطير والدعابات والحكم والأمثال والفولكلور هى الحيل التى تلجأ اليها الأفكار الجنسية اللاشعورية المتمردة لتجتاز العتبة أو الرقابة وتدخل الشعور · وتلك الرموز النمطية التى أصبحت وراثية

انما هى نتاج عصور الكبت للأفكار الجنسية المحرمة اجتماعيا وخلقيا ودينيا ۰ ان الطبيعة البشرية البدائية غير المكبوتة تثأر لنفسها على هذا النحو من الطبيعة البشرية المتحضرة المكبوتة عن طريق التمثل الرمزى اللاشعورى للميراث العقلى الفطرى القديم والجنسى أساسا ۰ انها تعبر عن ذلك فى الأحلام والأساطير وما شابههما كما تعبر عنه فى الأعراض العصابية والذهانية كما سيتضح لنا فيما بعد ۰

وهكذا شيد فرويد نظريته فى علم النفس عن الدينميات العقلية البحتة على أساس اصطناع تركيبة انتقائية من بين ست اتجاهات فكرية شاعت فى القرن التاسع عشر – الايحاء التنويمى (هانزن وليبولت وبرنهايم) ، وتفسير الاحلام عن طريق ترجمة الرموز النمطية (سكيرنر ورادستوك وشوبرت وأرتميد ورس والكتب الشعبية عن الأحلام) ، وعلم الأساطير (فريزر ورايناخ وماكس موللر) ، والميراث العقلى الفطرى القديم (لوبون) ، وعلم الجنس (اليس ، وكرافت ابنج وصحيفة الانحرافات الجنسية) ، وأخيرا سيكولوجيا اللاشعور (هربارت وفخنر) ۰

والفكرة الأساسية التى يرتكز عليها مذهب فرويد هى أن الأفكار والدوافع الغريزية اللاشعورية ذات الشحنة العالية من الطاقة هى القوى الجوهرية التى تحدد الحياة الشعورية ۰ ولهذا نراه يؤكد على الجانب الوجدانى اللاشعورى للنشاط العقلى مع قوة الحفز منظورا اليها نظرة بيولوجية وليست اجتماعية ۰ ومن تم فان مذهبه فى علم النفس مذهب لا عقلانى حيث يجعل من الانفعالات والدوافع والغرائز والحوافز الفطرية هى الأسبق والمهيمنة على الأفكار والمعارف وللنشاط العقلى المكتسب اجتماعيا ۰ وهنا وجه التباين الشديد بين ما ذهب اليه فرويد وبين منهج التفكير العلمى ۰ ولهذا فان علم النفس الفرويدى كان بحاجة الى فلسفة تبرره وتعطيه أساسا عقليا ۰

وحدث أن كان ثمة اتجاه فكرى ملائم بدأ يتولد ويتخذ لنفسه هو الآخر مسارا خارج تيارات الفكر الفلسفى الرئيسى آنذاك ۰ ويقوم هذا الاتجاه على مذاهب فلسفية متباينة ولكنها جميعها كانت لها خاصة مشتركة ايجابية وأخرى سلبية ۰ أما الخاصية السلبية فهى المعارضة الشرسة للمذهب العقلى فى الفلسفات التقليدية الرئيسية سواء المثالية منها أم المادية ۰ فقد كانت الفلسفات العقلية التقليدية تؤمن من بين ما تؤمن به أن أهم قسمات العقل البشرى التعليل العقلى والمنطق والفكر والمعرفة والحقيقة ۰

والخاصية الايجابية المشتركة للاتجاه الفلسفى الحديث اللاعقلى هى ابدال العناصر العقلية باللاشعور والدوافع البيولوجية والحوافز والرغبات والانفعالات والحدس والغرائز والارادة والنشاط العملى المباشر باعتبارها جميعها أهم قسمات العقل البشرى ۰ خلاصة القول أنها أبدلت الجانب الرشيد من العقل بالجانب الوجدانى ۰ فأصبحت الغرائز والحوافز والانفعالات عند أصحاب هذا الاتجاه الفلسفى هى التى تلعب دورا حاسما وفعالا ومنظما ۰ وأخذ هذا الاتجاه أشكالا متعددة ومتباينة فهو حينا يؤكد الارادة البيولوجية وحينا الدوافع الشهوية اللاشعورية ، وآنا الغرائز والانفعالات وآنا آخر النشاط العملى المباشر ۰ واتخذ الاتجاه أسماء متعددة ما بين مذهب الاراديين والمذهب الحيوى وفلسفة اللاشعور

والبرجماتية والمذهب الانسانى والمذهب الطبيعى وفلسفة كأن ومذهب الذرائع وأسماء أخرى كثيرة (*) • ودعاة هذه الفلسفات كثيرون من مشاهير الفلاسفة المحدثين ومن بينهم : « آرثر شوبنهور (١٧٨٨ ــ ١٨٦٠) وفردريك نيتشه (١٨٤٤ ــ ١٩٠٠) ووليام جيمس (١٨٤٢ ــ ١٩١٠) وادوارد فون هارتمان (١٨٤٢ ــ ١٩٠٦) وهنرى برجسون (١٨٥٩ ــ ١٩٤١) وجون ديوى (١٨٥٩ ــ ١٩٥٣) وف • س • شيلر (١٨٦٤ ــ ١٩٣٧) وهانز فاينجر (١٨٥٢ ــ ١٩٣٣) ».

ولقد عضد هذا الاتجاه الفلسفى ولا زال يعضد سيكولوجيا الأعماق Depth psychology عند فرويد • ومهد الأرض أمام التحليل النفسى خاصة بعد أن حط من قدر العقل والشعور •

والمعروف أن فرويد ، وبشهادته هو ، تجنب عامدا أى علاقة مباشرة بالفلسفة بمعناها الأصيل • وعلى الرغم من أنه لم يقرأ شوبنهور أو نيتشه حتى مرحلة متأخرة من حياته الا نه عرف فكرهما يقينا عن مصادر غير مباشرة • وأدرك أن فكر هذين الفيلسوفين وثيق الصلة بنظرته • « ان التطابق العريض بين التحليل النفسى وفلسفة شوبنهور ــ الذى لم يؤكد فقط سيادة الانفعالات والاهمية القصوى للجنسية بل كان مدركا لميكانيزم الكبت ــ ليس مرده علمى بتعاليمه • اننى قرأت شوبنهور فى فترة متأخرة من حياتى • أما نيتشه ، وهو فيلسوف آخر له تخمينات وحدوس تتفق كثيرا على نحو يدعو للدهشة مع المكتشفات المضنية للتحليل النفسى ، فقد تجنبته طويلا لهذا السبب عينه • ولم يكن ما يعنينى هو الرغبة فى ان يكون لى قصب السبق بقدر الرغبة فى أن يظل فكرى طليقا لا يعوقه عائق » (**) •.

هذا هو المسار التاريخى لنظريات فرويد وتلك هى مصادره التى استقى منها الأسس التى بنى عليها نظريته عن العقل الانسانى ونهجه فى علم النفس •

نهج بافلوف فى علم النفس

ان قوام نهج بافلوف فى علم النفس تآلف بين أربع اتجاهات رئيسية فى الفكر السيكولوجى فضلا عن فلسفة العلوم المادية • وهذه الاتجاهات الأربعة هى : الاتجاه الترابطى والفسيولوجى والتجريبى والتطورى • وعلم النشاط العصبى الراقى للنصفين الكرويين الذى قدمه بافلوف هو دراسة تكاملية تجريبية مع تطوير لكل تلك الاتجاهات الأربعة الأساسية فى ضوء المادية الواحدية •

الأصول التاريخية لنهج بافلوف فى علم النفس :

كانت المشكلة الأساسية والدائمة فى علم النفس والفلسفة هى العلاقة بين العقل والجسد وكان ثمة حلان مطروحان تقليديا لهذه المشكلة ، أحدهما يرد الجسد الى العقل فى شكل أفكار متجسدة ، والثانى يرد العقل الى الجسد فى شكل مادة لا متناهية الصغر وفى حالة حركة دائبة • وتتحدد صفة فكر الفيلسوف أو عالم النفس بأنه مثالى أو مادى فى ضوء التزامه بالاتجاه الأول أو الثانى •

× الفرد ويبر ورالف بارتون بيرى : « تاريخ الفلسفة » ــ نيويورك ١٩٢٥ ــ ص ٥٦٦ •

× × فرويد : « الأبحاث الكاملة » = مجلد ٢ ــ ص ٢٨٧ ــ ٢٨٨

ولقد كانت المثالية هي الحل السائد لمشكلة العقل والجسد بدءا من افلاطون حتى الفلسفة الاسكولاستية ٠ أما الحل المادى فلم يكن فى اغلب الاحوال ، بدءا من ديمقريطس وابيقور ولوكريتوس الى توماس هوبز سوى عنصرا من عناصر الحركة الفكرية الثورية ٠ وخطا ديكارت (١٥٩٦ ــ ١٦٥٠) أول خطوة نظرية حاسمة ضد الفلسفة الاسكولاستيه بيد ان خطوته هذه جاءت على حساب علم النفس ، ذلك لأنه فصل فصلا تاما بين العقل والجسد ونظر الى كل منهما باعتباره جوهرا مستقلا له قوانينه الخاصه ٠ وكانت لهذه الخطوة أثرها ايضا فى تحرر العلوم الطبيعية من اسار العقيدة الاسكولاستية التى تقول ان العقل حال فى كل عناصر الطبيعة ٠ ومن ثم يمكن القول بان ديكارت مهد الطريق لنهج مادى وعلمى فى مجالات الفلك الفيزيقا والكيمياء . بيد ان موقفه هذا كان حلا وسطا حيث خلف العقل حكرا للمذهب المثالى ٠

ويمكن النظر الى ثنوية ديكارت بالنسبة للعقل والجسد باعتبارها خطوة متقدمة تاريخيا ٠ فالتضحية بالعقل ، وهو موضوع دراسة علم النفس ، ابتغاء خلاص الجسد والمادة من سيطرة المثالية كانت مرحلة ضرورية فى النضال الفكرى الثورى ، الا أن علم النفس لا يزال يعانى من نتائج هذا الفصل ، حيث لا زالت الثنوية وعلى مدى ثلاثة قرون هى المشكلة الرئيسية ٠ وهذه هى عين المشــكلة التى تصدى لها بافلوف وشن ضدها نضالا ضاريا لا يفتر ٠

ولكن النضال الحديث ضد ثنوية العقل والجسد بدأ قبل بافلوف بمائتين وخمسين عاما ٠ فلم يكد يمضى طويل وقت على ثنوية ديكارت حتى جاء جون لوك (١٦٣٢ ــ ١٧٠٤) وخطا أول خطوة جبارة نحو انتزاع العقل من بين قبضــة المثالية الاسكولاستية ٠ ان الحركات الثورية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر لم ترض بذلك الحل الوسط وتترك العقل حكرا للمثالية وبخاصة الاعتقاد بفطرية الأفكار ٠ وأخذ لوك على عاتقه مهمة التصدى نظريا للفكر المثالى فى كتابه « مقال عن العقل البشرى » ٠ نفى لوك وجود أفكار فطرية وذهب الى أن الأفكار البسيطة أساسها الخبرة الحسية للأفراد يكتسبونها خلال حيواتهم ، وأن الأفكار المركبة تتألف عن طريق الترابط من أفكار حسية بسيطة ٠ فالخبرة الحسية والترابط هما عند لوك قوام عناصر العقل ٠

وتلقف المثقفون فى القارة الأوروبية وانجلترا والمستعمرات الأمريكية الدلالة الثورية لنظرية لوك النفسية ٠ وروج لها رجال الموسوعة من أصحاب الفكر المادى مثل لامترى وديديرو وهلفتيوس وهولباخ وأصبحت نظرية لوك عنصرا من عناصر أيديولوجية الثورة الفرنسية ، كما كان لها تأثيرها العميق على فكر كل من جيفرســون وفرانكلين وبين آخــرين وأصبحت أيضا عنصرا من أيديولوجية الثورة الأمريكية ٠

وظهرت الفلسفة المادية العلمية فى صورتها المتسقة على يد ماركس وانجلز وكانت صياغة جديدة وصقلا لتراث فلاسفة الفكر المادى جون لوك وهوبز وهلفتيوس وهولباخ وديديرو فضلا عن نظرية داروين فى التطور ومنهج هيجل الجــــدلى ٠

كانت الفلسفة المادية أولى المكونات الجوهرية فى علم النشــاط العصبى الراقى عند بافلوف والتى تؤكد أن العقــل وظيفة لمادة عضــوية منتظمة هى مخ الانسان ٠

وثانى مكونات نظرية بافلوف هو علم النفس الترابطى . وروج لهذه النظرة الترابطية عديد من الفلاسفة وعلماء النفس نذكر منهم : فى انجلترا دافيد هيوم (١٧١١ ـ ١٧٧٦) ودافيد هارتلى (١٧٠٥ ـ ١٧٥٧) وجيمس ميل (١٧٧٣ ـ ١٨٣٦) وهربرت سبنسر) ١٨٢٠ ـ ١٩٠٣) والكسندر بين ١٨١٨ ـ ١٩٠٣) ، وفى ألمانيا نيكولاى تيتينز (١٧٣٦ ـ ١٨٠٧) وجوهانز موللرو (١٨٠١ ـ ١٨٥٨) وولهيلم فونت (١٨٣٢ ـ ١٩٢٠) وفى روسيا سيتشينوف، وفى الولايات المتحدة جيمس روش وأ . ل . ثورنديك .

ولب نظرية الترابط يتمثل فى تأكيدها أن العمليات العقلية تتوقف على التزامن والتتابع فى اقتران الاحساسات والتذكارات والأفكار . ان الاحساسات أو الأفكار تقترن ببعضها البعض حسب الطريقة التى تتبدى بها أمام العقل سواء فى آن واحد أم على نحو متتابع .

وكانت نظرية الترابط قد تأكدت صحتها وقتما بدأ بافلوف أبحاثه . وأفادت جل مدارس علم النفس تقريبا من النظرية الترابطية سواء المدارس ذات الاتجاهات الاستبطانية أم الاتجاهات الموضوعية . بيد أن الترابط فى ذاته يترك ثنوية العقل والجسد متأرجحة غير محسومة فسواء سلمنا أم لم نسلم بأن المخ هو عضو التفكير ، طالما وأن طبيعة الأداء الوظيفى للنصفين الكرويين للدماغ ما زالت مجهولة ، فان النظريات الترابطية تظل نهجا عقليا خالصا فى النظر الى العقل . ولقد أجمع كل الترابطيين تقريباً ، ومن بينهم من ذكرناهم آنفا ، على أن المخ هو العضو المسئول عن عملية الترابط سواء على نحو متزامن أم متتابع ـ بدأت أولا فى شكل حركة « للروح الحيوانى » وأخيرا فى شكل توصيل عصبى أو نشاط انعكاسى . ولكن لم تكن هناك بعد فسيولوجيا للأجزاء الراقية من المخ ومن ثم لم تكن هناك بالتالى أى معرفة بالميكانيزمات العصبية لعملية الترابط . ولهذا ظلت النظرية الترابطية ، أو الجانب الأكبر منها ، نتاجا لملاحظة عقلية بحتة أو ملاحظة ذاتية الى أن تيسرت دراسات بافلوف عن فسيولوجيا النصفين الكرويين للدماغ . ولهذا كانت الثنوية قبل بافلوف تتخذ من علم النفس الترابطى حصنا لها .

بيد أن ثمة هجوم آخر ضد التنويه وأقوى فعالية وتأثيرا بدأ قبل بافلوف بمائتى عام تقريبا ، أخذ بداية صورة تأملية ثم استند بعد ذلك الى ركيزة راسخة من البحث التجريبى . وأول من أعد لهذا الهجوم هم علماء النفس الفسيولوجيون وعلم النفس الفسيولوجى ، وهو ثانى التيارات الأربعة الرئيسية ، له تاريخ طويل يضارع فيه علم النفس الترابطى . ففى عام ١٧٤٩ صدر فى لندن كتاب بعنوان « ملاحظات على الانسان » تأليف دافيد هارتكى . وأحدث هذا الكتاب هزة عنيفة داخل القارة الأوروبية أولا بعد ترجمته ثم فى انجلترا بعد ذلك . كان هارتلى ترابطيا فى منهجه كما طرح فى كتابه هذا نظرية عن النشاط العصبى كركيزة للظواهر الترابطية . وكان ماديا ولكن ليس من الطراز الردى القديم ، بمعنى أنه لم يكن يرد العقل الى مادة فى حالة حركة وانما تصور العمليات العقلية باعتبارها وظيفة لنشاط المخ . فنراه يفسر عملية الرؤية على سبيل المثال باعتبارها ذبذبات فى الاثير تحرك ذبذبات فى أعصاب العين وتنتقل منها الى المخ . وما أن تبدأ هذه العملية حتى تتواصل الى الذبذبات فى المخ لتكون أولا صورا لاحقة ثم تكون أخيرا آثارا تذكرية . ويمكن استثارة هذه الآثار الذبذبية

للذاكرة عن طريق الترابط • ويذهب هارتلي الى أنه لو حدث أن أثرت مجموعتان من الذبذبات الحسية على الجهاز العصبي في آن واحد أو على نحو متعاقب فانهما تقترنان ببعضهما بحيث اذا ما أثيرت احداهما فان ذبذباتها تنتشر حتى تصل الى الاخرى وتثيرها بالتالي • وقدم هارتلي نظرية عن التفكر ذهب فيها الى ان الفكر يرتبط ارتباطا وثيقا باللغة في شكل ترابطات لفظية وأن هذه ليست سوى ذبذبات عصبية تحركها أصوات الكلمات • والذبذبات الصوتية للكلمات مثلها كمثل الاحساسات غير اللفظية تخلف آثارا يمكن استثارتها ثانية عن طريق الترابط •

أعتقد ، وبقدر ما تسمح به معلوماتي من يقين ، أننا نجد هنا في معالجة هارتلي الفسيولوجية أول صورة كاملة لنهج مادي واحدي في دراسة العمليات العقلية ويناهض النهج المثالي الثنوي • اذ أنه يتجنب المادية الميكانيكية في علم النفس بقدر ما سمحت به الوسائل المتاحة آنذاك ، فالعقل أو النشاط العقلي وظيفة للنشاط العصبي المادي للمخ • والمخ مادة في حالة حركة أما العقل فهو كيف أو خاصية أو وظيفة لهذه الحركة (العصبية) المادية التي بلغت أرقى صورة من صور التنظيم العضوي •

لقد كان علم النفس الفسيولوجي الذي قدمه هارتلي منهجا متقدما للغاية بالقياس الى عصره بيد أنه كان في نفس الوقت نظريا بحتا يفتقر الى سند تجريبي • ذلك أن الفسيولوجيا عامة ، وفسيولوجيا المخ خاصة ، لم تكن حتى عام ١٧٤٩ قد حققت تقدما كافيا يسمح بتطور علم النفس الفسيولوجي على اساس تجريبي • اذ كان لابد من الانتظار قرابة مائة وخمسين عاما من التطور العلمي حتى يأخذ هذا التطور مجراه •

ظهرت في هذه الأثناء محاولتان على الأقل لهما شأن كبير ، وان كانتا ذاتا طابع نظري بحت ، تستهدفان بناء علم نفس فسيولوجي مادي متكامل • نمت احداهما على يد عالم نفس امريكي هو جيمس رش (١٧٨٦ — ١٨٦٨) ، والأخرى على يد عالم فسيولوجيا روسي هو أ • م • ستشينوف (١٨٢٩ — ١٩٠٥) • صدر كتاب ستشينوف « منعكسات المخ » عام ١٨٦٣ ، وصدر كتاب روش « تحليل العقل البشري » عام ١٨٦٩ • والتزم روش منهجا مطابقا تماما لمنهج هارتلي ولكن مع مزيد من التفصيل والافاضة بعد أن استوعب الكثير مما حققه العلم من تقدم خلال الستة والثمانين عاما الفاصلة بينه وبين هارتلي • أما محاولة ستشينوف فكانت أكثر خصوبة والسبب الرئيسي هو أنها طرحت لأول مرة فكرة أن الفعل المنعكس هو الميكانيزم الأساسي لنشاط المخ سواء الأرقى أو الأدنى • وبعد ما يقرب من أربعين عاما أخذ بافلوف فكرة ستشينوف النظرية وعمل على تطويرها والتحقق منها تجريبيا •

وفي الوقت الذي كان فيه رش وستشينوف يعملان على تطوير منهجهما الفسيولوجي والنظري في علم النفس كان ثمة ثلاثة من علماء الفسيولوجيا في ألمانيا يجرون أبحاثا تجريبية عن علم النفس الفسيولوجي لأعضاء الحس وارتباطاتها في المخ ، وهؤلاء الثلاثة هم جوهانز موللر وأرنست هينريخ فيبر والعالم الأشهر هرمان فون هلمهولتز • ولقد سارت أبحاثهم التجريبية الدقيقة في مجال علم النفس الفسيولوجي للاحساس والادراك خطوات كبيرة على الطريق تمهد الأرض لنظرية بافلوف عن الأداء الوظيفي للنصفين الكرويين للمخ •

وعرف القرن التاسع عشر عددا آخر كبيرا من العلماء الذين اسـهموا اسهامات جليلة من أجل تقدم الفسيولوجيا وبخاصة فسيولوجيا الجهاز العصبى وذروته المتمثلة فى المخ · ونذكر من بين هؤلاء : دى بوا رايموند وكلود برنار فى فرنسا ، وكارل لودفيج وف فاجوس جولتس فى ألمانيا ، وس·ب· بوتكين وا · ف تسيون فضلا عن آ·م· ستشينوف فى روسيا · وهذا التقدم السريع فى فسيولوجيا الجهاز العصبى الذى بدأ ينفذ على الأقل الى القطاعات الدنيا من المخ كان الشرط الأساسى والضرورى لكى يتسنى لبافلوف القيام بأبحاثه عن النصفين الكرويين لمخ · وثمة عالمان من علماء الفسيووجيا فى فينا قاما بأبحاث ترتبط ارتباطا مباشرا بوظائف النصفين الكرويين للمخ وتعنى بهما ايفالد هرنج وسجموند اكسنر · قدم هرنج نظرية عن « الذاكرة كوظيفة لمادة عضوية منظمة » (*) وقام اكسنر بدراسة عن توزيع النشاط الوظيفى فى المخ ووضع نظرية عن الأساس الفسيولوجى للنشاط العقلى · أما الحدث التاريخى الذى جاء مباشرة قبل أن يشرع بافلوف فى أبحاثه عن القطاع الأرقى من المخ فهو « صحيفة الدراسات السيكولوجية والفسيولوجية عن أعضاء الحس » التى تأسست فى ألمانيا عام ١٨٩٠ · وضمت هيئة تحرير الصـحيفة علماء أفذاذا مثل هلمهولتز واكسنر وهرنج ·

شن كل هؤلاء من علماء الفسيولوجيا وعلم النفس الفسيولوجى وغيرهم هجوما على المذهب الديكارتى القائل بثنوية الجسد والعقل · بيد أن الهجوم لم يحقق نتائج عميقة الأثر نظرا لأن الفسيولوجيا وعلم النفس الفسيولوجى قصرا عن البحث التجريبى فى دراسة النشاط العصبى الراقى للنصفين الكرويين للمخ·

وثالث التيارات الرئيسية فى مجال الفكر السيكولوجى هو المنهج التجريبى الذى بدأه وجهـد من أجـل تطبيقه علماء الفسـيولوجيا ورجال علم النفس الفسيولوجى حتى عام ١٨٧٩ · ولكن فونت الذى ثبط همته هلمهولتس وأيأسه من أن يصير عالما فى الفسيولوجيا بسبب نقص معارفه فى الرياضيات ، فتح فى ليبزج بألمانيا ابان هذه الفترة أول معمل سيكولوجى دقيق · افترض فونت وجود مركز للترابط فى الفصين الأماميين للمخ تتصل به ألياف عصبية تربطه بكل المنـاطق الحركية والحسـية فى لحاء المخ · وتأسيسا على هذه القـاعدة الفسيولوجية والنظرية البحتة وضع فونت تصميما لعدد من التجارب ، أنفذها بالفعل مسـتهدفا الابانة عن أن الترابط هو الميكانيزم الفيزيقى للعمليـات العقلية · انه لم يكن عالم نفس فسيولوجى اذ أنه لم ينظر الى العقل باعتباره وظيفة لنشاط المخ ، فضلا عن أنه التزم منحى سيكولوجيا خاصا فيما يتعلق بثنوية العقل والجسد أطلق عليه اسم « مذهب التوازى السيكوفيزيقى » · وذهب باتجاهه هـذا الى أن نشـاط المخ لا تربطه أى رابطة عملية أو وظيفية بالعمليات العقلية ، بل هما ظاهرتان منفصلتان تسيران فى خطين متوازيين · أما كيف يتآزر هذان الخطان المنفصلان المتوازيان فهذا ما لم يحاول فونت الاجابة عليه · ويبدو أن اجابة كهذه لن تتيسر الا اذا ذهبنا مذهب ليبنتس عن وجود « تدبير الهى سابق » أو أخذنا بتصور آ · ن · وايتهد عن المعانى الكلية ·

(*) بحث قرأه على أكاديمية فينا عام ١٨٧٠ ·

وايا كان الامر فان مذهب التوازى السيكوفيزيقي الذى قال به فونت أصبح مذهبا رائجا ولو أنه اخذ صيغه جديده تستهدف تأكيد الجوهر المثالى للعقيدة الثنوية . ولا زالت هناك كتب ومراجع في علم النفس تستخدم هذه الصيغة ولو على نحو ضمنى اذ تستهل عرضها بجمله أو بفقرة بل وبفصل كامل عن تشريح وفسيولوجيا الجهاز العصبى والمخ ثم لا تلبث تسود مئات الصفحات الباقيه نتناول فيها موضوعات سيكولوجية خالصة دون اى اشاعة عن الأداء الوظيفى لعضو الحياة العقلية . ومثل هذه الانعطافة فى اتجاه تشريح وفسيولوجيا المخ لا تأتى الا باعتراف ضمنى بمذهب التوازى السيكوفيزيقى الذى قال به فونت وثنوية ديكارت عن العقل والجسد وما يتميز به نشاط كل منهما من قوانين مستقلة تماما .

بيد أن النهج التجريبى الذى التزم به فونت فى دراساته السيكولوجية قدم ، على الرغم من كل ما ذكرناه ، اسهامات جليلة لنظرية الترابط كما أنه فى نفس الوقت دفع بقوة الاتجاه نحو التجريب المعملى الذى أصبح الآن فى جميع أنحاء العالم ، وبخاصة فى الولايات المتحدة ، القسمة الغالبة والمميزة لعلم النفس الأكاديمى لأى « مدرسة » أو نظرية معترف بها سواء أكانت استبطانية أم موضوعية . ولكن التجريب فى ذاته ليس ضمانا تلقائيا للصحة أو الصواب العلمى . فثمة على سبيل المثال « جمعية للبحوث النفسية » تجرى أبحاثا « تجريبية » على « ظواهر » غيبية مثل الادراك الفوق حسى والاتصال بالأرواح . ان معيار صحة التجريب يرتكز على نوعية موضوع البحث وصحة موضوع البحث فى آن واحد . ولقد كانت ولا نزال التجارب التى أجراها فونت وأتباعه فى الولايات المتحدة أو فى غيرها عملا هاما جليل الشأن من حيث أنها عمدت الى تمييز وتصنيف ظواهر الترابط العقلى والسلوكى والابانة عن العلاقات القائمة بينها .

وحمل أ . ل . ثورنديك العالم الأمريكى الأشهر لواء الدعوة فى أمريكا للالتزام بالنهج التجريبى فى دراسة الظواهر الترابطية لسلوك الحيوان وأصدر كتابه « ذكاء الحيوان » بناء على تجاربه فى هذا المجال . وبدأ ثورنديك حركة صدرت عنها شعبتان : شعبة انتهت الى ما يسمى اليوم بالمدرسة السلوكية ، والشعبة الثانية وتمثل الخط الأساسى فى الحركة التى بدأها ثورنديك واتسع نطاقها وأصبحت الطابع السائد لعلم النفس التجريبى فى الولايات المتحدة — وتعنى هذه الشعبة ببحث السلوك الترابطى للحيوانات كما يتبدى فى التجارب العملية وركيزتها الأساسية المواقف التى تتضمن مشكلات يلزم حلها .

احتضن بافلوف بحماس شديد المنهج التجريبى ثالث التيارات الأربعة الرئيسية فى الفكر السيكولوجى . وجسد بافلوف هذا المنهج فى وحدة واحدة متلاحمة تجمع ما بين فسيولوجيا وسيكولوجيا النصفين الكرويين للدماغ .

أما التيار الرابع والأخير فهو الذى بدأه هربرت سبنسر على نحو تأملى خالص ثم وفر له شارلس داروين الشواهد الدالة على صحته ونعنى بهذا التيار النهج التطورى الذى التزم به سبنسر وداروين وطبقاه على الدراسة النفسية ثم أصبح فيما بعد موضع قبول ولو شكليا من جانب كل المدارس التى تنظر الى عقل الانسان ومخه باعتبارهما ذروة مسار تطورى طويل بدءا من الحيوان

الى الانسان • ونتبع داروين جانبا من هذه العملية الخاصة بالتطور التشريحى الفسيولوجى السيكولوجى وذلك فى كتابه « التعبير الانفعالى عند الانسان والحيوانات » • وقدم لنا فى كتاب « انحدار الانسان » البرهان على ان مخ الانسان تطور عن مخ الحيوان وان كثيرا من القدرات العقلية لدى الانسان يجب ان نتتبع أصولها عند الحيوان • ويمثل التكيف مع الظروف الخارجية للحياة الركيزة الأساسية فى كل أعمال داروين وأولها ما يتعلق بعلم النفس التطورى• وأصبح هذا النهج التطورى وتأكيده على التكيف هو حجر الزاوية فى أبحاث بافلوف عن النشاط العصبى الراقى •

ان الأصول العلمية والنظريةللخط الذى التزم به بافلوف تشتمل على التيارات الأربعة الرئيسية فى الفكر السيكولوجى ـ التيار الترابطى والفسيولوجى والتجريبى والتطورى ـ هذا بالاضافة الى فلسفة العلم المادية الواحدية • ويحدد هذا المسار سلسلة من الأعلام التاريخية وهم فونت وستشينوف وهلمهولتس وداروين وديديرو وماركس •

إنتهى بافلوف فى ضوء منهجه هذا الى أن الأداء الوظيفى للنصفين الكرويين للمخ هو ركيزة العقل والعمليات العقلية • ويبرهن من خلال أبحاثه التجريبية هو ومئات من معاونيه على أن الفعل المنعكس الشرطى يشكل الميكانيزم الأول الفسيولوجى الذى يرتكز عليه كل النشاط الترابطى المعقد عند الحيوان والانسان المتمثل من عملية التكيف اللانهائية ، سواء فيما يتعلق بالنشوء الفردى أو النوعى ، مع ظروف البيئة • ولقد كان نهجه جماعا لعدد من الاتجاهات السيكولوجية المتناثرة والتى جاهدت من أجل الوصول الى حل نهائى لأعقد مشكلة واجهت الانسان وهى مشكلة العقل والجسد •

تقودنا المقارنة السابقة بين الأصول التاريخية والنظرية للاتجاه الى نتيجتين مترابطتين : ـ

أولا ـ بالنسبة لفلسفة العلم التى تشكل المسار التاريخى لأصول الفكر الفرويدى فاننا نجدها خارج اطار التيار الرئيسى للفكر العلمى ، بينما كانت فلسفة العلم عند بافلوف تمثل صلب هذا التيار • معنى هذا أن فرويد كان يعمل من خلال تراث غير علمى أهم قسماته المثالية والذاتية والميتافيزيقا واللاعقلية • أما بافلوف فقد كان يعمل من خلال تراث علمى أهم قسماته المادية والموضوعية والتطور والعقلية •

ثانيا ـ بالنسبة لمجال البحث السيكولوجى كان فرويد يعمل خارج اطار التيار الرئيسى للفكر السيكولوجى ، ونخص بالذكر أنه أقام مذهبه على أساس عدد من النظريات السطحية واللايقينية مثل تفسير الأحلام وتأويل لغة الرموز الفطرية النمطية القديمة ، وأساطير الشعوب والأجناس والأفكار الفطرية • أما بافلوف فعلى النقيض من ذلك اذ كان يعمل داخل اطار التيار الرئيسى للفكر السيكولوجى ، ونخص بالذكر أنه أقام علم النشاط العصبى الراقى فوق أساس صلب من النظريات والحقائق والقوانين التى تأكد صوابها فى مجالات علم النفس وعلم الأعصاب والتشريح والفسيولوجيا •

الفصل الثامن

فرويد والمشكلات الأساسية في علم النفس

مشكلتان أساسيتان فى علم النفس الاولى نشأة وتطور العقل لدى النوع البشرى ، والثانية ميلاد ونمو العقل لدى الفرد • ترتبط الأولى ارتباطا وثيقا بمجالات الانثروبولوجيا والتاريخ البشرى ، وترتبط الثانية بمجالات نمـــو الطفل والتربية والتعلم • تتعلق الأولى بالانتقال من الطبيعة الحيوانية الى الطبيعة البشرية ، وتتعلق التانيه بالنمو والتطور من الطفولة الى الرشد •

تناول بافلوف وفرويد هاتين المشكلتين ولكن من اتجاهين متعارضين • قرر بافلوف استحالة حل المشكلة بعيدا عن علم النشاط العصبى الراقى أى بمعزل عن معارفنا الخاصة ببنية ووظيفة المخ وبخاصة النصفين الكرويين للدماغ • وقرر فرويد أنه فى غيبه مثل هذا العلم يتعين على علم النفس أن يحاول الوصول الى حل لهاتين المشكلتين فى ضوء تفسير عقلى صرف أى دون الرجوع الى العضو الفيزيقى الخاص بالحياة النفسية •

ولكن لم يقدم لنا فرويد أو بافلوف بتفصيل واف منهجه الخاص فى معالجة هاتين المشكلتين الأساسيتين فى علم النفس • لقد انطلق كل منهما فى الغالب الأعم على أساس استدلالات واستنباطات واستنتاجات من نظرياتهما الخاصـة والعامة عن النشاط الراقى وطرحا فى كل حالة من الحالات مسائل للبحث مستقبلا • وقد تم بالفعل بحث ودراسة بعض هذه المسائل على أيدى أتباع وأقران كل منهما •

وسوف نعرض هنا نهج كل منهما فى تناول المشكلات الرئيسية فى علم النفس حتى يتسنى لنا بعد ذلك تقييم ما توصلا اليه من نتائج باعتبارها خطة عامة تحدد مسار البحث العلمى مستقبلا . والسؤال الجوهرى الذى يتعين الاجابة عليه ان أمكن هو : أى النهجين . نهج فرويد أم نهج بافلوف ، يشكل أساسا نظريا يتسم بالطابع العلمى أكثر من الآخر لنبنى عليه علم النفس ؟ كل منهما يزعم هذا الحق لنفسه . اذن فأيهما أصدق زعما ؟ لنبدأ بدراسة النهجين حتى نكون فى وضع يسمح لنا بالاجابة على السؤالين .

كان فرويد حتى عام ١٩٢٥ يؤكد أن علم النفس ليس علما بعد وأنه يفتقر الى أساس مشترك ، وأنه باستثناء فسيولوجيا الاحساس لا توجد معارف متخصصة فى مجال البحث السيكولوجى . فقد قال فى معرض حديثه عن علم النفس : « مم يتألف علم النفس الآن على النحو الذى يدرسه التلاميذ فى المدارس ؟ أننا اذا استثنينا هذه القدرة القيمة على التبصر فى موضوعات الحس الفسيولوجية فان عددا من التصنيفات والتعريفات لعملياتنا النفسية أصبحت الآن بفضل لغة الكلام المشتركة على ألسنة المثقفين . بيد أن هذا ، كما هو واضح ، لا يكفى لاستيعاب وفهم حياتنا النفسية . ألم تلحظ أن كل فيلسوف أو مؤلف مسرحى أو روائى أو مؤرخ أو كاتب سيرة يوائم علم النفس بما يتفق مع حاجته ويطرح فروضه المسبقة عن أهداف وعلاقات النشاط النفسى وكلها آراء مقبولة على ظاهرها بشكل أو بآخر وكلها أيضا آراء لها خطرها ومشكوك فى صحتها ؟ اننا نفتقد أساسا مشتركا كما هو واضح . وواقع الأمر أنه لا توجد سلطة فكرية أو تقاليد فيما يتعلق بمجال علم النفس ، فكل امرىء يدلى بدلوه فى موضوعات علم النفس كما شاء له هواه . ولو حدث وأثيرت مسألة تتعلق بعلوم الطبيعيات أو الكيمياء فان كل من ليس من أهل الاختصاص تراه يلزم الصمت. ولكن اذا ما صدر حكم فى قضية من قضايا علم النفس نجد كل امرىء يشعر بأنه صاحب حق فى أن يدلى برأيه أو أن يأخذ موقف المعارضة . انه على ما يبدو لى لم تتوفر معرفة متخصصة فى هذا المجال[1] » ×

ان ما يحتاج اليه علم النفس فى نظر فرويد وبافلوف أيضا هو وضع أساس مشترك يمكن أن نقيم فوقه صرح العلم . وكان فرويد مؤمنا بأن التحليل النفسى أو علم العمليات العقلية اللاشعورية هو الكفيل بأن يضع هذا الأساس .

ولم يقدم لنا فرويد ذاته صورة تفصيلية وافية عن تطبيق « علم العمليات العقلية اللاشعورية » فى مجال علم النفس . بيد أنه وضع حلا عاما وموجزا للمشكلتين الأساسيتين فى علم النفس : نشأة وتطور العقل لدى النوع الانسانى ولدى الانسان الفرد .

من العقل البدائى الى العقل الحضارى

انطلق فرويد فى محاولته للبحث عن حل لمشكلة نشأة وتطور العقل لدى النوع البشرى على أساس « التمثيل بين عملية التطور الثقافى وبين مسار النمو الفردى » × × ولكنه حين يعقد هذا القياس التمثيلى كان ينتقى الفروض

× فرويد : « مسألة التحليل الدارج » نيويورك ـ ١٩٥٠ ص ٢٩ .

× × فرويد : « الحضارة ومساوئها » ص ١٣٦ .

والنظريات الاثنولوجية والانثروبولوجية والتاريخية التى تلائم أغراضـــه مع التركيز والفولكلور • وقد اعتمد بوجه خاص فى الجانب الأكبر من تفكيره على مؤلف ضخم آثار ضجة كبيرة الفه عالم فى الانولوجيا والانثروبولوجيا لم يكن موضع ثقة على الاطلاق وهو روبرتسون سميث •

كان فرويد مدركا لوضع سميث المريب ولكنه كان يؤكد « حقه الكامل فى أن ينتقى » ما يفيده على نحو أفضل • يقول فرويد فى معرض الاشارة الى كتابه « الطوطم والمحرمات » : « كثيرا ما لامنى الناس لوما عنيفا اذ لم أغير من آرائى فى الطبقات الأخيرة من كتابى نظرا لما اجمع عليه علماء الانولوجيا المعاصرون دون استثناء من نبذ لنظريات روبرتسون سميث وبعد أن وضعوا نظريات جديدة بديلة تختلف عن نظرياته اختلافا بينا • » ولكنه لا يقنع بالتشـــيع لنظريات سميث بل يستطرد قائلا : الا أننى ، قبل كل شىء ، لست عالم اثنولوجيا وانما أنا محلل نفسى • ولقد كان من حقى كاملا أن أنتقى من بين المعطيات الاثنولوجية ما أراه يفيدنى فى عملى التحليلى • ان كتاب روبرتسون سميث ، هذا العلامة الموهوب ، زودنى بنقاط قيمة تمس المادة السيكولوجية للتحليل كما زودنى باقتراحات عن طريقــة الافادة منها ، وهو لا أســـتطيع أن أقوله عن مؤلفات خصومه » • × وهكذا نجد فرويد يقيم النظريات ، على الأقل فى هذا المجال ، لا على أساس صحتها أو زيفها وانما على أساس نفعها للتحليل النفسى •

وثمة أمثلة كثيرة من منهج فرويد نراه يبنى الغرض استنادا الى واقعة تاريخية وحيدة ثم ينطلق مسترسلا بمعزل عن كل حقائق ونظريات التاريخ • يقول فرويد « ولكننا نغامر بالعمل فى استقلال عن المؤرخين فى مواضع أخرى ونطلق لأنفسنا العنان » • والنتيجة كما يقول هى « أن فروضنا ليست الا مجموعة من الدعاوى ترتكز فيها الواحدة على الأخرى » • × × وهكذا يذهب فرويد الى أن حل المشكلة الأولى من المشكلتين الأساسيتين فى علم النفس انما يكون على أساس القياس التمثيلى والانتقاء النافع والدعاوى التعسفية والاستقلال عن الحقائق التى تأكدت صحتها •

ويقدم فرويد أولا « لمحة عن فرض قد يبدو خياليا بيد أنه يفيد فى اثبات علاقة مشتركة غير متوقعة بين مجموعتين من الظواهر كانتا من قبل منفصلتين تماما » × × × وتحقق له هـذا الغرض الخيالى حين جمع بين الطوطم والوليمة الطوطمية وقدم لهما تأويلا تحليليا نفسيا مع تأملات نظرية عن الحالة البدائية للمجتمع الانسانى • وابتدع فرويد بهذه التوليفة اسطورة تكررت بنصها مئات المرات فى كل كتاباته بعد عام ١٩١٢ •

كان انسان ما قبل التاريخ ، لا يزال نصف حيوان ، يعيش فى جماعة بدائية تحت سيطرة استبدادية مطلقة لأب قاس غيور استأثر لنفسه بكل النسوة ، وطرد أبناءه بمجرد أن شبوا عن الطوق • × × × ×

× فرويد : الطوطم والمحرمات » ـ نيويوريك ، ١٩٣٩ ـ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ •

× × فرويد : « موسى والتوحيد » ص ٥٣ ، ٧٣ •

× × × فرويد : الطوطم والمحرمات ص ١٤١ •

× × × × فما يتعلق برأى فرويد تفصيلا فى هذا الشأن يمكن الرجوع الى كتابيه « الطوطم والمحرمات » و « موسى الواحديا »

كانت هذه هي صورة « المجتمع » قبل العشائرى والسابق على القبيلة ، مجتمع بدون محرمات أو طواطم يحكمه مبدأ تنظيمى أوحد هو سلطة الأب الرهيبة • أما عقل الانسان فى تلك الفترة فكان أثرا بدائيا أشبه بالحيوان منه بالانسان • لم يكن الشعور قد صدر بعد عن اللاشعور ، ولم يكن ثمة ضمير بعد اذ لم تكن ثمة معايير أو قيم وبالتالى لم تكن هناك امكانية لبناء مثال أعلى • الغرائز والانفعالات لهما السلطة المطلقة لا يعوقهما أى عامل من عوامل الكبت العقلية والباطنية •

صاغ فرويد هذا الموقف الاسطورى صياغة جديدة بحيث أصبح الهو والأنا والأنا الأعلى ، وان لم يكن على نحو دقيق تماما (كما سيبين لنا بعد قليل) ، هى المصطلحات البديلة لكلمات « اللاشعور » و « الشعور » و « الضمير » • وفى هذه الصياغة الجديدة لم ينفصل عقل انسان ما قبل التاريخ الى أقسام ــ اذ لم يكن الأنا قد انفصل بعد عن الهو ، كما أن الأنا لم ينشق على ذاته ليصبح الأنا بمعناه الصحيح والأنا الأعلى • وانما نشأت كل هذه المسميات مع اطراد تطور التنظيم الاجتماعى •

كان عقل الانسان فى هذا التجمع البدائى أشبه بعقل الحيوان ، عقلا واحدا غير منقسم وفى اتساق كامل مع ذاته • كانت الصراعات كلها صراعات خارجية بين أفراد « التجمع » • وأخيرا ، حسب رأى فرويد ، وصل هذا الصراع بصورة ما الى نقطة فاصلة ، وذات يوم التام شمل الاخوة المطرودين وقتلوا أباهم والتهموه وبهذا وضعوا نهاية لمرحلة التجمع الأبوى •• ونظرا لأنهم همج وآكلو لحوم البشر فمن البديهى أنهم التهموا فريستهم بعد أن أجهزوا عليها وقتلوها » • ونتيجة لهذه الفعلة قبل التاريخية « ظهر احساس بالذنب » × • وكانت هذه هى بداية العقل البشرى على وجه الدقة والتحديد مع انقسامه الى الهو والأنا والأنا الأعلى • ان الاحساس بالذنب هو أول ما ألف حواجز فاصلة على هيئة رقابة بين الهو والأنا وبين الأنا والأنا الأعلى ، وهو أول ما خلق الكبت كأعظم قوة دينامية فى العمليات العقلية •

هذه هى أسطورة فرويد عن نشأة العقل البشرى • وعنده أن العقل تطور على مرحلتين • المرحلة القبلية ثم الحضارية • تميزت المرحلة القبلية من تطور العقل بانكار مطرد للحوافز والدوافع • وقد رأينا كيف تصور فرويد أول مظاهر الانكار الغريزى نتيجة لخطيئة أصلية • فالتحريمات الخاصة بغشيان المحارم أو قتل الحيوان الطوطم وسعت من نطاق الكبت • ان كل خطوة من خطوات تاريخ الانسان كانت تبدأ ويمهد لها فعل من أفعال الانكار الغريزى • ومن ثم فان الكبت الأصلى لاحدى الغرائز هو فى رأى فرويد الشرط الأول للتقدم المادى • وكانت الغريزة التى ينكرها الانسان فى أكثر الحالات هى احدى مكونات الغرائز الجنسية • ويضرب فرويد أمثلة عديدة عن الانكار الغريزى ربما كان أكثرها اثارة ترجمته التحليلية النفسية لأسطورة بروميثيوس • ففى هذه الترجمة يقدم لنا فرويد تفسيره للكيفية التى سيطر بها الانسان على النار • ووصل الى تفسيره هذا عن طريق التأويل التحليلى النفسى للأسطورة حيث اعتبر الصور الخيالية رموزا ، وترجم الدلالات النمطية على نحو ما يترجم الرموز فى الأحلام •

× فرويد : « الطوطم والمحرمات » ص ١٤١ •

يقترض أولا التزاما بنظريته العامة « ان الحصول على النار اقتضى بالضرورة انكارا لاحدى الغرائز » ثم يشرع فى اعادة بناء الحدث الأعظم مهتديا فى ذلك بقراءة الرموز : « ان الأمر يبدو وكأن الانسان البدائى بعد ما أصبح على مقربة من النار أحس بدافع لاشباع لذة طفلية ومن ثم أطفأها بسيل من البول ٠ ان ما بين أيدينا من أساطير لا تترك مجالا للشك فى أن أعمدة اللهب التى ترتفع الى أعلى كأنها ألسنة كانت تولد لدى الانسان احساسا قضيبيا ٠ ولهذا فان التبول على النار لاطفائها يمثل فعلا جنسيا مع رجل واستمتاعا بفحولة جنسية فى مجال المنافسة الاستجناسية ٠ والقادر على أن يكون أول من ينكر على ذاته هذه اللذة ويبقى على النار مشتعلة هو القادر على حملها وامتلاكها وتسخيرها لخدمته ٠ ان من يقدر على أن يكبح جماح رغباته الجنسية ازاء النار يقدر على ترويضها وتسخيرها كقوة من قوى الطبيعة ٠ وهكذا كان هـــذا الانتصار الحضارى الأعظم ثوابا نظير الاحجام عن اشباع غريزة ٠ وفضلا عن هذا يبدو وكان الرجل عهد الى المرأة بمهمة الجلوس بجوار الموقد وحراســـة النار التى استحوذ عليها وذلك لأنها بحكم تكوينها التشريجى يستحيل عليها الوقوع فى مثل هذه الغواية » ٠ ×

ويفسر فرويد العقاب الذى حل ببروميثيوس حين أوثق بالسلاسل الى صـــخرة لتنهشـــه الجوارح اربا اربا ، بأنه الغضب الحاقد من قبل الهو وانتقاما لما عاناه من الكبت المتزايد ٠ ان « جريمة » بروميثيوس هى أنه « أنكر شهواته الغريزية وأبان عن مدى فائدة متل هذا الانكار وضرورته فى نفس الوقت تحقيقا لأهداف الحضارة » ٠ × ×

ويذهب فرويد الى أن المرحلة القبلية الســـابقة عـــلى التاريخ البشرى تضمنت آلافا من حالات الانكار الغريزى أو الكبت المماثلة والتى امتدت لفترة تقدر بعشرات آلاف من الأعوام ٠ وكل حالة من حالات الكبت كانت استهلالا لخطوة ، قصرت أم طالت ، على الطريق الى المرحلة المتحضرة فى تاريخ البشرية ٠ ويرى فرويد أن هذه العملية كان لها أثر مزدوج على الجهاز العقلى ٠ أولا كان اللاشعور أو الهو المثقل بالغرائز تزداد شحنته أكثر وأكثر من الدوافع المكبوتة مع كل حالة من حالات الانكار الغريزى على التوالى ٠ وهكذا صار الهو أشـــبه بمرجل تضطرم فيه الحوافز الفطرية المكبوتة والمتمردة وكلها مثقلة بشحنتها من الطاقة النفسية وتحاول فى اصرار وعناد أن تفرغ هذه الشحنة ٠ وكل تقدم يحرزه المجتمع يعنى مزيدا من الانكار والقمع للغرائز وبالتالى مزيدا مما يحويه الهو من مظاهر الكبت التى تحتفظ بشحناتها ٠ وهكذا أصبح الهو ، كما يقول فرويد ، « عماء ومرجلا ينوء بأسباب الاثارة المهتاجة » ٠ انه مثقل بالغرائز ومظاهر كبتها و « هذه الغرائز تشحنه بطاقة نفسية بيد انها غير منظمة وغير موحدة الارادة ، انها فقط حفز ينشد الاشباع للمتطلبات الغريزية خضوعا لمبدأ اللذة ٠ ان قوانين المنطق ـ وأولها قانون التناقض ـ لا تصدق على العمليات التى تجرى داخل الهو ٠ ان الدوافع المتناقضة تتجاوز داخل الهو دون أن

× درويد : « الحضارة ومساوئها » ص ٥٠ ـ ٥١ ٠

× × فرويد : « الأبحاث الكاملة » ٠ مجلد ٥ ـ ص ٢٩٠ ٠

يبطل أحدهما أثر الآخر أو يحرفه عن اتجاهه ٠٠ ان الهو لا يعرف بداخله شيئا يماثل فكرة الزمان ولا يعترف بمرور الزمن أو تغير العمليات العقلية بفعـــل الزمان ٠٠ والأفكار التي يزج بها الى أعماق الهو تظل خالدة أبدا ٠٠ وطبيعي ان الهو لايعرف شـــيئا اســـمه القيم أو الخير أو الشر أو الأخلاقيات ٠٠ ان الشحنات الغريزية الباحثة عن الانطلاق والتفريغ هي فى رأينا كل ما يحويه الهو » ٠ ×

وهكذا فبينما يرتكز التقدم فى المجتمع القبلى على انكار غرائز الهو وقمعها نجد الهو فى نفس الوقت يتزايد ثقله من الشحنات المكبوتة ٠ ان مطلب المجتمع هو مزيد من الضغط فوق غطاء مرجل الغرائز ونعنى به الهو ، بيد أن الهو ينصرف الى بناء قوة ضغط مقابلة ٠ وهذا جانب واحد من الآثار المزدوجة للتقدم الاجتماعي على الجهاز العقلى ٠

الجانب الثانى نشوء الأنا من الهو ممثلا الخبرة المتراكمة عن العالم الخارجي٠ اذ يصدر الأنا عن الهو أثناء تطور المجتمع القبلى ٠ وبينما يمثل الهو الانفعالات الجامحة ، يمثل الأنا الذكاء والعقل ٠ وبينما يعمل الهو التزاما بالاشـــباع الغريزى وحده دون سواه وفق مبدأ اللذة ، يعمل الأنا على أساس المعرفة وفق مبدأ الواقع ٠ وينشأ الأنا من خبرات النظام الادراكى وهدفه تمثيل متطلبات العالم الخارجى ٠

ولكن الأنا ضعيف كما يقول فرويد « انه يستمد طاقته من الهو ٠٠ واجمالا فان الأنا ملزم بتنفيذ مقاصد الهو » ٠ ثم يستطرد فرويد ليعطينا مثالا قياسيا « يمكن مقارنة علاقة الأنا بالهو بالعلاقة بين الفارس وجواده ٠ الجواد يمنحه طاقة الحركة فى المكان ، والفارس له حق تحديد الهدف وتوجيه حركات مطيته ذات القوة والعنفوان نحو الهدف المنشود ٠ الا أننا فى كثير من الأحوال نجد العلاقة بين الأنا والهو على غير الموقف المثالى المطلوب حيث يكون الفارس مكرها الى أن يوجه جواده الوجهة التى يريدها الجواد ذاته » ٠ × × ان الأنا ينوء بما يعانيه من ضغط شديد ابتغاء التحكم فى الغرائز والدوافع المكبوتة ٠ ومن ثم يتعين عليه أن يؤدى بنجاح هاتين الوظيفتين تلبية لمتطلبات العـــالم الخارجى ، والطبيعي والاجتماعى ٠ واذا حدث وأخفق فى مهمته فان الهو سيقود الأنا حيث الدمار على أيدى المجتمع القبلى (بسبب انتهاك المحرمات) أو على أيدى الطبيعة (بسبب اغفال الظروف الموضوعية) ٠ ومن ثم فنظرا لأن الأنا نشأ أثناء مسار المجتمع الطبقى فانه كما يذهب فرويد ، مجبر على خوض معركة ضد جبهتين : ضد الهو وضد العالم الخارجى ٠ الا أن هذا ليس كل ما فى الأمـــر ٠

ان الأنا ذاته ينقسم الى الأنا الحقيقى والأنا الأعلى أو الضمير ٠ وينشأ الأنا الأعلى بداية من الاحساس باللوم والذنب بسبب جريمة قتـل الأب ، وينمو ويتطور مع عملية الانكار الغريزى وهو فى حقيقة الأمر القوة الكابتة ٠ انه

× فرويد : « محاضرات تمهيدية جديدة » ص ١٠٤ ـ ١٠٥ ٠

× × المرجع السابق ص ١٠٨ ٠

ينشأ أول الأمر نتيجة للكبت ثم يصبح هو القوة الجبارة التى تطالب دائما بمزيد من الكبت • وهكذا فان الأنا الأعلى باعتباره عامل الانكار الغريزى يصير فى الواقع ، كما يقول فرويد ، القوة الحائزة للتطور الاجتماعي والعقلى • انه مستودع المحرمات ثم الأخلاقيات والقيم والمعايير الأخلاقية والأوامر والنواهى الدينية • والأنا الأعلى هو الذى يزج بالأنا فى معركته ضد الهو •

ويقف الأنا محصورا بين قوى ثلاثة : الهو والأنا الأعلى والعالم الخارجى • ويقول فرويد : يقول المثل السائر ان المرء يعجز عن خدمة سيدين فى وقت واحد ، والأنا المسكين يعانى مما هو أكثر من ذلك ، اذ أنه يخدم ثلاثة من السادة الغلاظ وعليه ان يبذل كل جهده ليوفق بين متطلبات واحتياجات الثلاثة معا • وهى متطلبات متباينة دائما وتبدو متنافرة فى أغلب الأحوال ، ومن ثم فلا عجب اذا ما خارت قوى الأنا مرارا تحت ثقل هذا العبء • والطغاة الثلاثة هم العالم الخارجى والأنا الأعلى والهو •• وهكذا ينخسه الهو ويستحثه الأنا الأعلى ويصده الواقع ، وبين هذا وذاك يناضل الأنا للوفاء بمهمته على نحو اقتصادى وذلك بخفض القوى والمؤثرات التى تعمل بداخله وتضغط عليه حتى يصل بها الى نوع من الاتساق » • ×

يقدم لنا فرويد على هذا النحو صورة كاملة عن العقل القبلى • فمن خلال الوحدة البسيطة للمجتمع البدائى والعقل الأولى ومن خلال الانكار الغريزى المتشدد للمجتمع القبلى انشق الجهاز العقلى الى ثلاث شعب • ويقف كل عنصر من المكونات الثلاثة ــ الهو والأنا والأنا الأعلى ــ موقف العداء من الآخر فى صراع محتدم ومتنافر • ولكن على الرغم مما تبدو عليه صورة العقل القبلى من كآبة الا أنها أقل كآبة بكثير بالقياس الى الانسان المتحضر كما تصوره فرويد •

يذهب فرويد الى أن العقل مر بمرحلتين من التطور نشأ عنهما العقل المتحضر ومن ثم أدى هذا الى المجتمع المتحضر : عودة المكبوت والتسامى •

ويقصد فرويد بعودة المكبوت مفهومه عن الميراث القديم الذى أسلفنا ذكره • اذ أثناء تطور العقل القبلى الذى امتد الى عشرات الآلاف من السنين أصبحت بعض التكوينات العقلية تكوينات وراثية • ويرى فرويد ان السمات العقلية والذكريات والدوافع والأفكار التى تم توارثها بيولوجيا كلها مختزنة فى لا شعور الانسان ، وقد فطر عليها كل من الأنا الأعلى اللاشعورى والهو اللاشعورى • مثال ذلك الدافع الغريزى لتكوين علاقات جنسية محرمية هو دافع فطرى فى الهو ، اما التحريم القبلى لغشيان المحارم فهو فطرى فى الأنا الأعلى • مثال آخر : الدافع اللاشعورى للتبول على النار دافع فطرى فى الهو والتحريم القبلى لهذا السلوك فطرى فى الأنا الأعلى • ولقد انفصل العقل المتحضر عن العقل القبلى البدائى جزئيا بفعل القسمات الفطرية للميراث القديم أى عودة المكبوت خلال نشوء وتطور النوع •

ويرى فرويد ان هذا الارث العقلى الذى يمتد عمره الى آلاف الأعوام هو دائما فى حالة تناقض بمعنى ان محتوى الهو يحفز دائما الى الاشباع أما محتوى

× المرجع السابق ص ١٠٩ •

الأنا الأعلى فينسخ هذا الأمر · والعقل المتحضر يحب ويكره في آن واحد · اذ أن جانبا منه على سبيل المثال يرتكز على الدافع الفطرى (الهو) للارث القديم الخاص بكراهية الأب القبلى والذى بلغ ذروته فى قتل الأب ، ولهذا يكره الابن فى العصر الحديث أباه ، ولكنه يرتكز أيضا فى تناقض وجدانى على الاحساس الفطرى بالذنب (الأنا الأعلى) والندم على هذه الخطيئة الأولى ، ولهذا يحب الابن فى العصر الحديث أباه · مثال آخر ، بناء على الغريزة الوراثية منذ عصر ما قبل التاريخ المتمثلة فى الرغبة فى غشيان المحارم فان الابن الحديث يجد فى نفسه دوافع لا شعورية (الهو) نحو تكوين علاقات جنسية مع أمه ، ولكن بناء على التابو الفطرى (الأنا الأعلى) وتحريمه لغشيان المحارم فان الابن الحديث يجد نفسه عزوفا عن هذه الدوافع المحرمية · وهكذا فان جذور عقدة أوديب تمتد الى ما يختزنه العقل فطريا ·

يقول فرويد « ان انسان ما قبل التاريخ باق كما هو فى لا شعورنا » · × ويذهب أيضا الى أن « ميراث البشرية القديم ليس قاصرا على نزعاتنا بل يتضمن أيضا محتويات فكرية وتذكارات لخبرات الأجيال الأولى » واذا كان ثمة بقية من شك فى المعنى الذى يقصده فرويد فاليك ما يردفه من قول « أجد لزاما أن أقرر بعد أن فكرت للمرة الثانية اننى حاجيت ظنا منى أن الشك لا يتطرق الى ما ذهبت اليه عن وجود ارث من تذكارات خبرة أسلافنا الأول مستقلا تماما عن الاتصال الشفاهى المباشر أو تأثير التربية على سبيل المثال · اننى حين أتحدث عن تراث قديم لا يزال باقيا فى شعب من الشعوب أو عن نشوء طابع قومى فاننى أعنى به هذا التراث المتوارث وليس تراثا تناقلناه شفاها ·· حقا ان التسليم برأى كهذا يبدو الآن أكثر صعوبة بسبب الموقف الراهن لعلم الأحياء الذى يرفض فكرة الانتقال الوراثى للصفات المكتسبة ·· اننا اذا ما سلمنا بالوجود المتصل لمثل هذه التذكارات فى ارثنا القديم فاننا نكون بذلك قد اجتزنا الهوة الفاصلة بين سيكولوجيا الفرد والجماهير ومن ثم يتسنى لنا أن نتناول الشعوب على نحو ما نتناول به الفرد العصابى · اننا وان كنا نقرر صراحة وجود تذكارات من ارثنا القديم الا اننا لا نملك برهانا أقوى من الآثار الباقية للذكريات التى يستثيرها العمل التحليلى وهو ما استلزم القول بنشوئه خلال تطور النوع ، ورأيت فيه برهانا مقنعا بما فيه الكفاية يبرر لى أن أفترض مقدما ما ذهبت اليه » · ثم يستطرد فى كلامه مرددا نفس العبارة التى لا يفتأ يكررها فى معرض حديثه عن افتراضاته للتدليل على أنه بدون مثل هذا الافتراض أو ذاك فان التحليل النفسى لن يحرز أى تقدم : « لو كانت الأمور على غير هذا النحو فاننا سنعجز عن التقدم خطوة واحدة الى الأمام سواء فى التحليل النفسى أو فى سيكولوجيا الجماهير » · ان مفهوم الارث العقلى الفطرى والمتوارث منذ المجتمع القبلى يمثل قسمة جوهرية وبصورة مطلقة للتحليل النفسى عند فرويد · ويقول فرويد : « انه افتراض نزق ولكنه حتمى » · اذ بدونه ستصبح الرمزية النمطية وترجمة الرمز اجراءين عقيمين عاجزين عن أداء وظيفتهما كعوامل كشف عن العمليات العقلية اللاشعورية ·

× فرويد : « الأبحاث الكاملة » ـ ص ٣١٣ ·

ويذهب فرويد الى ان الفكرة التذكارية للفعلة الشنعاء المتعلقة بالخطيئة الأولى والتى دفعت العقل والمجتمع فى مسارهما التطورى هى وديعة عقلية وراثية مختزنة فى لا شعور الانسان · ان الناس يعرفون لا شعوريا ان قد كان لهم أبا فى البدء وأنهم قتلوه · « بعد كل هذه الاعتبارات (أى تأكيد واقعية الارث العقلى القديم) لا يراودنى أدنى شك فيما أقول من ان الناس يعرفون دائما — على هذا النحو الخاص — انه كان لهم فى قديم الزمان أب بدائى وقتلوه » · ×

ان مسألة عودة المكبوت فى صورة ميراث عقلى فطرى توارثه الناس بيولوجيا عن الانسان الأول انما هى مسألة فاصلة بالنسبة لفكر فرويد · ذلك لأن غرائز الانسان أو الحيوان وحدها فى صورتها البسيطة محدودة الطابع للغاية بحيث لا تفى بمتطلبات علم اللاشعور · اذ لو تخلى عن اصراره على مفهوم الميراث الفطرى القديم فان مزاعمه عن الجدة أو اكتشاف العالم التحتى للاشعور ستصبح كلها ضربا من المحال ، أو سيضطر فى أحسن الأحوال الى النظر الى عقدة أوديب ومراحل الجنسية الطفيلية وماعداهما باعتبارهما جميعا سمات مكتسبة للشخصية مرهونة بشعب بذاته وطبقة بذاتها تعيش فى مكان أو زمان محددين ويسقط زعم الشمول · ولكن دعوى الميراث العقلى الذى يتوارثه الانسان منذ زمان سحيق هى التى تبرر له الزعم بشمولية اكتشافاته » ·

ان واجب العقل المتحضر فى رأى فرويد ليس قاصرا على نبذ وقمع وضمان استمرارية كبت غرائز الهو الفطرية بل عليه أيضا أن يكبت كل ما يتعلق بالميراث الفطرى القديم الذى توارثه عن الانسان القبلى الأول · وهذه المهمة الأخيرة مهمة شاقة للغاية · ان عبء العقل المتحضر أشق بعشرات المرات اذ أنه مضطر الى أن يوزع جهوده ما بين مواجهة عودة المكبوت وبين الانكار الغريزى فى صورته الأولية ·

ولكن العقل المتحضر يعانى عبئا آخر غير هذه الصعوبات ويمثل خسارة ينوء بثقلها بالقياس الى العقل القبلى · ذلك أن العقل القبلى لم يكن ملتزما بحدود صارمة فيما يتعلق باشباع الغرائز الجنسية والحوافز والدوافع والانفعالات · فلم تكن قد ظهرت بعد تشريعات وحدة الأزواج والزوجات ومن ثم فان الطاقة النفسية للغرائز المحرمة كان من الميسور تحويلها لتحقق الاشباع الكامل للغرائز الجنسية الغيرية والطليقة وغير المحرمية · ويذهب فرويد الى أن الطاقة النفسية للغرائز الجنسية ، أو الليبيدو ، كانت أكثر سيولة من غيرها بحيث كان من الميسور ابدال هدفها دون أن تفقد شدتها · × × ان الانسان الأول لم تكن به حاجة كبيرة لتحويل الطاقة النفسية الجنسية أو الليبيدو الى نشاط غير جنسى وذلك بسبب ما كان يتمتع به من حرية كبيرة فى اختيار النشاط الجنسى بصورته المحددة ·

وتغير الموقف جذريا ، كما يقول فرويد ، مع ظهور نظام وحدة الأزواج والزوجات بدافع من الأنا الأعلى · وضاقت أمام العقل المتحضر السبل الكافية للتنفيس الجنسى واضطره هذا الى التسامى بطاقته · والتسامى يعنى تحويل

× فرويد : « موسى والتوحيد » — ص ١٥٧ — ١٥٩ ·

× × فرويد : « الأعمال الكاملة » — مجلد ٢ — ص ٨٢ — ٨٣ ·

الليبيدو الى نشاط لا جنسى كمتنفس للطاقة النفسية الجنسية المحيطة . وهكذا نجد ان الثقافة والحضارة ، أو المجتمع الحديث ، هما نتاج عمليةالتسامى التى تعد سمة خاصة مميزة للعقل المتحضر . يقول فرويد : « التسامى بالغريزة قسمة خاصة بالتطور الحضارى والثقافى ، انه هو الذى ييسر العمليات العقلية الراقية والنشاطات العلميه والفنية والايديولوجية بحيث تؤدى ما نلمسه من دور جليل الشأن فى الحياة المتحضرة » . ×

وما ان بدأ العقل البشرى يخطو أولى خطواته على الطريق الى الحضارة والثقافة حتى خلق لنفسه المزيد والمزيد من الصعوبات . اذ أن كل خطوة اقتضت منه مزيدا من الانكار الغريزى والقمع للارث القديم ، ومن ثم مزيدا من القيود المفروضة على الاشباع الغريزى وبخاصة ما له طابع جنسى وهو ما يعنى بالتالى مزيدا من التسامى بالليبيدو . ومع اتصال حركة التقدم أصبح عسيرا أكثر وأكثر تحقيق تحول كاف للطاقة الغريزية نحو غايات اجتماعية مقبولة . وما أن بلغ العقل المتحضر نقطة بذاتها حتى بات عقلا عصابيا مزمنا وبصورة عامة وشاملة نتيجة نقص الاشباع الجنسى وقصور التسامى . معنى هذا أن الحضارة والثقافة ، فى رأى فرويد ، قادتا الانسان حتما الى الاحباط والبؤس والعطب على الرغم من كل المنجزات الكبرى التى حققها العصر الحديث أو أن هذا كله على وجه الدقة والتحديد بسبب التقدم الكبير حضاريا وماديا وثقافيا .

والليبيدو الذى يعجز عن ايجاد وسيلة لتفريغ شحنته مباشرة أو عن طريق التسامى فانه فى أكثر الأحوال سيجد متنفسا له فى التوتر والقلق والأعراض العصابية . وينتهى فرويد الى رأى محدد بالنسبة لانسان المجتمع المتحضر يتمثل فى قوله : « اننا جميعا مرضى أى عصابيون » × × ويذهب فى تخمينه الى حد القول « ان كثيرا من نظم الحضارة ــ أو عصورها وربما الانسانية جمعاء ــ أصبحت كلها عصابية تحت ضغط تيارات التحضر » . ثم يحدثنا بعد ذلك عن « تشخيص العصاب الجمعى » و « باثولوجيا المجتمعات المتحضرة » . × × ×

ان الغرائز الجنسية والميراث الجنسى القديم بشكليهما الليبيدى للطاقة النفسية يؤلفان المحتوى الرئيسى وليس الوحيد للاشعور المكبوت . أما غرائز الموت والتى تتضمن بوجه خاص غرائز العدوان والقسوة والتدمير فانها أيضا ، فيما يرى فرويد ، تخضع للكبت أثناء مسيرة التطور الاجتماعى بيد أن حصيلة كبت هذه الغرائز ليس عصابا جمعيا وانما تدميرا جمعيا فى شكل حرب . ان غرائز الموت والتدمير والعدوان هى العلة الأخيرة للحروب ومحاكم التفتيش طوال تاريخ الحضارة .

× فرويد : « الحضارة ومساوئها » ــ ص ٦٣ .

× × فرويد : « محاضرات تمهدية عن التحليل النفسى » ــ ص ٣٠٠ .

× × × فرويد : « الحضارة ومساوئها » ــ ص ١٤١ ــ ١٤٢ .

ويحدثنا فرويد عن الانسان البدائي الذى لا تزال سماته العقلية جزءا من مكونات لا شعورنا فيقول : « لقد كان فى حقيقة الأمر كائنا جبارا عاتيا أكثر قسوة وأكثر خبثا من الحيوانات الأخرى • كان يشتهى القتل ومارس القتل بالفعل » • ولكن اذا ما حدث وتخففت لفترة القيود الاجتماعية المفروضة على غرائز العدوان ، خلال الحرب على سبيل المثال ، فان الانسان المتحضر ، فيما يرى فرويد ، يرتد الى حالته البدائية • « ربما لم تكشف الحالة الأولية للعقل عن ذاتها لأعوام عدة الا أنها قائمة على الرغم من ذلك بحيث يمكن أن تعود فى أى فترة لتصبح أسلوب التعبير عن القوى الكامنة فى العقل وكأن كل ما حققه الانسان من تطور وارتقاء قد انحل وتهافت •• ان المراحل البدائية قابلة دوما للعودة من جديد » • ويخلص فرويد الى النتيجة التالية : « وهكذا فاذا شئنا أن نحكم على أنفسنا بمنطق رغباتنا الكامنة فى اللاشعور فنحن جميعا ، مثل الانسان البدائى ، عصبة من القتلة » •

وفى عام ١٩١٥ كتب فرويد عن الحرب العالمية الأولى التى كانت ناشبة آنذاك « يمكن أن نستخلص من ملاحظاتنا السابقة العزاء التالى ـ ان شعورنا بالخزى وتحررنا من الوهم المفجع فيما يتعلق بالسلوك غير المتحضر لأبناء جلدتنا فى هذه الحرب انما هما أمران لا مبرر لهما • انهما يرتكزان على وهم تخلصنا منه • ان مواطنينا فى واقع الأمر لم يغرقوا الى الحضيض كما كنا نخشى ذلك لأنهم لم يسموا الى مستوى رفيع كما كنا نعتقد • ان الوحـــدات الكبرى للانسانية ، الشعوب والدول ، قد نقضت جميعها قيـــودها الخلقية مما هيأ لأفرادها فرصة التحرر لفترة من ضغط الحضارة الشديد الوطأة ، والتمتع بقدر من الاشباع العابر لغرائزها المكبلة » • × فالحرب عند فرويد تمرد دورى وحتمى من جانب غرائز الموت والعدوان ضد أغلال المجتمع والأنا الأعلى للفرد •

ان الحضارة والثقافة قد تم بناؤهما فى رأى فرويد « على أساس انكار الارضاء الغريزى » وبخاصة الغريزتين الأساسيتين : الجنس أو ايروس والموت أو العدوان • وكبت غريزة الموت ينتهى عند عودة المكبوت فى صورة الحرب ، وكبت غريزة الجنس ينتهى عند عودة المكبوت فى صورة أعراض عصابية •

ان النظرة التى يقدمها التحليل النفسى نظرة كئيبة حقا ، ولا غرابة فى أن صاحبها كان متشائما • لقد كان فرويد مقتنعا باتجاهه الفكرى الذى يقضى بأن « ثمن التقدم الحضارى هو فقدان السعادة » × × وانتهت به نظريته فى علم النفس الاجتماعى الى أن بات يتساءل عما اذا كانت الحضارة تستحق كل هذا الجهد •

هذا هو الحل الذى يعرضه فرويد لمشكلة نشأة العقل البشرى وتطوره من الحالة البدائية الى حالته المتحضرة • ولننتقل الآن لدراسة الأشكال المتباينة لتطور العقل المتحضر من الطفولة الى الرشد ـ وهو الحل الذى قدمه فرويد للمشكلة الأساسية الثانية فى علم النفس •

× « الأبحاث الكاملة » ـ مجلد ٤ ص ١٠٣ ، ٣٠١ ، ٣١٤ ، ٣٠٠ •

× × فرويد : « الحضارة ومساوئها » ص ٦٣ ـ ١٢٣ •

من عقل الطفل الى عقل الراشد

توصل فرويد في ضوء تحليله لمرضاه الى حله لمشكلة التطور النشوئى الفردى للعقل الانسانى ، وعلى الرغم من أن هذا يعنى قياس السوى بالمريض الا أن فرويد لم ير بأسا فى ذلك لانه يؤمن بأن ليس ثمة خط فاصل حقيقى بين الصحة العقلية والمرض العقلى على نحو ما رأينا فى نظرته للتطور النوعى للعقل — فنحن جميعا عصابيون • واذا كان ثمة فارق ، فهو فارق من حيث الدرجة وليس من حيث النوع •

انتهى فرويد الى نتائج معينة بالنسبة لأطوار نمو العقل الفردى وذلك من خلال تفسيره ، على هدى ترجمة الرموز ، للمحتوى الذاتى للأمراض العصابية عند مرضاه — تخييلاتهم وحالات التثبيت والهجاس والأحلام • وذهب الى أن هــذه الأطوار توازى بصورة عامة أطوار التطور العقلى من المجتمع البدائى الى العقــل المتحضر •

فعقل الطفل يماثل عقل انسان ما قبل التاريخ السابق على جريمة قتل الأب • معنى هذا أن الطفل الوليد ليس لديه أنا أعلى (نشطا) وأن أناه محصور فى اطار الخبرة الحسية للعالم الخارجى على نحو ما كان بالنسبة لانسان ما قبل التاريخ • ولكن الهو عنده هو الشىء الوحيد الفعال ولا يخضع لأى عمليات كبت باطنية • ومن ثم لا يكون ثمة انفصــــال بعد بين الهو والأنا أو بين الأنا والأنا الأعلى • فعقل الطفل يشكل كلا واحدا متسقا •

ولكن ثمة فارق كبير بين عقل الطفل الوليد وعقل انسان ما قبل التاريخ • فلكى يصل هذا الى مستوى العقل المتحضر اضطر الى تحصيل خبرات على مدى آلاف من السنين • والتى أصبحت رويدا رويدا خبرات موروثة ، أما الطفل فانه يولد مزودا بتكوين فطرى يتضمن كل الأطوار الأساسية فى تاريخ التطور النشوئى النوعى ، ومن ثم فهو تكوين متماثل فى مجمله عند أفراد النوع ويأخذ طابعه الفردى من خلال تقلب ظروف الحياة • واللاشعور هو مركز هذا التكوين العقلى الفطرى ، ويتضمن اللاشعور الهو والعناصر اللاشعورية للأنا والأنا الأعلى • انه يشتمل على الغرائز فى صورتها العامة : ايروس والموت ، وعناصر كبتهــا وعودة المكبوت والميراث العقلى القديم من ذكريات السلالة والمحرمات والصور الفطرية المنحرفة التى يلجأ اليها تحت ضغط الكبت لتفريغ الشحنة الغريزية • وتتضمن هذه الفطرية : أولا أطوار الجنسية الطفلية ، وهى كما يرى فرويد ، انحرافات وراثية يمر بها كل الأطفال حتما ، ثانيا : التكوينات الأوديبية وهى عند الصبية غيرها عند البنات ، ثالثا : ظاهرتا عقدة الخصاء والغيرة القضيبية ، رابعا : نزوع نحو السادية والمازوخية • وهذه كلها أطوار وراثية و « سوية » و « صحية » ويمر بها الأطفال جميعا وبصورة حتمية خــلال عملية النمو من الطفولة الى الرشد فى المجتمع المتحضر ، ولكنها تظل فى حالة سبات الى أن توقظها دواعى النمو وظروف الحياة •

الجنسية الطفلية :

يركز فرويد جهده الأساسى على السنوات الأولى للطفولة ذلك لأن الفرد خلال هذه الفترة يعيد كل مسيرة التطور النشــوئى النوعي [١] • يقــول فرويد :

« يعيد كل فـرد أثناء طفولته وعلى نحـو مختصر كل مســار التطور للجنس البشرى » • × وسبق أن عرفنا رأى فرويد عن تطور الجنس البشرى اذ يرى فيه قصة الكبت المتوالى للغرائز الحيوانيه لانسان ما قبل التاريخ والانســان البدائى والسمات العقلية للارث القديم • ومن ثم لن ندهش اذا ما رأى فرويد ان الطـور الأول للعقـل الطفلى طـور آكل لحـوم البشر Cannibalistic phase وتوصل الى رأيه هذا من خلال ترجمة لغة الاحلام الرمزية والأساطير والتخييلات (وهى فى ذاتها وسيله للتعبير لم يكتسبها الفرد وانما يتعين علينــا أن ننظر اليها « باعتبارها ميراثا للنوع ») وطور آكل لحوم البشر الذى يبدأ به العقل البشرى انما هو مظهر جنسى للمرحلة قبل التناسلية ويتركز حول المنطقــة الشهوية للفم ويتجلى فى صورة الرضاعة والمص والاكل •••••• والهدف الجنسى لهذه المرحلة هو « تجسد الموضوع ليكون جزءا من جسد الذات » • ويسـمى فرويد هذا الطور « المرحلة الفمية أو ان شئت فسمها مرحلة آكل لحوم البشر • والخاصية المميزة لها سيطرة الدافع الغريزى الأولى لالتهام الأشياء • أما الطور الثانى الســابق على المرحلة التناسـلية فهو » التنظيم الســادى الشرجى Sadistic anal organization وتتميز هذه المرحلة بخاصية دافع « السيطرة » وبخاصة السيطرة على الأمعاء والتحكم فيها وتتضمن « الأغشية المخاطية الشهوية للأمعاء » وهذا الطور صورة وراثية طفلية لغرائز القسوة والعنف عند انســان ما قبل التاريخ والتى طال كبتها •

ان فرويد يصطنع رابطة بين غرائز انسان ما قبل التاريخ وبين المناطق الشهوية الخاصة وهدفه من هذا الاشارة الى أن الانحرافات الجنسية التى لعبت فيها هذه المناطق دورا غلابا أصبحت اشباعات بديلة لغرائز العدوان المكبوتة • فالغرائز الأصلية عند الطفل الوليد (آكل لحوم البشر أو العدوان أو السادية) وكذلك التكوينات البديلة (الانحرافات الجنســية) هى عنده جزء من الارث القديم فى عقل الانسان الحديث • ويجب على الطفل أن يكبت بنجاح أو أن يسمو بكل من الغرائز وأشكال التعبير المنحرفة التى تأتى نتيجة لكبتها البدائى • واذا لم ينجح الطفل تماما فى كبت هاتين المرحلتين أو التســامى بهما فانه أما أن يثبت عند أحديهما أو أن ينكص اليهما فى أواخر حياته •

يبين لنا هنا خطورة شأن مفهوم فرويد عن الميراث العقلى الفطرى القديم بالنسبة الى مذهبه • ذلك لأن هذا المفهوم هو الركيزة الوحيدة التى يمكن أن يستند اليها ليبرر عقلا الزعم بتلاحم الغرائز البدائية أثنـاء الطفولة مع عودة المكبوت فى صورة انحرافات جنسية فطرية • وهو مفهوم حاسم وأساسى عند فرويد نظرا لأن شخصية الفرد مستقبلا وحالته من حيث السواء والصحة العقلية انما تعتمد كثيرا على الطريقة التى يتم بها كبت أو اعلاء المراحل الطفلية قبــل التناسلية •

اذن فالسنوات الأربع الأولى من حياة الطفل هى الفترة الحرجة والحاسمة • وبعد سن الرابعة تدخل الحياة الجنســية للأطفال فترة كمون تمتد الى سن

× فرويد : « محاضرات تمهيدية عن التحليل النفسى » ـ ص ١٦٨ •

× × فرويد : « الجنسية الطفلية » ضمن مجموعة « المؤلفات الأساسية » ص ٥٩٧ ، ٥٩٨ •

المراهقه . ومن المراهقة الى البلوغ يمر الطفل السوى من المرحله القضيبية الى التناسلية بيد ان المراحل القبتناسلية فى السنوات الاربع الاولى هى التى تحدد الى درجه كبيرة كل مسار حياة الفرد . ولنحاول أن نتبين معا كيف يستخلص فرويد سمات الشخصية من خلال المراحل القبتناسلية . ولنأخذ كمثال على ذلك العلاقه بين المرحلة الشرجيه السادية وبين نشوء نمط خاص للشخصية . ×

ان نمط الشخصية موضوع البحث يكشـــف عن تآلف منتظم لثـلاث خصائص : النظام والبخل والعناد . ويقرر فرويد أن شخصية لها هذه الخصائص هى امتداد للطفولة ومشتقه عنها حيث استمرت المرحلة الشرجية السادية فترة أطول من المعتاد فقد طالت حتى أصبح من الممكن تصنيف الطفـــل باعتبـــاره « متعلقا بالشرج » . ومن ثم فانه يفسر سمات الشخصية فى ضوء تســـامى الانحراف الجنسى الطفلى للتعلق الشرجى .

ويتتبع فرويد تاريخ سمة العناد فيردها الى أن الطفل المتعلق شرجيا يقضى فترة أطول لافراغ أمعائه وتعلم كيفية التحكم فيها . يقول فرويد : « نظرا لأن الأطفال يدخلون فى عداد أولئك الذين يرفضون افراغ الأمعاء عندما يجلسون فوق المبولة بسبب ما يستشعرونه من لذة فى حالة التبرز ...... يمكن لنا أن نستخلص مما سبق أن الدلالة الشبقية للمنطقة الشرجية تزداد قوة فى التكوين الجنسى الفطرى لدى هؤلاء الأشخاص » . وسرعان ما يتسامى المرء بهذا العناد فى افراغ الأمعاء والذى يشعر معه بلذة جنسية . والتسامى هنا يعنى التخلى عن الهدف الجنسى وتحويل الطاقة الليبيدية كلها أو بعضها الى عناد عام . ومن ثم فاذا كان التعلق الشرجى هو فى ذاته اطالة للمرحلة الشرجية الســـادية فانه يؤدى الى ظهور سمة دائمة للشخصية تتحدد خلال الأعوام الأربعة الأولى من حياة الطفل . ويحدث التسامى عن طريقين : أولا : بسبب الأنماط الوراثية المشتقة عن التطور السلالى ، وثانيا : بسبب الضغط من جانب المجتمع فى شكل تحديد لأسلوب قضاء الحاجة .

ويحاول فرويد أن يكشف عن وجود رابطة بين النظام والمرحلة الشرجية السادية التى ثبتت لفترة فى شكل تعلق شرجى . ويفسر فرويد هذه الرابطة بأنها « تكونت كرد فعل ضد الأشياء القذرة والطفيلية والتى ينبغى ألا تعلق بالجسم » . والتسامى هنا يعنى تحول هـذا الدافع الى دافع للنظـام فى دقائق الأمور .

ويحاول أخيرا الربط بين التعلق الشرجى والبخل أو حب المال متوسلا الى ذلك بالرمزية التى يستخدمها فى تفسير الأحلام والأساطير . يقول فرويد « حقيقة الأمر أنه حيثما نجد الأنماط القديمة للفكر هى صاحبة الغلبة والسيادة أو حيثما نجـدها قائمة ومستمرة ــ فى الحضارات القديمة وفى الأساطير وقصص الجان وفى الأفكار اللاشعورية والأحلام وفى أمراض العصاب نجد النقود ذات علاقة وثيقة بالغائط » . ويذهب فرويد الى أن الطفل المتعلق بالشرج حريص على برازه ضنين به يبخل به على أمه أو حاضنته . وبعد أن يتحقق التسامى يظهر فى نفس الوقت حب المال ومن ثم ييسر تحويل الهـــدف الجنسى من البراز الى المال . يقول فرويد : « ان التعلق الشرجى الأول فى حالة التبرز مصيره كمـا

× فرويد : « الأبحاث الكاملة » مجلد ٢ « الشخصية والتعلق الشرجى » ص ٤٥ ــ ٥٠ .

تعلمون الى زوال فى الأعوام التالية • وفى هذه الاعوام ذاتها يبدأ حب المال فى الظهور وكأنه شىء جديد غير معروف فى سن الطفولة وهذا من شأنه أن ييسر على الدافع ، الذى يوشك أن يتخلى عن هدفه ، الانتقال الى الهدف الجديد » • ×
ان ما يحرص عليه فرويد هنا هو التأكيد على فطرية الرابطة باعتبارها جزءا من الميراث القديم الذى توارثناه منذ العصور الأولى • ان المال والغائط متلازمان فى لاشعور النوع حسب ما كشفت عنه ترجمة الرموز فى الأحلام والاساطير •

ان التثبيت الوقتى للمرحلة الشرجية السادية هو علة الانحراف الجنسى الطفلى والذى يسميه فرويد التعلق الشرجى ، وهو الذى يؤدى بدوره عن طريق التسامى الى التآلف بين ثلاث سمات دائمة للشخصية • ولهذا يسمى فرويد نمط الشخصية التى تتسم بالعناد والنظام والبخل « الشخصية الشرجية » ويتحدث فرويد عن أبحاث المستقبل فى ميدان التحليل النفسى فيقول : « أولى بنا أن نتدبر لنرى ما اذا كانت هناك أنماط أخرى للشخصية قد تكشف عن رابطة بينها وبين قابلية الاستثارة لمناطق شبقية بذاتها • ومن ثم يمكن التحدث عن أنماط الشخصية فمية وأخرى قضيبية وثالثة تناسلية • ولقد قام أتباع فرويد بأبحاث من هذا النوع فعلا •

عقدة أوديب

فرغنا الآن من عرضنا لنظرية فرويد عن النمو المرحلى لعقل الطفل فى علاقته ببعض المناطق الشبقية والغرائز والميراث القديم • أما عقدة أوديب فانها تتعلق باكتشاف الموضوعات الجنسية ابان مراحل النمو المختلفة •

ان عقدة أوديب عند فرويد هى « ظاهرة تحددها الوراثة بالنسبة للطفل » ويرى أن ظروف حياة الفرد تحدد فقط الصورة الخاصة للعقدة ، أما القسمات العامة فهى فطرية ومن ثم فهى واحدة فى كل الحالات • وعقدة أوديب هى أهم تراث فطرى ورثه الانسان عن المجتمع البدائى • والعناصر المكونة لها هى أولا غريزة المجتمع البدائى التى تتضمن علاقات جنسية محرمية ، وثانيا الميراث الفطرى القديم والذى يتضمن تحريم كل من غشيان المحارم وقتل الطوطم رمز الأب × ×

ويذهب فرويد الى أن كل شىء يتوقف على الكيفية التى تتحقق بها عقدة أوديب ولهذا فان كل ما يلزم عنها يعد أمرا حاسما سواء بالنسبة للفرد أو بالنسبة للمجتمع فى نهاية الأمر •

اذن ما هو تصور فرويد لهذه العقدة المصيرية ؟

يبدأ الطور التواكلى أو البدائى لعقدة أوديب فى المرحلة الفمية لنمو الطفل• وقوام هذا الطور أن الطفل يأخذ ثدى أمه (أو مرضعته) كموضوع جنسى •

× المرجع السابق ـ ص ١٦٤ •

× × فرويد : « ثلاث اسهامات لنظرية الجنس » ـ الأعمال لأساسية ـ ص ٦١٧ • يقول فرويد هنا :«ان السياج المحرمى قد يعود الى المكتسبات التاريخية للبشرية ، وهو مثل غيره من المحرمات الخلقية لابد وأن يثبت عند كثير من الأفراد من خلال الوراثة العضوية : « محاضرات تمهيدية عن التحليل النفسى » ص ٢٧٨ •

وحقيقة الأمر أن الثدى يلبى احتياجات غذوية وليبيدية معـا ، وهذا يعنى فى رأى فرويد أن المكون الشبقى يعتمد أول الأمر على غريزة الطعام ·

ولكن سرعان ما يبدأ الطفل في المص ابتغاء لذة المص ذاتها ، وقد يستبدل اصبعه بالحلمه · وهنا ينفصل الطفل عن الطور الأولى لعقدة أوديب ويستبدل عنصرا من جسده بثدى أمه كموضوع جنسي · وتحدد هذه الخطوة الانتقال الى طور العشق الذاتى الطفلى · وتتضمن أطوار النمو التالية انكار العشق الذاتى والاهتداء الى موضوع جنسي خارجي في صورة انسان ·

يظل نمط النمو واحدا حتى هذه المرحلة عند كل من الصبية والبنات ، وهى المرحلة التى تستغرق العامين الأولين تقريبا · ولكن يبدأ كل منهما فى اتخاذ طريق منفصل عن الاخر منذ اللحظة التى يهتدى فيها الطفل الى موضوع جنسي في صورة انسان · أمـا الولد الصغـير فتنشأ لديه « شحنة لموضوع جنسي متجها نحو أمه مباشرة » × وتتجه شحنة البنت نحو أبيها · والنتيجة المترتبة على ذلك هى التي تحدد الفارق الكبير بين الطابع الذكرى والأنثوى للشـــخصية والقدرة العقلية ·

يقول فرويد : « ان المهمة الملقاة على عاتق كل انسان جديد هى التحكم فى عقدة أوديب · » × × ان انسان المستقبل سواء الرجل أو المرأة انما يتوقف على الكيفية التى يتم بها انجاز هذه المهمة · بيد أن الوراثة هى التى حددت أولا الطريقة التى يتوسل بها الذكر أو الأنثى لتحقيق ذلك ، والوراثة هنا تعنى كلا من القسمات الفطرية المختلفة للجنسين والخصائص الجبلية الفطرية للفرد · ولنبدأ كما بدأ فرويد بعرض الطريقة التى تتشكل بها عقدة أوديب عند الصبية ·

فى الوقت الذى يجد الطفل الذكر فى أمه موضوعا جنسيا تكون العملية العقلية المنوطة بكبت غرائزه الجنسية قد بدأت · وهنا تكون معرفته بأهدافه الجنسية قد توارت ومن ثم يتراءى له تعلقه الجنسى بأمه وكأنه علاقة حب بسيطة · ان أمه هى موضوع حبه · ولكن فى هذا الوقت أيضا ينشط السياج المحرمى القديم الفطرى وتعضده التحريمات التى يفرضها المجتمع الحديث · وهذا من شأنه أن يدعم سلوكه الذى يخفى به الطبيعة الجنسية لوجداناته تجاه أمه ·

وفى نفس هذا الوقت أيضا ــ وهى فترة حاسمة وحرجة فى حياة الطفــل الذكر ــ يكشف الطفل عن اتجاه متناقض وجدانيا تجاه أبيه · اذ يوجد الطفل من ناحية بينه وبين أبيه فيعجب به ويود أن يكون « مثله تماما » عندما يكبر ، أى يتخذ من أبيه مثالا له · ويلحظ الطفل من ناحية أخرى أن أباه يقف فى طريقه الى أمه ومن ثم ينظر اليه كمنافس يقطع عليه الســبيل · وتنمو هــذه الوجدانات لتأخذ فى النهاية صورة الرغبة فى التخلص من الأب واحتلال مكانه · وهنا يأخذ شعور التوحد مع الأب محتوى متناقضا وجدانيا يتضمن الاعجاب والتوقير من ناحية ورغبة الموت من ناحية أخرى · وهذا أيضا مظهر تتجلى فيه مشاعر أبناء المجتمع البدائى تجاه أبيهم منذ عشرات الآلاف من السنين أى رغبتهم فى أن يكونوا على شاكلته وأن يقتلوه فى نفس الوقت ·

× فرويد : « سيكولوجيا الجماعة وتحليل الأنا » ص ٦١ ·

× × فرويد : « الأعمال الأساسية » ــ ص ٦١٧ ·

ان القـدر الفطرى الذى تحدد للصبى منذ الزمان الأول يضع الطفل فى موقف مسرحى معقد للغاية : الابن يحب أمه بينما يوقر أباه ويكرهه ويتخذه مثالا أعلى ويتمنى له الموت · بيد أن الطفل هنا لن يتولى حل هذا الصراع الرهيب عقليا ودون عون من أحد · يقول فرويد : « ان عقدة أوديب لابد وأن تصل الى خاتمة فقد حان الوقت لتحللها تماما مثلما يحدث للأسنان اللبنية التى تسقط عندما يحين وقت ظهور الأسنان الدائمة · وعلى الرغم من أن الغالبية الساحقة من أطفال البشر يمرون بمرحلة عقدة أوديب الا أنها ظاهرة تتحدد وراثيا لكل طفل ويتحتم أيضا أن تضعف وتتوارى طبقا لجدول زمنى أى عندما تبدأ المرحلة التالية من النمو فى الظهور · » × ان الدافع الأساسى نحو انتهائها يصدر عن مجموعة من المصادر الباطنية ـ غريزة الاســتمناء وهى احدى مكونات الغرائز الجنسية ، والميراث الفطرى القديم المتمثل فى الاحساس بالذنب النابع من الخطيئة الأولى الخاصة بقتل الأب ، والخوف من الخصاء النابع من الذكرى الفطرية القديمة خوفا من عقاب غشيان المحارم الذى كان يوقعه الأب بأبنائه فى المجتمع البدائى ·

ان الرغبة فى موت الأب والرغبة المحرمية تجاه الأم يعملان معا على استثارة الاحساس بالذنب الفطرى فيما يتعلق بغشيان المحارم وقتل الأب · وفى نفس الوقت يبدأ الطفل تحت تأثير استثارة حبه الجنسى لأمه ، فى الولع بأعضـــائه التناسلية ويشرع فى الاستمناء · ويتحول الاحساس الفطرى بالذنب مرتبطـا بالرغبة المحرمية وقتل الأب الى فعل الاستمناء الطفلى · وعقاب الرغبة المحرمية هو الخصاء كما يقضى بذلك الارث الفطرى القديم · وهكذا فان الاحساس بالذنب والخوف من عقوبة الخصاء يتحولان من رغبة محرمية ورغبة فى قتل الأب الى التمركز حول الاستمناء ·

تتكشف هذه البنية الفطرية فى شكل سلسلة حتمية من الأحداث وان كانت ثمة عوامل خارجية تساعد على ذلك · فالأم أو الحاضنة تهدد الطفل عادة بالخصـاء حين تقول له عادة أن أباه سينفذ هذا التهديد · ولكن الطفل لا يأخذ الأمر أولا مأخذ الصدق على الرغم من خوفه من العقاب ولكن لا يلبث أن يقع حدث حاسم وخطير فى حياة الطفل يعبر عنه فرويد بقوله : وأخيرا يلحظ الطفل ما يقضى على شكوكه تماما فى جدية العقـاب ونعنى بذلك رؤيته للأعضـــاء التناسلية عند الأنثى · اذ يحدث ذات مرة ، وبينما يشعر الصبى بالفخر لامتلاكه قضيبه ، أن يقع بصره على الأعضاء التناسلية لطفلة صغيرة ، وهنا يقتنع تماما بغياب القضيب لدى مخلوق آخر مثله · وهنا أيضا يصبح من الميسور له أن يتخيل أمر فقدانه للقضيب ويشعر أن التهديد بالخصاء يبلغ غايته المرجاة » ·

وبينما يصبح الطفل (فى الرابعـــة من العمر) مقتنعا بجدية التهديد بالخصاء ، تواجهه الحياة بقرار فاصل : اما أن يقلع عن استمنائه الطفلى النرجسى وما يتعلق به من ولع جنسى بأمه واما أن يفقد قضيبه ·· « والأمر السوى فى هذا الصراع أن تنتصر القوى الأولى ، وينأى أنا الطفل بنفسه بعيدا عن عقـــدة أوديب · » وهكذا فى رأى فرويد ، » تستسلم عقدة أوديب عند الطفل أمام الخوف من الخصاء ·

× فرويد : « الأبحاث الكاملة » مجلد ٢ ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ ·

وعمليه الابتعاد عن عقدة أوديب لها نتائجها الخطيرة ذلك لأن هذه هي الفترة التي يتشكل خلالها الأنا الأعلى للطفل ويصير عقله عقلا « متحضرا » بمعنى أن الطفل يكون في هذه الآونة مكتملا تماما من حيث الهو والأنا والأنا الأعلى · يتشكل الأنا الاعلى من خلال الخوف من الخصاء نتيجة لمشاعر الندم بسبب الرغبة المحرمية ورغبة الموت · وتشكل سلطة الأب من خلال هذه العملية نواة الأنا الأعلى · ويستمد هذا الأخير قسوته من الأب ويكفل استمرار تحريم الرغبة المحرمية ، وبهذا يضمن للأنا قدر المستطاع عدم ظهور الرغبة المحرمية مرة أخرى · ومع تدمير عقدة أوديب عند الطفل تنطلق طاقتها الليبيدية ويتم طرحها على أهداف غير جنسية في شكل سلوك يستهدف التسامي وبخاصة سلوك مقبول اجتماعيا في مجال الدراسة واللعب — ثم يتحول بعد ذلك الى مجالات العمل والنشاط الابداعي والعلوم والفنون ٠٠٠٠٠ الخ ·

هذا هو الحل « الأمثل » و « السوى » في رأى فرويد لعقدة أوديب لدى الصبية · انه يؤكد « الطابع الذكرى » بكل ما يتضمنه من قوة ارادة ونظام وقسمات عقلية ومنطقية رشيدة وولع بالعالم الخارجي وبالحضارة والثقافة · بيد أن هذا الحل الامثل نادرا ما يحدث كاملا ، فالشائع أن تكون النتيجة هي كبت عقدة أوديب وليس تدميرها · وفي مثل هذه الحالة المألوفة يحدث أن الرغبة المحرمية ورغبة الموت والخوف ومشاعر الذنب تؤدى الى حالات من الانحراف والنكوص والى حالات العصاب بوجه عام · يقول فرويد « ان الزعم بأننا هنا قد بلغنا التخوم الفاصلة بين ما هو سوى وما هو مرضى والتي لم يسبق تحديدها بدقة وحسم من قبل ، مثل هذا الزعم لا يشكل خطوة هامة وكبيرة · فاذا كان الأنا لم يحقق بالفعل أكثر من كبت العقدة فان هذا يعنى أن العقدة لا زالت قائمة في الهو لا شعوريا وسوف تكشف عن نفسها يوما ما في صورة أعراض مرضية » · ×

ان تدمير عقدة أوديب أو كبتها يعنى ، في رأى فرويد ، بقاء قضيب الطفل بيد أنه يعنى أيضا كبت النشاط الجنسي عند الطفل ولو لفترة محدودة على الاقل. ومن ثم تبدأ فترة كمون تمتد الى سن المراهقة — أى من العام الرابع أو الخامس الى الثاني عشر أو الثالث عشر على وجه التقريب · اذ تنبعث العقدة من جديد في هذه السن ويتوقف نمطها وشدتها واستمرارها الى حد كبير على الكيفية التى يتم بها الطور الأوديبى عند الطفل · وهنا تصبح مهمة الفتى الانفصال عن الأبوين حتى يتيسر له الاهتداء الى أليفة تشاركه حياته ومن ثم يحتل مكانه في المجتمع · ويقول فرويد : « يتعين على المرء ابتداء من فترة المراهقة أن يرصد حياته للمهمة الكبرى وهي تحرير نفسه من أبويه · » × ×

ان عقدة أوديب في رأى فرويد هي التي تصنع الانسان أو تحطمه وهي أيضا التي تبنى الحضارة أو تدمرها · ولكن كيف يفسر نمو الأنثى من الطفولة الى الشباب ؟

اذا كانت عقدة الخصاء عند الصبية هي التي تضع حدا لعقدة أوديب فان الأمر على العكس من ذلك عند البنات حيث تكون عقدة الخصاء هي المدخل الى

× المرجع السابق — ص ٢٧١ ، ٢٧٦ ·

× × فرويد : « محاضرات تمهيدية » ص ٢٨٣ ·

عقدة أوديب . ويحدثنا فرويد عن « الاكتشاف الخطير الذى قدر على كل الفتيات الصغيرات ان يكتشفنه » (وهم فى عامهن الثانى أو الثالث أو الرابع) ويستطرد قائلا : « انهن يلحظن قضيب اخ لهن او رفيق لعب يرونه واضحا في اثارة وعلى الفور يدركن انه المقابل الاسمى لعضوهن الضئيل الذى لايدانيه وضـــوحا . ويقعن منذ تلك اللحظة فريسة الغيرة من القضيب ..... لقد رأته وعرفت انها بدونه وتريد أن تمتلكه . » وهذا هو المدخل الى ما يسميه فرويد « عقدة الذكورة عند النساء » والتى تعنى « الأمل فى أن تمتلك يوما قضيبا على الرغم من كل شىء حتى وان صارت رجلا . »

ان الصبية حين يرون أجساد الفتيات الصغيرات ينشأ لديهم أحد موقفين تجاه الفتاه : « الروع من رؤية كائن بتر عضوه التناسلى أو احتقارها في زهو ». ويتولد عنده في أى من الحالتين احساس قوى بالتفوق الذكرى . وهذه المشاعر كلهــا من شأنها أن « تحــدد والى الأبــد علاقة الصبى بالاناث » وهكذا فــان أيديولوجيا التفوق الذكرى هى فيما يرى فرويد قدر حتمته الوراثة البيولوجية والارث القديم . وثمة بالاضافة الى هذا وجه آخر لذلك التفوق وهو أيضا قدر مقدور . « بعد أن تعى المرأة الجرح الذى أصاب نرجسيتها ينشأ لديها احساس بالنقص يلازمها كأنه ندب ناتج عن الجرح . وبعــد أن تتجاوز محاولتها الأولى لتفسير افتقارها الى القضيب باعتباره عقابا شخصيا لذاتها وبعد أن تتحقق من أن الطابع الجنسى طابع شامل وعام تبدأ في مشاركة الرجال احساسهم بالاحتقار تجاه جنس هو دون الجنس الآخر ولا يدانيه من حيث جلال الشأن . » ان قدر الصبى أن يشعر بالتفوق ، وقدر الفتاة أن تشعر بالدونية ، وهذه المشاعر هى التى تحدد المواقف الثابتة لدى الكبار من الرجال والنساء .

الا أن هذا كله ليس الوجه الذاتى للاحساس بالتفوق الذكرى أو الدونية الانثوية ويسبغ فرويد على هذه المشاعر شرعية موضوعية حين يقرر أن قدر الرجال التفوق حقا وفعلا بسبب عقدة أوديب الفطرية ، وقدر النساء الدونية حقا وفعلا بسبب العقدة ذاتها . فالصبية والرجال ينشأ لديهم أنا أعلى قوى وهو وريث عقدة أوديب عن طريق عقدة الخصاء . وقدر الفتيات والنساء له مسار آخر حيث تتحول الغيرة من القضيب في سن الطفولة الى معادلة رسمهــا كالتالى « قضيب = طفل » . انها تقلع عن رغبتها في امتلاك قضيب وتبدلها برغبة في امتلاك طفل وعندما تضع هذا الهدف نصب عينيها تتخذ من أبيها موضوعا للحب . وبذلك تجد في أمها موضوع غيرتها . وهنا تبدأ عقدة أوديب لدى صغار البنات . انها تتولد عن عقــدة الخصــاء والنتيجة « ان البنات يفتقرن الى دافع الهــدم لعقدة أوديب » . ان عقدة أوديب هنا ليس مصيرها الى زوال أو دمار وانما اما أن تتوارى وتنزوى طوال الحياة واما أن يكون مصيرها الهجر أو الكبت .

وبهذا لن يصادف البنات والنساء موقف يتطلب تكوين أنا أعلى قوى ، فالأنا الأعلى ينشأ وينمو تدريجيا ، ونادرا ما يرقى الى مستوى الأنا الأعلى عند الرجل .

كان فرويد يرى في عقدة أوديب الظاهرة الأساسية فى طفولة كل من الجنسين ، الظاهرة التى تحدد فى نهاية الأمر طابع الشخصية وقدرات الفرد بل وتحدد أيضا القسمات الجوهرية للذكورة والأنوثة . وتوصــل فرويد الى نظرته هــذه للطبيعة الانسانية من خلال تأملات أنثروبولوجية متهافتة كمــا

توصل اليها عن طريق تأويل الرموز النمطية للغة زعم أنها اللغة الأولية الفطرية واستعان بهذه الوسائل المضللة لدراسة « الظواهر الأولى للجبلة الغريزية التى فطر عليها المريض » والتى قادته « الى غياهب مظلمة لايجد فيها معالم للطريق » وظن فرويد أن اكتشافاته » ستكون ذات شـأن كبير اذا أمكن تطبيقها بصـورة شاملة عالميا » . × بيد أنه لم يكن أبدا على يقين من اكتشـافاته وكان واعيا بما فيها من قصور .

ولنضرب مثالا على ذلك بما قاله عن نظريته بشأن نمو وتطور الأنثى : « أرى لـزاما على أن أعترف أن تبصرنا لعمليات نمـو وتطور الفتـاه قاصر ومبهم وغير واف . » × × ولكن فرويد على الرغـم من كل ما أريده مـن ملاحظات وشكوك نراه يتناول موضوع عقدة أوديب الفطرية وكل تفصيلاتها وكأنها حقائق ثابتة بل وباعتبارها الظاهرة المحورية فى حياة البشر ولب عقيدة التحليل النفسى . وبلغ به الأمر الى الحد الذى قال فيه وهو يتحدث عن عقدة أوديب : ان الاعتراف بها هو المحك الذى نمايز به بين أتباع التحليل النفسى وبين خصومه . × × ×

بهذا نكون قد فرغنا من عرض الحلول التى قدمها فرويد من خلال نظريته عن التحليل النفسى لأهم مشكلتين في علم النفس ـ نشأة وتطور العقل لدى النوع والفرد . لقد حاول فرويد أن يجتاز قفزا الهوة في معلومات الانسان عن عضو التفكير والانفعالات والغرائز والشخصية وطباعها وأعنى بذلك العضو مخ الانسان . ولكنه حين حاول ذلك انتهى من حيث بدأ أى خارج المجرى الرئيسى لعلم النفس . ان علم النفس التحليلي لم يصادف قبولا واعترافا من جانب علم النفس الاكاديمى ، حتى لقد نبذته الغالبية من أهل الاختصاص في علم النفس.

.... بيد أنه في نفس الوقت لقى ترحيبا كبيرا وذيوعا في مجالات غـير متخصصة نذكر منها الأدب والمسرح والسينما والفنون والانثروبولوجيا والطب النفسى والطب العام والتربية . واستطاع التحليل النفسى أن ينفذ من خلال هذه الوسائل الى عقول الجماهير ليمثل قوة « ثقافية » جبارة . ان المادة التى قدمها فرويد أسهمت مع قوى أخرى في هـدم الأخلاقيات الزائفة التى كانت سمة القرن التاسع عشر الفيكتورى .

× فرويد : « الأبحاث الكاملة » ـ مجلد ٥ ـ ص ١٨٦ .

× × المرجع السابق : مجلد ٢ ص ١٧٥ .

× × × فرويد : « الأعمال الأساسية » ـ ص ٦١٧ .

الفصل التاسع

بافلوف والمشكلات الأساسية في علم النفس

ننتقل الآن الى دراسة الحل الذى طرحه بافلوف لمشكلة العقل ـ الجسد أى الى علم النشاط العصبى الراقى بحثا عن اجابة على المسألتين الرئيسيين فى علم النفس : الارتقاء من السلوك الحيوانى الى العقل البشرى ومن سلوك الطفل الى عقل الراشد ٠

أفاد بافلوف فى كل أبحاثه من وجهين لنظرية التطور : عملية التكيف داخل نوع بذاته مع ظروف بيئته ، ونشوء أنواع جديدة من القديمة ، أو أنه بعبارة أكثر تحديدا ، درس سلوك التكيف لدى الحيوانات الراقية ـ الكلاب والقردة ـ مستهدفا أساسا القاء ضوء كاشف عن نشأة وتطور النوع الأرقى من الجنس الحيوانى أى الأنسان ٠ ووجه عنايته هنا للابانه عن مظاهر الاتصال والانفصال أو الوحدة الأساسية الكامنة والفوارق الكيفية المميزة ٠

خلص بافلوف من دراســاته المعملية والعيادية الى نتيجة محددة تقضى بوجود فاصل أساسى فى تكوين المخ مرده الى التطور النشوئى النوعى ٠ × Phylogenetic ثمة أبنيـــة تشريحية ووظائف فسيولوجية للمخ مشتركة بين الحيوانات الراقية والانسان ، وثمة أيضا قسمات بنيوية وفسيولوجية خاصـة بالانسان وحده ٠ يشترك الانسان مع القردة والكلاب من حيث : تشريحيا ـ مراكز ما تحت اللحاء (وتضم بطبيعة الحال القطاعات الدنيا من المخ) ولحـاء المخ ،

× بافلوف : « المؤلفات المختارة » ـ ص ٥٩٠ ٠

فسيولوجيا : نظام الفعل المنعكس غير الشرطى (بما فيه سلسلة الأفعال المنعكسه المتتالية أو الغرائز) والنظام المنعكس الحسى أو الشرطى الخاص بالاشارة الى الواقع • أما الانسان فيختص علاوة على هذا بلحاء للمخ يمتد ليغطى مساحة كبيرة ويمثل اللحاء أرقى بنية فى المخ نحتص بأرقى نظام فسيولوجى ووظيفى ونعنى به نظام اللغة أو الكلام للاشارة الى الواقع • تتضمن هذه القسمات عناصر الوحدة والتماثل وعناصر الفصل والتمايز بين الجهاز العصبى عند الحيوانات الراقية وبين الجهاز العصبى عند الانسان •

ان الجهاز العصبى عند الحيوان من حيث بنيته ونظاميه انما هو نتاج ملايين السنين من التكيف مع ظروف البيئة الطبيعية • والتراث العصبى الذى ورثه الانسان عن الحيوان يتألف من بنية النظام الانعكاسى غير الشرطى لمنطقة ما تحت اللحاء وبنية النظام الانعكاسى الشرطى الحسى فى اللحاء • أما البنية الاضافية التى يتميز بها الانسان والخاصة بنظام الكلام والموجودة فى اللحاء فهى نتاج قرابة المليون من الأعوام قضاها الانسان فى محاولات للتكيف مع ظروف الحياة فى بيئته الاجتماعية بما فى ذلك العمل الاجتماعى الذى يستخدم فيه الأدوات والحياة الاجتماعية •

هل تفكر الحيوانات ؟

عكف بافلوف فى الأعوام الاخيرة من حياته على دراسة سلوك القردة الراقية دراسة تجريبية • واذا نظرنا الى دراسته هذه نظرة مدققة سيبين لنا فى وضوح وجلاء نصوره لمظاهر الوحدة والتمايز بين الطبيعة الحيوانية والطبيعة البشرية • بعبارة أخرى أكثر تحديدا ، ان ما يعنينا هنا هو الاجابة على السؤال : هل تفكر الحيوانات ؟ واذا كانت كذلك فما هى أوجه الشبه والاختلاف بين تفكيرها وتفكير الانسان ؟ قام بافلوف بتجاربه على القردة الراقية فى الوقت الذى كان يدور فيه جدال بينه وبين روبيرت يركس وفولف جانج كيهلر وهما من علماء نفس الحيوان ، أما الأول فأمريكى والآخر ألمانى •

ذهب بافلوف الى أن يركس وكيهلر قدما بتفسيرهما لسلوك القردة العليا صيغة جديدة للدفاع عن الثنوية • وذهب كل من يركس وكيهلر الى أن نظرية الفعل المنعكس الشرطى لا تفيد الا فى تفسير سلوك الكلاب لكنها قاصرة عن تفسير النشاط المعقد للقردة العليا • وقرر يركس وكيهلر بوجه خاص أن القردة العليا تكشف بالاضافة الى الترابط الانعكاسى الشرطى عن « ملكة قريبة من ملكة الانسان » أسمياها « الاستبصار » • واتهمهما بافلوف لذلك بأنهما يحاولان انتعال فارق كيفى بين الكلاب وبين الحيوانات الأخرى من ناحية وبين القردة العليا والانسان من ناحية ثانية وأنهما يريان أن المنهج التطورى الفسيولوجى الترابطى يصلح لتفسير الحالة الأولى وعاجز تماما عن تفسير الحالة الثانية •

كان بافلوف ضيقا مستثارا بسبب « اعلان الحرب » على حد تعبيره هو ، على محاولته ووطد عزمه على أن يدحض هذه العقيدة الثنوية المثالية المعادية للعلم • وشن يركس وكيهلر هجومهما فى وقت قال عنه بافلوف : « بدأنا

الآن العمل على تحرير انفسنا بصورة او باخرى من التنويه . بعد عاش الانسان ردحا طويلا من الزمان أسير المفاهيم المثالية : وهكذا في الوقت الذى بدأ فيه بعض العلماء تحرير الانسانية من قبضة المثالية تحالف أشياع تنويه العقل والجسد . للدفاع عنها ووضع صيغه عقلية جديدة لتبريرها . ولكن لماذا يفعلون هذا ؟ يجيب على السؤال « لانهم واقعون تحت تاثير النظرة التنويه الى العالم » (×) ان النظرة التنوية لها سطوتها حقا ذلك لانها تجد في التراث الفكرى للانسانية سندا قويا فضلا عن انه السائد المهيمن على فكر الانسان ومؤسساته الاجتماعية . اذن ثمة أسباب قوية تدعو العالم الى أن يحتضن العقيدة التنوية ليس اقلها ان هذه العقيدة تبدو و انها النسمه المميزة لنظرة الناس جميعا من حوله ولكن كما يقول بافلوف ان العالم الأصيل يخسر ما يستحقه من كبرياء اذا نسى « ان نظرته العامة الى العالم لا ينبغى لها ان تؤثر على فكره العلمي . »

ان علم النشاط العصبى الراقى ومفهوم الفعل المنعكس الشرطى باعتباره الميكانيزم الأساسى يتعارضان تعارضا مباشرا مع التنويه . ذلك لأن علم النشاط العصبى يمثل تصورا واحديا للانسان حين ينظر اليه باعتباره مادة فى حالة حركة وقد بلغت أرقى صور التطور العضوى ، وأن هذه المادة ، متمثلة في المخ ، بلغت أرقى وظيفة تطورية للعقل أو الفكر أو الشعور . ولكن الثنوية لها سندها المكين متمثلا فى العقائد السائدة على مستوى الفرد والمجتمع ، ومن ثم لن ندهش اذا عرفنا أن نظرية بافلوف عن النشاط العصبى الراقى تكاد تكون مجهولة تماما فى كثير من بقاع الأرض .

ووجدت الثنويه تبريرا عقليا جديدا قدمه لها يركس وكيهلر وكثيرون من علماء النفس من بينهم بعض أتباع المدرسة السلوكية والترابطية والجشطلت . واستهدف هؤلاء جميعا سواء بصورة مباشرة أم غير مباشرة تحييد أو مسخ نظرية الفعل المنعكس الشرطى . ويبدو لنا هذا واضحا من منهجهم فى البحث الذى يبسط وظيفة النصفين الكرويين للدماغ تبسيطا مخلا الى حد كبير وذلك ، كما يقول بافلوف ، « بردها واختزالها الى ما تتضمنه كتب الفسيولوجيا من معلومات والتى لا تكشف الا عن الرابطة الأساسية بين التنبيه والاستجابة – ثم لا شىء آخر . » (× ×) ان ميكانيزم اللحاء وهو الفعل المنعكس الشرطى أصبح قاصرا على تكوين رابطة بين المنبه والاستجابة ، وهم بذلك يغفلون عمليات أخرى أساسية مثل التركيب والتحليل والانتشار والتمركز . ان الميكانيزم بصورته الممسوخة لا يفيد حتى لتفسير أبسط مظاهر السلوك الراقى المعقد سواء عند الكلاب أو القردة العليا . ولكن هكذا كان مصيرها علم النشاط العصبى الراقى والفعل المنعكس الشرطى فى كثير من بلدان العالم وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية .

ان كيهلر ويركس خير ممثلين لعملية اختزال علم بافلوف الى أدنى صورة له . لقد أجرى كل منهما تجارب على القردة العليا يتعين فيها على القرد

× المرجع السابق – ٥٦٩ .

× × المرجع السابق – ص ٤٤١ .

للحصول على الطعام أن يتغلب على بعض العقبات ويؤدى أعمالا محددة • والتقى كل من كيهلر ويبركس عند نقطة محددة وهى ان القرد يتبع طريقة « المحاولة والخطأ » أول الأمر ثم ينزوى جانبا ويجلس يفكر وحده حينا حتى يواتيه « استبصار » يحل الموقف فينهض مسرعا ويحل المشكلة •

أعاد بافلوف تجارب كيهلر ويبركس على القردة اعليا وتبين له أن ما شاهداه من سلوك معقد يمكن تفسيره فى ضوء الترابط الذى يشكل الفعل المنعكس الشرطى اساسا له بكل ما يتضمنه من صور نشاط ارتكيف • ويقول بافلوف فى معرض حديثه عن هذه التجارب : « لم نجد شيئا جديدا على الاطلاق لم يسبق لنا أن درسناه على الكلاب • انها عملية ترابط أعقبتها عملية تحليل بمساعدة المحللات ولازمتها عملية كف يسرت للقرد فرزونبذ ما لا يتلاءم مع الموقف • اننا لم نلحظ شيئا أكثر من هذا فى تجاربنا • ومن ثم فليس هناك أى مبرر للزعم بأن القردة تتمتع بنوع من « الذكاء » يضعها على مستوى قريب جدا من الانسان بينما الكلاب على العكس من ذلك لا تقدر الا على أداء العمليات الترابطية • »

ان بافلوف هنا لا يريد أن يقول ان القردة ليست أكثر ذكاء من الكلاب وانما يعنيه أساسا بيان أن العملية الترابطية ، متضمنة التحليل الحسى واللحائى ، هى الذكاء لدى القردة والكلاب معا • أما كيهلر فانه يقصر الترابط على « المحاولة والخطأ » ويرد الذكاء الى شىء آخر مبهم يحدث لدى القرد دون الكلب وذلك عندما يقبع القرد « متأملا » بعيدا عن مكان المشكلة •

انتهى بافلوف بناء على تجاربه الخاصة الى أن ظاهرة الانصراف عن المشكلة والجلوس بعيدا ، وهى ظاهرة تتكرر بالفعل كثيرا ، انما تحدث نتيجة ما يلحق الجهاز العصبى من تعب بسبب عمليتى الترابط والتحليل وهى عملية مجهدة للقرد ، وأن ظاهرة «التأمل» ليست فى واقع الأمر سوى فترة راحة من النشاط الترابطى • واذا حدث أن استطاع القرد حل المشكلة بعد فترة الراحة فان هذا لا يدل على أنه كان يتفكر فى الأمر فى هذه الأثناء وانما تدل على أنه بعد الراحة أصبح أقدر على مواصلة عمليتى الربط والتحليل على نحو أسرع • ذلك لأن الكف الذى انتشر اثر التعب كان مصدر راحة لخلايا اللحاء ـ هذا هو تفسير بافلوف لما وصفه كيهلر « الجلوس بعيدا والتأمل فى هدوء » • يقول بافلوف : وهكذا نجد فى النهاية أن فترة السكون والتوقف عن النشاط هى دليلهم الوحيد على الذكاء » •

ولكن بافلوف أبعد من أن يؤكد أن القرد لا يفكر أو انه عاطل من « الذكاء » ، بل انه يؤكد ان التفكير قوامه عمليات الترابط والتحليل وكل المظاهر المعقدة للفعل المنعكس الشرطى الاشارى المتمثلة فى النشاط الاشارى الحسى والاقتران اللحائى • ان التفكير هو هذا النشاط ولا شىء آخر ، والسلوك الذكى هو نتاج عملية التحليل الترابطى (التفكير) • ويتهم يبركس وكيهلر بالتخلى عن الترابط وهو الشرط الأساسى لتفسير الذكاء ، كما يجعلان من الذكاء ظاهره ذاتية مبهمة أطلقا عليها اسم « التأمل » الذى يؤدى الى « الاستبصار » •

وحقيقة الامر ، كما يرى بافلوف ، أن ثمة طراز أصيل من التأمل يقوم به القرد وغيره من الحيوانات الراقية بما فيها الكلب ، ولكنه لا يتعارض مع الترابط ، انه صورة أخرى من صور الترابط وأرقى منها • وهو يشير في هذا الصدد الى حقيقة معينة هي ان القرد كان بين لحظة واخرى يشيح بنظره بعيدا عن المشكلة الماثلة أمامه ، ثم يعود ببصره اليها ولا يلبث ان يحل المهمة الجزئية التي بين يديه • وتفسير هذه الظاهرة ان الآثار التي تتألف منها صور الذاكرة تترابط أو تنحلل او كليهما معا وقتما يشيح القرد ببصره بعيدا عن الموضوعات الماثلة أمام عينيه • ان القردة والكلاب وكل الحيوانات الراقية تقوم ، فيما يرى بافلوف ، بطرازين من التفكير البدائي : اولا التفكير المباشر من خلال السلوك thinking in action حيث تكون الصور الحسية الراهنة للموضوعات الفيزيقية الماثلة أمامه هي موضوعات الترابط (او التركيب) والتحليل في اللحاء ثانيا : التفكير المباشر من خلال صور الذاكرة thinking in memory images حيث تكون الآثار المتخلفة في خلايا اللحاء هي موضوع الترابط والتحليل في اللحاء • ولقد أخطأ كيهلر حين أطلق على « التفكير المباشر من خلال السلوك » اسم « المحاولة والخطأ » وحين اطلق على « التفكير المباشر من خلال صــــور الذاكرة » اســـم « الاستبصار » •

ولكن كيهلر ، أيا كانت نواياه ، أخفى ميكانيزم التفكير والذكاء . وبذلك أبقى على العقل بصورته الغيبية المبهمة • يقول بافلوف : « ان التفسير الوحيد لمثل هذا النوع من الاســـتدلال هو أن كيهلر مفكر حياني أصـــيل ومن ثم لم يستسغ القول بأن العقل يمكن أن يخضع بين أيدينا للتجربة داخـل المعمل أو أن قوانينه يمكن اكتشافها من خلال تجاربنا على الكلاب • لقد أبى على نفسه أن يسلم بذلك • » (×)

ان الترابط والتحليل يؤلفان معا قوام التفكير من خـــلال الســـلوك والذاكرة ، وحصيلة هاتين العمليتين مزيد من احكام التكيف مع ظروف البيئة ويمثل ناتج عملية التحليل أكثر الروابط الشرطية دواما واستقرارا وهي ما يفيد منه الحيوان في ما يصادفه من مواقف مستقبلا ومن ثم فهو الذي يشكل رصيد « المعرفة » المسيرة للكلب أو القرد • والترابط هو التفكير في صورته العامة المجملة أما التحليل فهو تنقية وتصويب الترابطات بحيث تتوافق مع الواقع الخارجي على نحو أكثر دقة • وهذا التوافق هو جوهر « الصدق » • وهكذا فان حصيلة فكر الحيوان « معرفة صادقة أو انعكاس للعالم في « عقل » الحيوان • والعقل هنا ليس مجرد مرادف لمصطلح « المخ » وانما هو مصطلح مشروع للدلالة على الأداء الوظيفي للمخ أي العمليات الجارية أثناء التفكير من خلال السلوك والذاكرة معا (الترابط أو التركيب والتحليل) بالاضافة الى رصيد التفكير الماضي أي المعرفة • ان الترابطات التي تكونت قبلا والتي أمكن اختبارها من خلال السلوك لفترة من الزمن ومن تأكد تطابقها مع الواقع (كأن حققت للحيوان الحصـــول على الطعام مثلا) ، هذه الترابطات تؤلف عناصر الصدق والمعرفة • وهكذا فان العقل مصطلح عام شامل يدل على ما مضى وما هو ماثل من الروابط اللحائية والترابطات الشرطية الوقتية والنشاط الوظيفي لأعضاء الحس ولحاء المخ عند الحيوانات الراقية • وعلى هذا فان بافلوف لا يرد

× المرجع السابق : ص ٥٥٣ ــ ٥٥٩ •

العقل الى مادة فى حالة حركة متمثلة فى الحواس والمخ وانما ينظر اليه باعتباره نتاجا ووظيفة وخاصيه وكيفا للمادة فى حالة حركتها والمتمثلة فى صورة نشاط للحواس والمخ · ان جوهر عقل الحيوان أو ذكائه هو عمليه الانعكاس التى تتزايد دقـــه واحكاما وتعكس البيئه الخـارجية على هيئة روابط وارتباطات مكتسبة أو أفعال منعكسة شرطية للحاء المخ وضـعت موضـع الاختبار وتأكد تطابقها مع الواقع ·

يقول بافلوف استنادا الى أبحاثه التجريبية : « اننى مقتنع تماما أن التفكير ترابط ، وانى أتحدى كل من يخالفنى الراى ان يثبت العكس » · (×)

وكان من رأيه أن هذا التصور للعقل قاسم مشترك بين كل الحيوانات الراقية والانسان بالمثل · فالعقل عند القردة والكلاب والبشر يعنى الترابطات المنعكسة الشرطية المكتسبة فى الماضى والحاضر بعد أن تم احكامها بوساطـــة التحليل وتلاحمت تركيبيا فى شكل سلاسل من الانساق أو القوالب النمطية الدينامية · وذهب بافلوف الى أن عقل كل من الانســان والحيوان يمثل معرفة موضوعات وعلاقات محددة وقائمة فى العالم الخارجى · والميكانيزم العصبى فى كل حالة من الحالات هو الترابط الشرطى الحسى اللحائى بكل ما يشمله من نشاط تحليلى وتركيبى محكم · والمعرفة هى ناتج الفكر ، والفكر هو عملية الترابط لدى الانسان والحيوان على السواء · والذكاء أو الاستبصار عند أى منهما هو التفكير من خلال السلوك مستفيدا من الارتباطات الشرطية السابقة والملائمة للموقف (الفكر أو المعرفة) وتكوين ارتباطات جديدة يتطلبها الموقف ·

وضـــع كيهلر خطا فاصلا يمايز بين الكلاب من ناحية وبين القردة العليا والانسان من ناحية أخرى · فهو يرى أن سلوك الكلاب يمكن تفسيره فى ضوء الترابط أو الفعل المنعكس الشرطى أما السلوك المعقد لدى القردة العليا أو الانسان فيستحيل تفسيره الا من خلال مصطلحات « الذكاء » و «التأمل» و «الاستبصار» وهى كلها مصطلحات مبهمة لم يقدم لها تفسيرا · ولكن بافلوف ذهب مذهبا آخـــر على النقيض اذ نسب « الذكاء » و « الاستبصار » و « التأمل » للكلاب والقردة والانسان وفسر هذه المصطلحات فى ضـــوء عمليات الترابط الحسية واللحائية والتحليل والتركيب للفعـــل المنعكس الشرطى وغيره من الروابط الوقتية ·

وآمن بافلوف بأن دراسة سلوك الكلاب والقردة العليا ما هى الا خطوة على الطريق نحو فهم العقل الانسانى · « وهكذا نشهد بوضوح نشوء تفكيرنا ونلمس كل العقبات التى اعترضت طريقه كما نعرف كل مناهجه » · × × الا أن هذا لا يعنى مطابقة عقل الانسان لعقل الكلب أو القرد كما لا يدل على أن بافلوف رد العقل البشرى الى العقل الحيوانى ، وانما هذا هو نصف الطريق نحو فهم عقل الانسان ، وهو النصف الذى عنى بتأكيد العناصر المشتركة التى يشارك فيها الانسان أسلافه فى تاريخ التطور · فاذا كان ثمة تماثل بنيوى بين مخ الحيوان وبعض مخ الانسان فهناك بالمثل بعض التماثل الوظيفى · وهذا هو الجانب الذى برهن عليه بافلوف فى ابحاثه التجريبية على القردة العليا والكلاب ·

× المرجع السابق _ ص ٥٨٣ ·

× × المرجع السابق _ ص ٥٦١ ·

النصف الثانى من الطريق هو تحديد الفوارق بين الانسان والحيوان من حيث التفكير أو الأداء الوظيفى للمخ · فما هو الفارق الكيفى الكبير بين الانسان والحيوان من حيث النشاط الانعكاسى الشرطى الترابطى ؟ هكذا كان وضع المشكلة أمام بافلوف ·

أولا رأى بافلوف أن كيهلر حين مايز بين الكلب والقرد رد علة التمايز الى الفارق الظاهرى وهو أن القرد له يدان وليس للفارق الجوهرى المتمثل فى عمليات المخ أو العمليات العقلية · معنى هذا أن بافلوف يعتبر الفوارق بين الكلاب والقردة فوارق كمية أساسا ـ أى كما أكبر من الترابطات والتحليلات الدقيقة ، وكما أكبر من خلايا اللحاء مع تطور أكبر للمنطقة الحركية الناتج عن امتلاك القرد لليدين مما هيأ له قدرة أكبر على استعمالهما لفحص البيئة الخارجية وتناول موضوعاتها ·

بيد أن الفارق بين الكلاب والقردة من ناحية وبين الانسان من ناحية أخرى ليس فارقا كميا خالصا ، أى أن الفارق ليس مرده الى كم أكبر من الترابطات والتحليلات وخلايا اللحاء أو كم أكبر من خلايا اللحاء المتطورة ، أنه كل هذا مضافا اليه فى نفس الوقت فارق آخر من حيث نوع الترابطات مع ما يقابلها من مناطق جديدة فى اللحاء ·

ان البشر لهم أيد مثل القردة ولكن أيدى البشر أكثر تطورا ، واستعمالها ليس قاصرا على فحص البيئة وتناولها وانما يستعملها الانســان أولا للامساك بالأدوات ثم تشغيل الآلات مؤخرا لتغيير البيئة على نحو يتفق مـع حاجاته · وعملية الانتاج ، وهى عملية اجتماعية دائما وأبدا تستلزم لغة حتى ولو فى شكل الكلام على أقل تقدير · ان الحياة المشتركة والانتاج المشترك بين الناس فى مجتمعات ، سواء مجتمعات مستقرة أم غير ذلك ، امتدت لما يقرب من مليون عام ولم تكن نتيجتها قاصرة على تحقيق زيادة هائلة فى خلايا اللحاء ووظائفه التى يشترك فيها الانسان مع الحيوان ، بل كانت لها نتيجة اخرى اضافية وهى نشوء مناطق جديدة فى اللحاء تختص بالوظيفة التى نشأت حديثا وهى نشاط الكلام · يقول بافلوف : اننا معشر البشر نمتلك مركبا من حركات الكلام بالاضافة الى الحركات المتعددة والمتباينة لأيدينا » · ×

ونشأة اللغة المنطوقة لم تيسر للانسان تكوين مزيد من الترابطات فحسب ، بل يسرت له أيضا نوعا جديدا من النشاط الترابطى · وحيث ان النشاط الترابطى فى مجمله هو الفكر كما قال بذلك بافلوف ، فان ترابط الكلمات لا يؤلف جوهر الفكر وانما نوعا جديدا من الفكر ، خاصا بالانسان وحده ـ فكر لفظى وعام ومجـــرد ·

اذن فالعقل بمعنـــاه الأولى عنـــد بافلوف ، أى الفكر ، مرادف للنشاط الترابطى أو النشاط الانعكاسى الوقتى للنصفين الكرويين للدماغ لدى الحيوانات الراقية بما فيها الانسان · وهذا الأداء الوظيفى للمخ يتوقف على النشاط العصبى الخاص بتكوين وتأكيد واستكمال روابط أكثر دقة ورهافة بين الكائن العضوى الحسى وبين العالم المحيط به · هذا هو كل ما يعنيه مصطلح العقل عند بافلوف ·

× المرجع السابق ـ ص ٥٦٢ ·

انه ليس « شيئا » أو « جوهرا » ، وانما هو وظيفة محددة · العقل وظيفة أرقى قطاعات المخ لعملية التكيف ، التى عمرها من عمر الحياة ، مع ظروف البيئة والحياة · ان الاقترانات الوقتية أو الارتباطات (وهى العمليات العصبية المتضمنة للاثارة والكف والتركيب والتحليل والانتشار والتمركز) هى قوام نمط الأداء الوظيفى للنصفين الكرويين للمخ · وبهذا يصبح المعنى المحدد لمصطلح العقل : ـ النشاط الترابطى للنصفين الكرويين للدماغ خلال عملية التكيف من جانب الحيوان أو الانسان مع ظروف حياته · ويتمايز عقل الانسان كيفيا عن عقل الحيوانات من حيث الأداء الوظيفى للنظام الاشارى الثانى أو نظام الكلام · ونظام الكلام فى جوهره أداء مرهف ودقيق لوظيفة المخ الخاصة بالتكيف ـ وقد أصبح ميسورا للانسان ، بفضل نظام الكلام وعملية الانتاج التى هى علة نشوء الكلام ، أن يقوم بعكس عملية التكيف فى صورتها التقليدية ونعنى بذلك القدرة على تغيير البيئة وملاءمتها مع حاجات الانسان ورغباته وتطلعاته ·

والمطابقة بين العقل ووظيفة اللحاء التى تستهدف تأكيد وتدعيم واستكمال روابط دقيقة ومرهفة بين الكائن العضوى الحى وبين العالم المحيط به ، مثل هذه المطابقة لا تعنى الحد من عقل الانسان ـ ان التكنولوجيا والعلوم والفنون والأدب والأخلاق هى حسب وجهة النظر هذه وظائف جليلة الشأن للمخ من خلال عملية التكيف الأبدية فى صورتها الانسانية الخاصة بتغيير العالم وفق رغباته وتطلعاته ·

وأصبح عقل الانسان أخيرا موضوعا للدراسة الموضوعية ، وتيسر هذا بفضل النظرة الى العقل باعتباره أداء وظيفيا للمخ · وأمكن تحقيق التقدم على هذا الطريق التزاما بمنهج بافلوف فثمة دراسات عن بعض أطوار وظواهر النمو الارتقائى للطفل ودراسات أخرى فى مجال التربية والتعليم · بيد أن هذه الدراسات كلها لا تعدو ان نكون خدشا على السطح اذا ما قورنت ببرامج البحث المطروحة للمستقبل القريب · ولنحاول الآن أن نلقى نظرة على بعض هذه الدراسات ومشروعات المستقبل كصورة تطبيقية لنظرية بافلوف عن النشاط العصبى الراقى ابتغاء حل مشكلات علم النفس فيما يتعلق بنشأة وتطور العقل الفردى ·

من عقل الطفل الى عقل الراشد

كان النهج التقليدى فى علم النفس لدراسة العقل البشرى يقوم على تفسير الخصائص أو القدرات العقلية ـ الاحساس والادراك والانتباه والذاكرة والتخيل والفكر والارادة والشخصية ـ مع دراسة وتفسير العلاقات المشتركة بين هذه القدرات ثم القيام بدراسة وصفية عن تطورها عند الطفل · ولا ريب فى أن مثل هذه الدراسة الوصفية التى ترتكز على الملاحظة كانت مرحلة هامة وضرورية فى تاريخ تطور علم النفس ·

ولكن بافلوف رأى ان علم النفس قد أتم هذه المرحلة الأولية لتصنيف ووصف الظواهر وذلك منذ عام ١٩٠٠ ومن ثم كان عليه أن يبدأ المرحلة الثانية وهى مرحلة التفسير العقلى القائم على المنهج التجريبى للعلم · وكان من رأيه أن

القضية المطروحة الآن هى اكتشاف الميكانيزمات الوظيفية الواقعية لهذه أو تلك من الصفات أو الخصائص أو القدرات النفسية • وكان على يقين من أن هذا هو الطريق الأساسى للبحث السيكولوجى • فمن خلال هذا الطريق ، وهذا الطريق وحده يمكن لعلم النفس أن ينتقل من التصنيف الى التفسير ومن ثم يتحول الى علم طبيعى على قدم المساواة مع العلوم الأخرى ، وان من خلال هذا الطريق ، وهذا الطريق وحده ، يمكن لعلم النفس أن يفى بالتزاماته ازاء دراسة تطور الطفل وتربيته ومن ثم أيضا ينتقل من مرحلة الوصف الى التفسير أى من العلوم الفجة الى العلوم الناضجة •

ولكن نظرا لأن بافلوف كان منصرفا بكليته فى أعوامه الأخيرة الى دراساته فى المعمل والعيادة فانه لم يستطع تنفيذ مشروعات البحث التى حدد معالمها لعلم النفس • ولم تلق هذه المشروعات بعد ما تستحقه من اهتمام •

بيد أن بافلوف وزملاءه وأتباعه استطاعوا على الرغم من كل ذلك أن ينجزوا قدرا لا بأس به من دراسة المشكلة الرئيسية فى علم النفس ونعنى بها مشكلة نشأة ونمو القدرة العقلية عند الطفل •

يخضع الطفل حديث الولادة لسيطرة عدد من الأفعال المنعكسة غير الشرطية مثل الأفعال المنعكسة المتعلقة بالمص والبلع والاخراج والدفاع فى صورته الأولية والتوجيه والحرية • ولكن الاحساسات هى التى تلعب الدور الحيوى منذ البداية ويقتصر عملها فى البدء على تنبيه الاستجابات غير الشرطية ، فأى شىء يمس الشفتين ينبه الاستجابة الملائمة وهى المص ، معنى هذا أنه بدون الاحساس لا تكون هناك افعال منعكسة غير شرطية • اذن ما هو الاحساس ؟

يجيب بافلوف على السؤال قائلا ان الاحساس وظيفة المحللات • والمحلل جهاز عصبى معقد يتألف من عناصر ثلاثة : ١ مستقبل وهو عضو الاستقبال الظاهرى (العين أو الأذن أو الجلد •• الخ) ٢ ـ طريق عصبى موصل • ٣ ـ الطرف النهائى لعصب التوصيل فى لحاء المخ (وهو ليس مركزا واحدا بل آلافا من الخلايا تتمركز بوجه خاص وبصورة مكثفة فى منطقة بذاتها ، مثال ذلك الخلايا البصرية فى المنطقة القذالية • ولا تحدث عملية الاحساس الا بعد أن ينتقل الدافع العصبى ، الذى بدأ مع تنبيه عضو الاستقبال (الجلد مثلا) ، عبر الليفة العصبية ويصل الى الخلايا المختصة فى لحاء المخ • ويولد الطفل مزودا برابطة فطرية تصل ما بين الاحساس (الخلايا المستثارة فى المنطقة اللحائية المختصة) وخلايا المنطقة الحركية فى اللحاء • فلو شككنا طفلا بدبوس فان جسمه يتصلب ويتوقف تنفسه لحظة ثم يشرع فى البكاء كما تصدر عنه حركات عشوائية • وهذه كلها روابط فطرية تصل ما بين مجموعتين من خلايا اللحاء ـ خلايا جهاز الاستقبال وخلايا المنطقة الحركية المختصة •

والاحساس أول مراحل « المعرفة » ونحن نجده بصورته الخالصة فى الأيام الأولى وربما الأسابيع الأولى من حياة الوليد • وفى هذه المرحلة لا يستطيع الطفل معرفة الموضوعات الخارجية وانما كل ما هنالك ارجاعات فطرية للمنبهات الخارجية فى حدود آثارها على الجسم من حيث اللذة أو الألم •

وتبدأ الروابط الوقتية بعيد الميلاد وتربط ما بين المنبهات الخارجية الكثيرة وبين المنبهات غير الشرطية القليلة • وتأخذ هذه الروابط الشرطية شكلا عشوائيا أول الأمر ، ولكن الروابط التى لا تجد ما يعززها تكف تدريجيا أما الروابط التى تجد ما يعززها فانها تستقر وتتدعم أكثر فأكثر • والملاحظ ان الروابط المستقرة تنشىء على مدى فترة من الزمان وصلات ، ثم لا تلبث هذه الوصلات أن تنتظم فى شكل قوالب نمطية دينامية • وتنشط هذه المجموعات من الروابط اللحائية المكتسبة بفعل التنبيه الوارد اليهـا من أجهزة الاستقبال الظـاهرية (أو الباطنية) وهنا لا يتنصر عمل أجهزة الاستقبال على استثارة الاحساسات بل تخضعها لعملية تحليل وتفسير من جانب هذا الكل المركب من الروابط اللحائية التى تحول الاحساس الى ادراك • فالدفعات التى تصل من أجهزة الاستقبال الحسى العديدة ترتبط ببعضها ويجرى تحليلها ومطابقتها مع المجموعات اللحائية الملائمة والموجودة من قبل ثم يجرى تركيبها فى شكل سلوك حركى أو تعبير انفعالى أو كليهما معا •

ونظرا لأن الطفل يعيش حياته يوما بيوم فى مجتمعه العائلى فانه يكتسب خبرة (أى ارتباطات شرطية تستقر وقتيا فى صوره وصلات وأنماط ومجموعات دينامية) فى ضوء « تفسيره » لكل احساساته • وهذا التفسير الذى هو ناتج الخبرة الماضية فى ارتباطها بالخبرة الراهنة هو جوهر الادراك الحسى • وهنا ينتفى الاحساس الخالص المجرد اذ يصبح أمرا مستحيلا • والحقيقة ان القول بوجود احســاس خالص بصــورة مطلقة أمر موضـع نقاش وتســاؤل • على أية حال فان الطفل بعد ولادته مباشرة يتم المرحلة الثانية من التعرف وهى الادراك • والادراك يتضمن ادراك الموضوعات الخارجية ثم تتزايد بمرور الوقت حصيلة الطفل من معرفته بخصائصها •

والميكانيزم العصبى لعملية الادراك عند الطفل فى مرحلة ما قبل اللغة يطابق الميكانيزم العصبى عند كل الحيوانات الأخرى على اختلاف أعمـــارها • ولكن الفارق الأولى والخطر هو البيئة الاجتماعية للطفل • اذ أنه يكتسب الكثير من المعرفة البشرية (وصلات ومجموعات لحائية) عن العالم عن طريق أسرته — ما هو مستساغ وما هو غير كذلك ، وما هو خطر فضلا عن مظاهر عديدة من السلوك المقبول اجتماعيا ومن الانفعالات البشرية • ولكن الميكانيزم العصبى مع كل هذا وبه يظل فى مستوى الطفل — الحيوان •

ونشأة اللغة ، سماعا أولا ثم نطقا ، هى شرط تحول ميكانيزم الادراك عند الطفل الى ميكانيزم بشرى بصورته المتميزة • ومن ثم فان المرحلة الثالثة للتعرف على العالم هى الادراك الشرطى اللغوى •

وتنشأ لدى الطفل ابان فترة ما قبل اللغة قدرة على تمييز المدركات تنمو وتتطور باطراد ولكن ما أن يكتسب الطفل اللغة حتى تحدث طفرة كبيرة لعملية الادراك نحو مزيد من التعقد والحساسية • ذلك ان طفل ما قبل اللغة مثله كمثل الحيوان الراقى يمكنه تمييز صفات الموضوعات من خلال الكف التحليلى ولكنه لا يستطيع تجريد تلك الصفة من الموضوع ويستجيب لها فى استقلالها عن الموضوع • مثال ذلك ان الطفل أو الكلب يمكن أن يستجيب لبطاقة حمراء ويكف استجابته للبطاقات ذات الألوان المغايرة (عن طريق عملية التعزيز للبطاقة

الحمراء وعدم تعزيز البطاقات الأخرى) • وتنشأ بهـــذه الطريقة رابطة شرطية مدعمة لتمييز البطاقات الحمراء كما ينشأ كف شرطى للبطاقات الأخرى المغايرة • ولكن طفل ما قبل اللغة يعجز عن الاتيان بهذه الاستجابة الشرطية نفسها مع أى موضوع آخر أحمر اللون • ان الصفة لا يمكن تجريدها عن موضوعها الا عن طريق رابطة شرطية مصحوبة باشارة لفظية دالة عليها • ولهذا فان الطفل بعد أن يكتسب اللغة يكون فى مقدوره أن يفصل الموضوع أو أن يجرده من صفة من صفاته اتخذ لها كلمة دالة على اللون أو الصوت أو الوزن أو الحرارة أو الرائحة أو الطعم • فالكلام هو الذى ييسر للانسان تجريد الصفة عن موضوعها التى كانت تتحد معه أثناء عملية الادراك الحسى الأولية •

ان ميكانيزم الاشـــارات اللفظية هو الرابطة الوقتية التى تتبعها عملية التعميم ثم التجريد • فلو أن لفظا تكرر عدة مرات فى تلازم مع صفة بذاتها فى عدد من الموضوعات المتباينة فان هذا اللفظ يصبح تدريجيا اشارة دالة على هذه الصفة بغض النظر عن الموضوع • فالكلمة المسموعة (ثم المرئية بعد ذلك) من شأنها أن تعزز الصفات موضوع الادراك (اللون ، الذوق ، الخ) وهذا التعزيز ييسر استخلاص الصفة أو تجريدها من الموضوع ذاته • ومن ثم تصبح الصفات ، أحمر أو حلو مثلا معرفة عن حقيقة لها وجودها الموضوعى •

وهكذا يختلف الادراك عند طفل ما بعد اللغة ، ذلك لأن الكلام يعيد تنظيم نشـــاط النظام الاشارى الأول أو الحسى فى اشارته للواقع ، وذلك باتساع مداه ورفاهة حساسيته ودقة تمييزه • فالطفل أو الراشد يتعرف على الصفة التى جردها من موضوع جديد واتخذ لها اسما لأن الكلمة اشارة معممة تحاكى أى مثال مناظر لها • والكلمة تيسر تجريد الصفة من بين كل الموضوعات الجزئية بحيث يمكن ادراكها فى أى موضوع آخر •

وتؤدى اللغة دور الأداة تحلل وتركب وتعمم العديد من الظلال والروائح المتباينة • فما يتطابق مع القسمات الثابتة نسبيا للواقع الموضوعى يجد فى هذا التطابق تدعيما وتعزيزا ، أما ما يفتقر الى التطابق فمآله الكف والانطفاء مثله مثل كل الأفعال المنعكسة الشرطية التى لا تجد ما يعززها ، ان كل دلالة لفظية عن صفة من صفات لموضوع تكشف للطفل عن جانب جديد أو صفة جديدة من صفات الموضوع ومن ثم ينعكس الموضوع فى عقل الطفل على نحو أكثر دقة وضبطا باطراد •

معنى هذا أن بافلوف يرى فى تنشيط نظام الكلام خطوة حاسمة للانتقال من الطفولة المبكرة الى الطفولة الناضجة • ان القدرة على تجريد الصفات من موضوعاتها هى ما يميز ادراك الراشد عن ادراك الطفل ، وهى أيضا ما يميز ادراك الانسان عن الادراك الحسى عند الحيوان• ان الكلب أحد شما من الانسان، والصقر أحد بصرا ، ولكنهما أعجز من أن يمايزا بعض صفات الموضـــوعات والكلام مشروط بالقدرة على معرفة الموضوعات والتعرف عليها من خلال صفاتها وخصائصها والقدرة على مقارنتها ببعضها وتصنيفها ووصفها تفصيلا • ثم ان الكلام هو الذى يهيىء للانسان القدرة على ممايزة أوهى التغيرات التى تطرأ على

صفات الموضوعات • واكتشاف مسار التغيرات عن طريق الملاحظة ، بل وأن يغير الانسان فى الموضوعات عن طريق الانتاج والتجريب وتحديد العلاقات العلمية •

ان الادراك البشرى هو وحدة بين اللغة والخبرة الحسية ، أو هو ، بلغة النشاط العصبى الراقى ، تنظيم النظام الاشارى الحسى بوساطة نظام الكلام • ويشكل الادراك بهذا المعنى الأساس لكل مظاهر الفكر والتصور الذهنى والأحكام والعلوم والفنون عند الانسان • انه الصفة أو الكيف النفسى الأساسى الذى يرتكز عليه كل ما سواه ، ويتطور وينمو مع اكتساب اللغة فى موازاة مع نمو الطفل من الطفولة الباكرة الى الطفولة الناضجة الى الرشد •

فالادراك اذن قدرة عقلية مكتسبة أو قدرة مرتبطة بالنشوء الفردى • واذا كانت نشأة الادراك مشروطة بظروف الحياة الاجتماعية فى تلازم مع البنية الوراثية للنصفين الكرويين للمخ ، فان هذا يعنى أن الناس جميعا على اختلاف زمانهم ومكانهم قادرون على اكتساب الخاصية النفسية للادراك • أما نمو هذه الوظيفة العصبية للمخ من حيث الدرجة والطراز فانه يتوقف أولا وأساسا على شرطين : أولا مستوى التطور التاريخى للمجتمع الذى يعيش فيه الطفل والراشد ، ثانيا : هذا الخليط المتلاطم من الظروف والأحداث العارضة التى تلابس حياة الفرد • هذان الشرطان لا علاقة لهما بالقدرة الفطرية وانما يتعلقان فقط بالظروف الخارجية لحياة المرء •

ومما هو جدير بالذكر أن الادراك عملية متجددة ومتصلة طوال حياة الفرد ولذا فانه يتغير مع تغير ظروف الحياة • ان الوظائف الفطرية الوحيدة للنشاط العصبى الراقى قاصرة على ذلك العدد المحدد من الأفعال المنعكسة غير الشرطية التى تحجبها بعد الميلاد أفعال منعكسة شرطية تدخل ضمن سلاسل من الأفعال المنعكسة المتلاحمة والمركبة التى يكتسبها الفرد فى حياته •

خلص بافلوف وزملاؤه الى أن الادراك خاصية نفسية تنمو مع الحياة الواقعة ، وهى قاسم مشترك بين الناس جميعا (ذوى البنية السوية للمخ) ولكن مع فوارق فردية واثنولوجية كبيرة • الا أن هذه الفوارق الوظيفية ، أو فوارق القدرة العقلية ، هى فوارق مكتسبة ، تتميز بسيولتها الشديدة وتأثرها بالتغيرات العميقة الناجمة عن تغير الظروف الخارجية أو الارادة الباطنية •

وقد أكدت الأبحاث التجريبية لتلامذة بافلوف هذه النتيجة بالنسبة للطابع المكتسب والمتغير للخواص النفسية • ولكن دراساتهم فى هذا المجال لم تبدأ الا مؤخرا وان كانت كلها تشير الى صواب الغرض الأساسى الذى طرحه بافلوف• ولكن لازال هناك الكثير من المشكلات التى تنتظر دراسة مدققة • ولدينا الآن ما يكفى من الأبحاث والمعلومات التى تحدد طبيعة المهام المستقبلة لعلم النفس لاكتشاف الميكانيزمات الوظيفية للمخ التى ترتبط بكل الخواص النفسية وقدرات العقل البشرى • ويوم يتحقق التعاون المشترك بين علم النفس وفسيولوجيا النصفين الكرويين للدماغ فاننا نكون قد بدأنا بحق مرحلة هامة ومثيرة فى تاريخ العلوم كلها ــ اذ سيبدأ الانسان أولى خطواته العملية نحو اكتشاف ضالته المنشودة : جوهر الطبيعة البشرية •

ان علم النفس وفسيولوجيا النصفين الكرويين للدماغ لايزالان حتى اليوم وبعد مضى ربع قرن على وفاة بافلوف متباعدين أو غير متلاحمين كما ينبغى أن يكون فى أى بلد من بلدان العالم • ويرى كثير من علماء النفس فى الاتحاد السوفيتى أن مثل هذا التلاحم بات ضرورة ملحة • واذا كان هذا هو الحال فى البلد الذى نشأ فيه بافلوف والملتزم بنظرة مادية واحدية ، فما بالنا بالوضع فى البلدان الأخرى • ان الثنوية لازالت تسود فكر الكثيرين من علماء العالم على الرغم من ادعائهم قولا لا فعلا بأن العقل وظيفة للمخ •

وثمة علماء فى الولايات المتحدة ، كما فى غيرها من البلدان ، يشنون نضالا مضنيا ضد الثنوية ابتغاء تحقيق الوحدة بين علم النفس وفسيولوجيا المخ • وسوف يتحقق هذا الارتباط مستقبلا ان آجلا أو عاجلا ، كما تنبأ بذلك بافلوف ويومئذ ستجد مشكلة العقل الحل الواقعى الأمثل • ان الوحدة بين فسيولوجيا المخ وعلم النفس هدف منشود ولكن تحقيقه عمليا مسألة أيديولوجية فى المحل الأول ذلك لأن الفكر الثنوى لن يرضخ أو يتخلى فى سهولة ويسر عن تقاليده التاريخية العريقة • ان تاريخ العلوم ، بدءا من جاليليو وبرونو شاهد على أن المعرفة التجريبية مطلب نضالى ضد كل الاتجاهات الذاتية والعقائد المتحيزة • واذا صدق هذا بالنسبة لعلوم الفلك والطبيعيات فهو بالأحرى أصدق بالنسبة لعلم النفس •

مقابلة وتقييم

ان المقابلة بين هذين النهجين فى علم النفس تكشف عن تناقض صارخ ، فضلا عن أن النتيجة تبدو واضحة تفرض نفسها على الباحث دون حاجة الى برهان •

وثمة حقيقة لا تقبل الجدل وهى أن أى مقابلة بين نهج فرويد وأى نهج آخر تجريبى سيكشف عن تناقض واضح فيه ادانة للتحليل النفسى • بيد أن مقابلة نهج بافلوف بنهج فرويد تكشف عن ميزة أساسية تتجاوز ما عداها تلك هى أن علم النشاط العصبى الراقى قد بدأ ، وهو الأقدر يسد الهوة التى تعانى منها المعرفة والتى كانت تاريخيا السبب فى أن التزم فرويد جانب علم النفس التأملى •

واذا كانت العلوم كلها والفلسفة العلمية المادية تؤكد أن العقل وظيفة المخ فقد بات لزاما على علم النفس وهو علم العمليات العقلية ، أن يتخذ من معارفنا عن الأداء الوظيفى للمخ أساسا مكينا له • وهذه هى المعارف التى شرع فرويد ومدرسته فى تقديمها للعالم • وبدون هذا العلم سيجد عالم النفس نفسه أمام أحد بديلين : أولا الاتجاه الى الدراسة الوصفية التصنيفية لسلوك الانسان أو الحيوان مستعينا فى ذلك بتجارب موضوعية ــ وهو ما ينتهى به الى تكديس قدر هائل من الحقائق ومعاملات الارتباط الاحصائية ، أو ثانيا وضع نسق تأملى ميتافيزيقى تأسيسا على الملاحظة الاستبطانية وسبر غور عقول الآخرين بوسائل متباينة • وان أى مقابلة بين هذين النهجين كفيلة بأن تكشف عما بينهما من تباين وتناقض • ومثل هذه المقابلة كافية بذاتها لكى تدحض أى مذهب ميتافيزيقى

في علم النفس بما في ذلك مذهب فرويد · ولكن يجب أن لا نقنع بمجرد الاشارة الى الاتجاه الذى يجب أن يلتزمه علم النفس كى ينتقل من مرحلة الوصـــف والتصنيف الى مرحلة التفسير والتعليل ·

ان المطلب الأول لتحقيق هذه النقلة ، كما يرى بافلوف ، هو عقد تحالف وثيق بين علم النفس وفسيولوجيا المخ · (×) ويتوافر هــذا الشرط الأول فى نظرية بافلوف ·

والملاحظ أن فرويد فعل أكثر من مجرد اغفال هذا الشرط · ذلك لأنه اتخذ من نقص معارفنا عن هذا المجال ذريعة لابداله باتجاه آخر على النقيض حين رأى أن العقل قادر على أن يفسر ذاته بذاته على الرغم من ايمانه بأنه مشروط بالأداء الوظيفى للمخ · وشرع تحت ستار هذا المبدأ المثالى فى وضع مذهبه الذى سماه « علم النشاط العقلى اللاشعورى » (× ×) ·

ان علم النفس الذى قال به فرويد هو علم اللاشعور ، ولكن اللاشعور عنده هو البديل للنصفين الكرويين للدماغ · ونظرا لقصور فسيولوجيا المخ وقتذاك فقد استطاع أن يضمن اللاشعور كل ما شاء ويفى بهدفه لبناء نظرة عن التحليل النفسى لا تعوقها قوانين أو حقائق فسيولوجية ·

حقا أن فرويد قد يجد فى غياب علم النشاط العصبى الراقى مبررا لما ذهب اليه على نحو ما فعل معاصروه ومنهم وليام جيمس · ولكن افتقارنا الى معرفة شىء ليست مبررا ، خاصة فى ميدان البحث العلمى ، لالغاء المنهج العـــلمى والانصراف الى التخمين ·

ولننتقل الآن الى قلعة التحليل النفسى ــ علم الأمراض النفسية والعلاج النفسى · ترى هل يقف علم النشاط العقلى اللاشعورى ندا لعلم النشاط العصبى الراقى أو يفوقه فى هذين المجالين ؟ ·

(×) هذا لا يعنى بأى حال من الأحوال أن علم النفس مرادف لفســيولوجيا النشاط العصبى الراقى ، وانما هذا الأخير شرط للأول · ان علم النفس لكى يكون علما حقا لا بد من الرجوع الى علوم أخرى كشرط أولى ، ومن هذه العلوم علم المجتمع ونظرية المعرفة ·

(× ×) فرويد : « دراسة عن حياتى » ــ ص ١٢٩ ·

الفصل العاشر

فرويد والمرض العقلى

فى عام ١٨١٢ صاغ بنيامين رش ، أحـد الموقعين على وثيقة الاستقلال وأبو الطب العقلى الأمريكى ، المبدأ الأساسى الذى أصبح فيما بعد حجر الزاوية للطب النفسى العلمى فى جميع أنحاء العالم : « المرض العقلى فساد يصيب هذا القطاع من المخ الذى يشكل ركيزة العقل » × ٠

اذن المخ هو العضو المريض فى حالة المرض العقلى ، أما العقل فيكشف عن الأعراض فى صورة اضطرابات للعمليات الانفعالية والفكر ــ سلوك مشوش وتخييلات وخداع وهجاس وما الى ذلك ٠ وتاريخ الطب العقلى يعكس فى جملته قصة البحث عن علل اضطرابات المخ ٠ وكان أطبـــاء الأمراض العقلية منـذ ما يقرب من مائة عام يردون الأمراض العقلية الى اصابات عضوية تصيب المخ ــ عطب يصيب خلايا المخ بسبب اصابة أو مرض ٠

ولكن نشأت أزمة فى أواخر القرن التاسع عشر ٠ اذ على الرغم من توافر الكثير من المعلومات عن الاصابات العضوية التى تصيب المخ وما يتعلق بها من أنماط الجنون الا أنه ظلت هناك صور عديدة من المرض العقلى لا تكشف عن أى أثر لعطب حقيقى أصاب المخ أو أى مرض آخر ٠ وكان بعض هذه الأنماط من الأمراض العقلية « المجهولة العلة » بدنى المنشأ والبعض الآخر نفسى المنشأ ولكن تعذر الكشف فى كلتا الحالتين عن أى اصابة عضوية ٠

أبان هذا عن ثغرة فى الطب العقلى ٠ وظهر وقتذاك أن ليس ثمة غير بديلين : اما التخلى عن المبدأ الأساسى للطب العقلى والبحث عن علل عقلية خالصة واما الاصرار على المبدأ ومواصلة البحث أملا فى الاهتداء الى اصابات دقيقة

× بنيامين روش : « الاصابات الطبية وملاحظات عن أمراض العقل » ٠
فيلادلفيا ــ ١٨١٢ ص ٢٨ ٠

خافية لم يتيسر اماطة اللثام عنها بعــد ٠ التزمت الغالبية الساحقة من أطبـاء الأمــراض العقلية بالاتجـاه الثـــاني وتمسكوا في اصرار بمبدئهم ، وواصلوا دراساتهم غير المثمرة بحثا عن اصابات عضوية ٠ ولكن بعض أطباء الأمــراض العقلية من ناحية أخرى رأوا بعد تردد من جانبهم ، التخلي عن المبدأ القائل بأن القطاعات العليا من المخ هي موطن المرض العقلي واتجهوا بأنظارهم صوب العقل ذاته غير المتجسد ظنا منهم أنه مصدر المرض ٠

ورأينا خلال عرضنا الموجز لحيــاة فرويد كيف أنه اختار ، بعــد معاناة مضنية ، البديل الأول وتخلى عن المبدأ التاريخي والأساسي للطب العقلي وشرع يبحث عن حل لمشكلة المرض العقلي الوظيفي بلغة سيكولوجية بحتة ٠

واتخذ بافلوف موقفا على النقيض من فرويد اذ التزم بالمبدأ ولكنه رفض في نفس الوقت كلا من البديلين ٠ ذلك أنه بدلا من مواصلة نفس الطريق بحثا عن اصابات عضوية أو بحثا عن العلل في العقل ذاته ، اتجه الى علم وظائف النصفين الكرويين للمخ يلتمس لديه الحل للمشكلة ٠ وهكذا فبينما التزم فرويد نهجـا سيكوباثولوجيـا (قائما على علم النفس المرضى) لدراســة المرض العقلي الوظيفي ، وهو نهج يخرج به تماما عن التيار الأساسي للطب العقلي ، التزم بافلوف نهجا باثوفسيولوجيا (قائما على الفسيولوجيا المرضية) ، ويدخل في صميم تراث الطب العقلي ٠ وسوف نعرض هنا حصيلة كل من هذين النهجين المتعارضين ٠

ربما كانت أفضل طريقة لفهم نهج فرويد لدراسة المرض العقلي الوظيفي هي تتبع تطوره في فكر صاحبه ٠ فقد كان للتحليل النفسي تاريخ سابق شيق ٠ وسوف نضع أيدينا ونحن نتتبع مسار فكر فرويد على تفسير واف للظاهرة النفسية التي كان لها أثرها الكبير على الفكر الأوروبي عامة والأمريكي خاصة على مدى نصف قرن من الزمان ٠

سبق لنا أن عرضنا نبذة عن هذه القصة في الفصل الخاص بحياة فرويد ، ولكننا سنتناولها هنا بتفصيل أكبر نظرا لفائدتها الجمة وسحرها أيضا ٠

في الوقت الذي تزوج فيه فرويد وفتح مكتبا في فينا (عام ١٨٨٦) كان قد قضى قرابة عام يدرس مع جان شاركو في معهد السالبتريير بباريس ٠ وواجهته في هذه الفترة ، باعتباره طبيبا ممارسا للأمراض العصبية في عيادة خاصة ، تلك المهمة العسرة لعلاج العصابيين ٠ يقول فرويد في ذلك « حاولت أن أعين نفسي وعائلتي التي يتزايد عددها بسرعة كبيرة بممارسة الطب لعلاج من يسمون « العصابيون » وهم كثيرون في مجتمعنا ٠ بيد أن المهمة كانت أصعب مما كنت أتوقع ٠ ذلك أن طرق العلاج المتبعة لم تكن لتفيد الا قليلا وربما كانت غير ذات فائدة على الاطلاق : معنى هذا أن قد بات لزاما اتباع طرق أخرى ٠ وكم هو عسير على المرء أن يشفي المرضى وهو لا يفهم شيئا عن مرضهم أو علة ما يعانونه أو معنى شكاواهم » ٠ ومن ثم كان في حاجة الى المساعدة ٠ « لذلك قصدت شـــاركو العظيم في باريس التمس منــه في شغف النصــح والتوجيه ٠٠٠٠ » × ٠

× فرويد : « الأبحاث الكاملة » ـ مجلد ٥ ـ ص ٢٩٥ ٠

استرجع فرويد شهور دراسته على يد شاركو ، ورأى فى وفاته عـام ١٨٩٣ فرصه يلخص فيها ما تعلمه على يد معلمه القديم ٠

كان شاركو مصنفا ممتازا ، إستعان بالملاحظه وتشريح الجثث بعـد الوفاة مباشرة لتصنيف العديد من صور الامراض العقليه اوظيفيه ٠ واتجه فى الاعوام الاخيرة من حياته الى الأمراض العقليه الوظيفيه بعامه والهستيريا بخاصـة ٠ وكان أول من قدم تشخيصا طبيا شرعيا عن الهستيريا ، ومند هذا الوقت لم يعد أحد ينظر الى الهستيريين باعتبارهم « متمارضين » ودخلوا في عداد من يعانون مرضا عصابيا محددا ٠ ولم يقتصر عمل شاركو على تصنيف أنماط الهستيريا بل انتهى الى رأى محدد عنها اذ اعتبرها مظاهر لحالات تنويمية أو لأطوار التنويم مردها الى تفكك الشعور ٠ ومايز بين ثلاثة أطوار للتنويم تناظر الأطوار الثلاثة للهستيريا ٠

وهكذا انتهى شاركو الى نتيجة تماثل تقريبا النتيجة التى انتهى اليها بافلوف عن الهستيريا بعده بأربعين عاما ٠ ولكن بقى هنالك فارق كبير بينهما على الرغم من هذا التشابه ٠ ذلك أن بافلوف استقى آراءه عن علاقه الهستيريا بأطوار التنويم من أبحاثه التجريبية فى معمله عن التنويم والانهيار العصبى فضلا عن ملاحظاته العيادية ، واستطاع بناء على هذا أن يبرهن على ان ميكانيزم التنويم والأطوار الثلاثة (طور التعادل والطور النقيضى والطور مابعد النقيضى) هى حالات وسـيطة للكف المنتشر تفصـل ما بين الصحو الكامل والسـبات العميق ٠ أما عن ظاهرة تفكك النشاط العقلى التى مايزها شاركو وأرجعها الى حالات تنويمية فقد أرجعها بافلوف الى تعطل النظام الاشارى للكلام وتوقفه عن أداء دوره التنظيمى نتيجة لانتشار الكف الوقائى فوق مناطق اللحاء وما يتبع ذلك من نشاط النظامين الأدنيين الذى يصبح نشاطا انفعاليا وغريزيا ، اثر تحرره من القوة المنظمة له ٠

كانت فسيولوجيا التنويم وأطواره مجهولة بطبيعة الحال وقتما بدأ شاركو ملاحظاته على الهستيريا ٠ ومن ثم لم يكن يسعه سوى تخمين طبيعة ميكانيزم هذه الظواهر ٠ وانتهى فى تخمينه الى أن حالات التنويم تحدث نتيجة لأفكار نوعية تتسلط على عقل المريض ٠ ويقول فرويد عن هذا التخمين ضمن مقاله عن شاركو : « وهكذا بفضل هذا الميكانيزم أمكن لأول مرة فى التاريخ اماطة اللثام عن ميكانيزم ظاهرة الهستيريا ٠٠٠٠ » × ٠

ان شاركو هنا مثله كمثل العديد من الأساتذة فى تاريخ العلوم والفكر قدم اكتشافا تاريخيا وتخمينا خاطئا فى نفس الوقت ٠ اكتشف علاقة وثيقة بين أطوار التنويم وبين الهستيريا ولكنه أعطى تخمينا خاطئا فى تفسيره لميكانيزم الهستيريا ٠ كان الاكتشاف فى حدود امكانيات عصره ، أما التخمين فقد كان محاولة لتجاوز هذه الامكانيات والتعالى عليها ٠ وحقيقة الأمر أن لب الحقيقة التى اكتشفها شاركو لم يكن من المستطاع تطويره الا بعد اكتشاف الميكانيزم الفسيولوجى للتنويم ــ وهى المهمة التى أنجزها بافلوف بعده ببضع عشرات من السنين ٠

× فرويد : « الأبحاث الكاملة » ــ مجلد ١ ــ ص ٢٢ ٠

وفي نفس الوقت فان تلامذة شارکو الذين تعجلوا الشهرة ـ ومنهم على سبيل المثال بيير جانيه والفريد بينيه وجوزيف بروير وسيجموند فرويد ـ اغفلوا تماما لب الحقيقة الذى تضمنته تعاليم أستاذهم ووضعوا نصب أعينهم تخمينـه الخاطىء • ومن ثم ذهبـوا الى أن ميكانيزم التنـويم هـو ميكانيزم الهستيريا ، وأن هذا الميكانيزم ان هو الا ميكانيزم عقلى بحت أو سيكولوجى خالص ، انه الفكرة النوعية التى تتسلط على العقل • وبدأوا منذ ذلك الوقت فصاعدا ينظرون الى الهستيريا وكل حالات العصاب الأخرى باعتبارها ظواهر عقلية خالصة يكون علاجها وتحليلها على أساس سيكولوجى بحت • وهكذا انتفى المبدأ الأساسى للطب العقلى القائل بأن المخ هو عضو الحياة العقلية والمرض العقلى • يقول فرويد : « ان شاركوا هو أول من علمنا أن نتجه الى علم النفس نلتمس فيه تفسير العصاب الهستيرى » • ×

ولكن المشكلة الوحيدة هى أن علم النفس لم يكن يملك وقتذاك مايقدمه ومن ثم كان عليهم الاعتماد على جهودهم الذاتية • وفى هذا يقول فرويد : « ان علم النفس السائد وقتذاك فى المدارس الفلسفية كان فقيرا بوجه عام ولم يكن يملك شيئا على الاطلاق يقدمه عونا لنا فيما قصدناه : ومن ثم كان لزاما علينا أن نكتشف من جديد كلا من مناهجنا والفروض النظرية التى تظاهرها » • × × ولكن كان على فرويد قبل أن يشرع فى الافادة من نهجه السيكولوجى الطليق أن يحرر نفسه مرة والى الأبد من ذلك الاعتقاد المتسلط والذى كان شاركو لا يفتأ يؤكده وهو أن هناك علة عضوية تكمن وراء تفكك الشعور والأفكار النوعية التى تتسلط على عقل الهستيرى •

كان شاركو يعبر دائمـا عن اعتقاده الجازم بأن علة الهستيريا اصابة عارضة فى لحاء المخ اختفت بصورة أو بأخرى وقت فحص المريض اثر وفاته • وعندما كان فرويد فى السالبترير عهد اليه شاركو بمهمة عقد مقـارنة بين الشلل العضوى المخى والشلل الهستيرى العصابى • لم يكن فى مقدور فرويد وقتذاك أن ينجز ما عهد اليه به ولكنه عاد الى المشكلة عام ١٨٩٣ اثر وفاة أستاذه ، ونشر اكتشافاته على هيئة بحث تكنيكى • × × × وتساءل فرويد ، بعد أن ناقش اصابات اللحاء المتباينة التى يمكن اعتبارها ميكانيزمات للشلل العضوى للمخ : « ترى ما عساها أن تكون طبيعـة الاصابة فى حالة الشلل الهستيرى ؟ » كان شاركو يؤمن أن هذه الاصابة هى اصابة فى اللحاء أيضـا وان كانت اصابة وظيفية أو ديناميه قبل أن تكون عضوية • وفى هذا يقول فرويد : « كان شاركو لا يفتأ يعلمنا أنها اصابة فى اللحاء ولكنها اصابة من نوع دينامى أو وظيفى بحت » • بيد أن نقص المعلومات عن وظيفة اللحاء حال دون شاركو وتحـديد طبيعة الاصابة الوظيفيـة فى لحاء المخ • وكل ما كان يستطيعه هو الاصرار على « أن ثمة بالضرورة اصابة هستيرية (وظيفية) » • معنى هذا أن شاركو لم يكن راغبا أبدا فى التخلى عن المبدأ القائل بأن المخ هو

× المرجع السابق ـ ص ٥٧ •

× × فرويد ـ الأبحاث الكاملة ـ مجلد ٥ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ •

× × × « بعض النقاط عن دراسة مقارنة بين الشلل العضوى والشلل الهستيرى » • محفوظات علم الأعصاب ـ رقم ٧٧ ـ ١٨٩٣ •

عضو الحياة العقلية واعرض العقلي • ولكن حماسه المتوقد لاعتقاده هذا لم يجد في العلم سندا له وقتذاك • ونأى فرويد بعد ذلك عن اعتقاد أستاذه وأصبح مهيأ لأن يفترض « اصابة » عقلية خالصة مستقلة تماما عن التشريح العصبي • وكتب فرويد في بحثه سالف الذكر المنشور عام ١٨٩٣ « انني أقرر النقيض ذلك أن الاصابة في حالة الشلل الهستيري لابد وأن تكون مستقلة تماما عن تشريح الجهاز العصبي » •

ويستطرد فرويد قائلا في نفس هذا البحث : « سأحاول الآن وبشكل نهائي أن أعرض رايي عن الاصابة التي قد تكون هي علة الشلل الهستيري » • ثم يضيف قائلا : « ولكي افعل ذلك فانني استميح القارىء في ان أقفز الى مجال علم النفس » • ووصولا الى هذا الغرض يعود الى تخمين شاركو الذي ذهب فيه الى أن الاصابة الوظيفية هي فكرة أو مركب من مجموعة من الافكار تتسلط على العقل ولا تربطها صلة بغيرها من الأفكار • ويذهب فرويد الى أن الفكرة هنا ترتبط فقط بذكرى عن خبرة صدمية وتمارس أثرها تحت الشعور ، وتظهر نتيجة لذلك أعراض الشلل الهستيري • واذا حدث أن « ارتبطت فكرة ما بمجموعة لها قيمة وجدانية كبرى فانه سيكون من المتعذر عليها مشاركة للمجموعات الأخرى في نشاطها الطليق ••••• هذا هو حل المشكلة التي أثرناها ، ذلك لأننا نجد في كل حالة من حالات الشلل الهستيري العضو المشلول أو الوظيفة المعطلة مرتبط بمجموعة من الأفكار تحت الشعورية تتميز بقيمة وجدانية كبرى ••• والفكرة ••• يتعذر عليها النفاذ الى المجموعات الشعورية والارادة الشعورية لأن كل صلتها الترابطية ، اذا جاز هذا التعبير ، مشبعة برابطة تحت الشعور تربطها بذكريات الحدث أو الصدمة التي كانت علة الشلل • » ×

هذا هو البديل في صورته الباكرة الذي قدمه فرويد عوضا عن الاصابات الوظيفية للحاء باعتباره الميكانيزم المسئول عن حالات العصاب • ويتألف هذا البديل من رابطة تحت شعورية أو لاشعورية تربط بين فكرة وذكرى صدمية• وواضح أنه بديل عقلي بحت لا علاقة له بالأداء الوظيفي للحاء • ويمثل هذا البديل اعلان فرويد استقلاله عن المبدأ الأساسي ليس فقط المبدأ الأساسي للطب العقلي بل المبدأ الأساسي لكل علوم الحياة وفلسفة العلم ذات التاريخ العريق• وخرج فرويد منذ هذه اللحظة عن المسار الرئيسي للطب العقلي والعلم اجمالا واحتضن العقيدة الثنوية المثالية المحدثة في صورة مذهب التوازي النفسبدني• لقد أخذ التخمين الخاطىء بمعزل عن الاعتقاد الجازم لاستفادة شاركو بوجود اصابة وظيفية في لحاء المخ ، وأصبح هذا التخمين بدأ من ١٨٩٣ يشكل حجر الزاوية في فكر فرويد •

وفي بحث آخر كتبه فرويد أيضا عام ١٨٩٣ بالاشتراك مع جوزيف بروير قدما صورة أكثر تطورا لمفهومهما عن الميكانيزم العقلي البحت للعصاب • ذهبا في بحثهما هذا الى أن الصدمة النفسية ، بمعنى الحدث الذي كان علة اثارة المرض ، أو ذكرى هذا الحدث تظل في حالة نشاط متصل ولكن لا شعوريا •

× فرويد : « الأبحاث الكاملة » ـ مجلد ٥ ص ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٧ •

وتظل حالة العصاب باقية ما بقى نشاط الصدمة النفسية أو ذكراها • ورأينا أن علاج هـذه الحالة يكمن فى محو ذكرى الحـدث وهو ما يستتبعه محو كل الأعراض العصابية •

ان الفرض القائل بأن هناك ذكرى لصدمة مؤثرة ونشطة على الدوام فى حالة المرض العقلى الوظيفى انما أخذه فرويد عن عدد من المشتغلين بالأمراض العصبية والطب العقلى وعلم النفس ممن كانوا يسيرون على نفس الدرب ونعنى بهم : بيير جانيه والفريد بينيه وديلبوف وموبيوس وسترومبل وبينيديكت •

ان فكرة الذاكرة اللاشعورية المؤثرة أبدا انما هى افتراض لا مبرر له جاءت ضرورته من النظر الى المرض العقلى باعتباره مرضاً عقليا خالصا • ولم يكن مصادفة على الاطلاق ان هذه النظرة كانت قاسما مشتركا بين كل النظريات السيكولوجية المتباينة التى تعالج موضـوع العصاب ، فهى البديل الوحيـد المحتمل عوضا عن المنهج الوظيفى للمخ • ان تعليل حالات العصاب تعليلا عقليا خالصا لا يمكن أن يكون الا بافتراض أن علة المرض تكمن فى ذاكرة مؤثرة دوما ، وتبقى الأعراض ما بقى نشاطها وأثرها • ونظرا لأن هذه الذكريات لا يعيها شعور المريض ولا يعرفها أى انسان آخر اذن لابد من افتراض أنهـا لا شعورية • ومن ثم فان السبيل الوحيد للتعرف عليها هو التحليل مع التأويل والترجمة الرمزية للمحتوى الرمزى الذاتى لحالات التخييلات والخداعات والأحلام العصابية • ولهذا فان كل شىء يتوقف على ترجمة ما يسمى باللغة الرمزية للحالات المرضية • وهذه الترجمات هى البينة الوحيدة على وجود تصـورات نابعة عن ذكرى صدمية •

حاول فرويد كما سبق أن رأينا ، تجربة عديد من المناهج لسبر غور العقل اللاشعورى لمرضاه مسـتهدفا اكتشاف رموز الذكرى الصـدمية التى افترض أنها أساس الأعراض العصابية ــ أولا الأوامر أثناء التنويم ثم الحث والايحاء أثناء التنويم • واستقر أمره أخيرا على مناهج ثلاثة : تفسير الأحـلام والتداعى الطليق وظواهر الطرح • وسبق لنا أن ناقشنا هذه المناهج • ولكن سنركز حديثنا الآن على ما « اكتشفه » فرويد عن طريق الأحلام فيما يتعلق بالميكانيزمات العقلية الخالصة وعلل الأعراض العصابية •

جمع فرويد نتائج محاولاته لسبرغور عقول مرضاه خلال فترتين محددتين تحديدا واضحا • الأولى من ١٨٩٣ الى ١٨٩٧ وهى على وجه الدقة والتحديد مرحلة تطور التحليل النفسى ، والثانية من ١٨٩٧ حتى وفاته وهى مرحلة تاريخ التحليل بمعناه الخاص المتميز •

العصاب واغواء الطفل

انتهت المرحلة الأولى وهى مرحلة « الاكتشاف بوساطة الفـن التأويلى لتحليل النفس الى اخفاق تام مما تسبب فى أزمة عنيفة فى حياة فرويد • اذ بينما كان فرويد يتتبع ، أو بالأحرى كما قال هو ، يبنى الروابط الرمزية بين الأعراض الباثولوجية وبين الذكرى اللاشعورية للحـدث الصدمى وجد نفسـه مضطرا الى التوغل أكثر فأكثر فى ماضى حيـاة المريض • ووجـد كل السبل

تنتهى به الى عدد من الأحداث الأولية في سن الطفولة • وظلت ذكرى هذه الأحداث في اللاشعور دون أن يسترجعها المرضى • واستطاع فرويد في ثمانية عشر حالة من حالات الهستيريا أن يقنع المرضى أن بناءه الذى شيده على أساس ترجمة الأحلام ورموز التخييلات لابد وأنه هو الخبرة الصدمية التى أدت أخيرا الى ظهور المرض •

وكشف البناء في كل الحالات الثماني عشرة عن خبرة جنسية سالبة حدثت في سن الطفولة الباكرة ما بين عام ونصف الى ثماني أو عشرة أعوام• وخلص فرويد الى « وجود خبرة جنسية سالبة قبل البلوغ : وهذا هو التعليل النوعى المحدد للهستيريا • « ووصف بناءه لهذا الحدث على نحو تفصيلى : « ان الحدث ، أو الصورة اللاشعورية التى احتفظ بها المريض ، هو خبرة جنسية مبتسرة صاحبها تنبيه فعلى للأعضاء التناسلية نتيجة ممارسة جنسية منحرفة من جانب شخص آخر • ووقع هذا الحدث المصيرى فى حياة الطفل أثناء سن الطفولة الباكرة التى تمتد حتى الثامنة أو العاشرة من العمر وقبل أن يبلغ الطفل سن النضج الجنسى • » ×

ويرى فرويد أن « القسيم العقلى » للخبرة الجنسية الصدمية المبتسرة يتمثل فى استرجاع الحدث الأولى فى حياة المريض على هيئة « رموز لذكرى هذه الخبرة » • وذهب أيضا الى أننا نستطيع أن نعيد بناء المادة اللاشعورية (الخبرة الجنسية السالبة) عن طريق ترجمة رموز الذكرى « متوصلين لذلك بالتفسير أو الترجمة » •

وكان فرويد يؤمن بأن ميكانيزم الهستيريا يتمثل فى الدفاع ضد الخبرة الصدمية الطفلية عن طريق كبت ذكراها • وهكذا تصبح الذكرى ذكرى لا شعورية مشحونة بطاقة نفسية عالية تحاول أن تشق طريقها للتعبير عن نفسها تعبيرا رمزيا مقنعا ومشوشا عن طريق الأحلام والتخييلات والأعراض العصابية • ومهمة التحليل هى تتبع هذه العملية حتى منشأها الأول بدءا من الرموز الى اعادة بناء الحدث الجنسى الذى ترمز اليه هذه الرموز • ويتعين على التحليل « ان يشد انتباه المريض بعيدا عن العرض المرضى الى حيث كان موطن نشأة هذا العرض أصلا » وقوام العلاج هنا تصحيح الارجاع الانفعالى الأصلى تجاه الخبرة الجنسية الطفلية ، وبهذا تتبدد طاقته الوجدانية • يقول فرويد « وبعد أن نكتشف (الحدث الأولى » نتجه عند استعادة المشهد الصدمى مستهدفين تصحيح الارجاع النفسى الأصيل تجاه هذا المشهد وبهذا نزيل العرض المرضى » • × ×

زعم فرويد أن منهجه التحليلى والعلاجى حقق نجاحا كبيرا • وأصدر سلسلة من الأبحاث ادعى فيها أننا دخلنا مرحلة جديدة تماما فى مجال دراسة وعلاج الهستيريا • ودفع فى ازدراء كل التهم التى طالما وجهها له الكثيرون بأنه يقحم تفسيراته قسرا على المرضى • ولكنه أصر قائلا : « أننى لم أوفق فى أن أقحم على مريض مشهدا توقعت أن أجده على النحو الذى بدا لى أنه عاشه ثانية

× المرجع السابق – ص ١٤٨ ، ١٤٩ •

× × المرجع السابق – ص ١٨٥ – ٢٦٨ •

بكل انفعالاته الخاصة » • وسود الصفحات تلو الصفحات يسوق فيها حججه دفاعا عن واقعية تفسيراته للجنسية الطفلية • وانهالت مؤلفات ودراسات تدين نظرياته وأسهمت فى ذلك كل الصحائف والمجلات المتخصصة •

هنا ألفى فرويد نفسه يقف وحيدا فى العالم ، حتى أن صديقه وزميله جوزيف بروير انشق عليه وعارض نظريته عن الجنسية الطفلية • ورأى فرويد أنه لو لم يكن يهوديا ألف الاضطهاد واعتاده لانهـار تحت وطأة هـذا الضغط المروع • وأطلق على هذه الفترة اسم « اعوام التوحد » •

واصل فرويد مسيرته لسنوات عدة فى مواجهة هذه المعارضة الشاملة زاعما أن اكتشافاته ان هى الا الهام رائع لا يبارى • وقال عام ١٨٩٦ : « طرحت القضية التى أقرر فيها أننـا سنجد فى أعماق كل حالة من حالات الهسـتيريا خبرة أو أكثر من الخبرات الجنسية الأولية التى ترجع الى الأعوام الأولى للطفولة ، ويمكن استعادة هذه الخبرات عن طريق التحليل على الرغم من عشرات السنين التى باعدت بينها وبين حالة المرض الراهنة • وأعتقد أنه الهام رائع أن أكشف عن فساد فكر Caput nili علم الأمراض العصبية • وما أن حل عام ١٨٩٧ حتى كان فرويد قد وسع من نظريته الجنسية بحيث تضمنت كل صور الامراض العقلية الوظيفية دون أن تقتصر على الهستيريا وحدها : « أن أبحاثى التفصيلية فى الأعوام الأخيرة قادتنى الى الاعتقاد بأن العوامل التى تظهر فى الحياة الجنسية تمثل أقرب وأخطر العلل عمليا لكل حالة على حدة من حالات المرض العصبى » •

ثم وضحت النتيجة • انهار عالم فرويد حول رأسه ، وثبت صواب كل من تصدى له انتقادا أو ادانة • واضطر الى أن يسلم اخيرا بأنه كان يقحم تفسيراته الرمزية على مرضاه ، وأن نظريته خلو من كلمة حق واحدة فيمـا يتعلق بأن الأغراء أو الانحراف الجنسى فى سن الطفولة هو علة الهستيريا وغيرها من الحالات العصابية • وكتب أخيرا يقول : « بعد أن انهار هذا المنهج فى تعليل الأمراض بسبب استحالته وتناقضه فى ظروف محددة يمكن التيقن منها كانت النتيجة أول الأمر حيرة بائسة • قادنا التحليل عبر طرق قويمة مرتدا الى هذه الأصدمة الجنسية ومع ذلك لم تكن صحيحة • ضاعت الحقيقة وهى تحت أقدامنا • وكم كان يسعدنى أن أتخلى وقتذاك عن كل شىء مثلما فعل سلفى المبجل بروير ••• » × وكتب فى موجز تاريخ حياته يقول : « تحت وطأة الاجراء التكنيكى الذى كنت استخدمه وقتذاك استعادت الغالبية من مرضاى مشاهد ترجع الى أيام الطفولة صادفتهم فيها اغواءات جنسية من قبل بعض الكبار ••• كنت أصدق هذا القصص ومن ثم ظننت أننى أكتشفت جذور حالات العصاب فى هذه الخبرات التى ترجع الى غواية جنسية فى زمن الطفولة ••• ولكن عندما وجدت نفسى مضطرا أخيرا الى الاعتراف بأن مشاهد الغواية لم تحدث على الاطلاق وأنها لم تكن سوى تخييلات اصطنعها مرضاى أو ربما أقحمتها أنا عليهم أحسست بالضياع الكامل • وهنا أيضا ألفيت ثقتى

× المرجع السابق : « ص ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٢٠ ، ٢٩٩ » •

بما اصطنعته من فن علاجي فضلا عن نتائجه قد لقيت لطمة قاسية » . ×

كتب فرويد بيانه هذا بعد مضي ما يقرب من ربع قرن على ما سماه « الانهيار العام » لنظريته عن « علم العصاب Neurotica . × ×
فقد وقع الانهيار التام لنظريته عن الغواية الطفلية عام ١٨٩٧ ولكنه لم يعلن تراجعه عنها الا بعد مضى ثماني سنوات أو حتى عام ١٩٠٥ . ونحن لم نعرف أن عام ١٨٩٧ هو التاريخ الفعلي لانهيار نظريته الا من خلال رسالة له الى صديقه الأوحد الذى بقى له دون كل أصدقائه وهو ويلهلم فلايس . اذ كتب الى صديقه فى ٢١ سبتمبر عام ١٨٩٧ يقول له : « دعنى أفصح لك صراحة ودون مواربة عن السر العظيم الذى بدأ يشرق على فجره رويدا رويدا خلال الشهور الأخيرة . أننى لم أعد أومن بنظريتي المسماة علم العصاب النيوروتيكا ثم يستطرد يعدد أسباب تحرره من الوهم الذى وقع فيه . ان عددا كبيرا من المرضى « فر هاربا » من التحليل ، وأنه لم يحقق ما كان يرجوه من نجاح : و « امكانية رجوع بعض مظاهر نجاحي الجزئى الى وسائل أخرى مألوفة . « وزعم أنه حقق شفاء ملحوظا لبعض الحالات نتيجة نقل مشاهد الغواية الى الشعور . وقال : « والآن لا أدرى أين أنا .. يقينا لن أذكر هذا فى أبحاث أو أذيعه فى شوارع أشكالون داخل أرض الأعداء . » ولكنه حاول التظاهر بالشجاعة أمام صديقه : « كم هو غريب أننى لا أعاني من أى احساس بالخزى على الرغم من أن هذا هو ما يتطلبه الموقف .. وأصارحك بينى وبينك ان احساسى بالظفر يفوق احساسى بالهزيمة وهو ما لا يصح أن يكون . » ولم يأسف الا على شيء واحد فقط هو أن أمله فى الشهرة والثراء العاجلين قد تحطم : « كان الأمل فى شهرة مخلدة أمرا جميلا ، وكذلك الأمل فى تحقيق بعض الثروة والتحرر الكامل والسياحة والنأى بأطفالى بعيدا عن كل عوامل الضيق التى أفسدت صباى . كل هذا كان رهن نجاح نظريتى عن الهستيريا (النيورتيكا) أو عدم نجاحها » .

واختتم فرويد رسالته باشارة الى آماله القريبة اذ يقول : « ان علم النفس هو الشيء الوحيد الذى احتفظ بقيمته الذاتية فى هذا الانهيار العام . فلا زالت الأحلام آمنة ، كما وأن مقدماتى الأساسية للميتاسيكولوجيا بلغت شأوا رفيعا فى تقديرى » ثم أردف يقول : « انه لأمر يدعو للرثاء أن يعجز المرء عن التكسب من تفسير الأحلام على سبيل المثال » × × × والجدير بالذكر أن فرويد استطاع بالفعل وبعد فترة وجيزة أن يحقق لنفسه حياة رغدة عن طريق تفسير الأحلام .

والملاحظ أن فرويد قرر فى نفس وقت الهزيمة أن يجرى تحليلا لنفسه . واستطاع بجهد ومعاناة أن يشق طريقه من خلال هذا التحليل بعيدا عن أوهامه متجها صوب المرحلة الأخيرة من نهجه التحليلي لظواهر العصاب .

× فرويد : « دراسة عن حياتي » — ص ٦٠ ، ٦١ .

× × فرويد : « رسائل — أصول التحليل النفسى » ص ٢١٥ ، ٢١٨ .

× × × المرجع السابق : ص ٢١٥ — ٢١٨ .

فرويد وتحليله الذاتي ونظريته عن العصاب

التحليل النفسي بمعناه الخاص هو ناتج تحليل فرويد لنفسه ذاتيا • وقام بهذا التحليل عام ١٨٩٧ لسببين على ما يبدو : سبب مباشر وهو حالة عصاب هستيرى خفيفة عانى منها بصورة مزمنة منذ أن كان طالبا ولكن اشتدت وطأتها عليه اثر انهيار نظريته عن الغواية ، سبب أساسى أن ينقذ كل ما يستطيع انقاذه من دراساته التحليلية السابقة وأن يهتدى الى أساس يكون نقطة انطلاق لحل مشكلة العصاب ومعالجة مرضاه على أساس سيكولوجى بحت •

ونحن لا نستطيع العثور على تسجيل لهذه الفترة الا فى سلسلة من الرسائل يقدر عددها بحوالى ثمانى عشرة رسالة كتبها الى ولهلم فلايس فيما بين سبتمبر ١٨٩٧ وسبتمبر ١٨٩٨ • وقام تحليله لذاته على أساس تفسيره لرموز أحلامه والمستدعيات الطليقة •

يبدأ التحليل بشكوى من حالة عصاب لا شعورية غريبة ألمت بفكره • « حدث أن ألمت بى خبرة عصابية مصحوبة بحالات شاذة طرأت على فكرى وغير واضحة للشعور ــ أفكار غائمة وشكوك مبهمة مع شعاع ضوء هنا وهناك لا يكاد يبين ••• ظننت أننى داخل شرنقة والسماء وحدها تعرف أى نوع من المخلوقات سيخرج منها » • وبعد شهر كتب يقول : « لا زلت أجهل ما ألم بى • ثمة شىء فى أعمق أعماق حالة العصاب التى ألمت بى تقف لى بالمرصاد للحيلولة دون اتخاذ أى خطوة نحو فهم العصاب » • ولكن الشىء الوحيد الذى ما زال مؤمنا به عن يقين هو تفسير الأحلام • « أننى أوشك أن أوثر وسيلة واحدة من بين كل الوسائل التكنيكية الأخرى وأراها وحدها الوسيلة الطبيعية • اذ يبدو لى أن تفسير الأحلام هو أكثر الوسائل يقينا • » ثم يستطرد فى حديثه ليقص حلما تراءى له منذ فترة قريبة ويتتبع فى تفسيره للحلم المحتوى اللاشعورى حتى يعود به الى زمن الطفولة •

وبعد شهر آخر يحدثنا عن « اضطراب أفكارى » ويقول ان « شكوكا خطيرة تتعلق بالعصاب تعذبنى » • وبعد أن يقول « عصابى الهستيرى الخفيف » يعترف لصديقه فلايس لأول مرة أنه يجرى تحليلا ذاتيا لنفسه » • بعد أن قضيت فترة مشرقا مرحا أجدنى الآن وقد ألمت بى نوبة اكتئاب • ان المريض الأساسى الذى أعالجه الآن هو نفسى » • ثم يبدى ملاحظته التالية : « هـذا التحليل أشق من أى تحليل آخر ••• ولكن أحسب أننى على وشك الانتهاء منه فضلا عن أنه يشكل مرحلة ضرورية فى عملى » •

ومضى شهران ثم كتب يقول : « ان ما حدث لى ظاهريا شىء لا يؤبه له ، ولكن ثمة شيئا هاما جدا يحدث بداخلى • ان تحليلى الذاتى لنفسى والذى أراه عملا لا مناص منه لتفسير المشكلة برمتها قد أحرز تقدما فى الأيام الأربعة الأخيرة من خلال الأحلام ويقدم لى أهم النتائج وأقوى الشواهد ••• حتى بت أعرف من أين ستتصل أحلام الليلة التالية » • ثم يعقب بتحليل مستفيض لعدد من الأحلام التى يخلص منها الى : أنه وقتما كان طفلا وقع فى حب أمه جنسيا اذ كان قد أبصرها عارية ، وأنه كان غيورا من أبيه وأخته التى ولدت

انذاك وتمنى لهما الموت مما سبب له احساسا بالذنب · بيد أن هذا الاحساس بات عبئا لا يقوى على احتماله اثر وفاة أخته بعد بضعة شهور ·

ها هنا نجد في تأويله لرموز أحلامه الارهاصات الأولى للتفسير الطفلى الذى قدر له فيما بعد أن يكون محور نهج التحليل النفسى فى النظر الى حالات العصاب · بيد أنه لم يقنع بعد : « أننى لم أصل بعد الى المشاهد التى تستقر عند قاعدة كل هذا : انه كان يتطلع الى مشاهد صدمية طفلية جديدة يمكن أن تكون بديلا لتفسيراته المتهافتة عن الغواية والانحراف ·

ونراه يقرر في الخطاب تلو الخطاب بنفس الألفاظ حينا وبغيرها حينا آخر : « تراءى لى فى حلم الأمس ما يلى ··· » ويستطرد ساردا فى ايجاز ، عارضا تفسيره لرموزه · وتتناثر عبارات هنا وهناك فحواها » ان تحليلى لذاتى هو أهم ما أملكه بين يدى ، ويبشر بأن يكون ذا قيمة كبرى بالنسبة لى بعد أن أفرغ منه » · وكلما تقدم تحليله الذاتى ، ازداد ايقاعه وازداد بالمثل الألـم والأسى · اذ كانت تنوشـــه حالات مزاجية ما بين الكآبة حينا والتيه والعجب حينا آخر وهو يكشف عن الكيفية التى حددت بها جنسيته الطفلية حيـــاته الراشدة » · اننى منصرف بكليتى الى عمل « باطنى » . لقد تمـــلكنى تماما ويشدنى بقوة عبر الماضى بترابطات سريعة من الأفكار . وحالتى المزاجية فى تغير دائب أشبه بتغير المناظر الطبيعية التى يشهدها المسافرون من نافذة قطار ··· ثمة أسرار حزينة فى حياتى تعقبتها الى جذورها الأولى ··· وتمضى أيام خلفت فى نفسى كآبة لعجزى عن فهم أى شيء من احلام اليقظة أو التخييلات ، وتحين أيام أخرى يومض معها بريق يحقق التناسق بين عناصر الصورة ويتكشف لى ما مضى وأراه اعدادا وتهيئة للحاضر » · ويبدى الملاحظة التالية : « منذ أن بدأت دراســة اللاشعور أصبحت شديد الاهتمام بنفسى » ، ويقول فى موضع آخر « تحولت اضطرابات القلب عندى تحت تأثير التحليل الى اضطرابات فى المعدة » ·

وأخيرا حان وقت استطاع أن يعلن فيه : « بعد كل الآلام المبرحة التى عانيت منها خلال الأسابيع الأخيرة أشرقت فى نفسى بعض المعرفة » · ويقص بعد ذلك فى تتابع سريع الثمار النظرية التى جناها من تفسيره لأحلامه وقت التحليل الذاتى ، وعقدة أوديب وأطوار النكوص الطفلية والممانعة والكبت ·

يبدأ بعرض عقدة أوديب · « تكشفت لى فكرة واحدة ذات قيمة عامة ، اذ تبين لى أن حب الأم والغيرة من الأب موجودان فى حالتى أيضا وأصبحت اعتقد أنها ظاهرة عامة فى سنى الطفولة الباكرة حتى وان لم تحدث دائما فى وقت مبكر مثلما هو الحال عند الأطفال الهستيريين ··· واذا صح هذا فان القبضة المتسلطة للملك أوديب تصبح أمرا مفهوما على الرغم من كل الاعتراضات العقلية على المصير الذى تحتمه القصة مقدما ، ويمكن للمرء أن يفهم لماذا كانت كل الأحداث الدرامية المصيرية التى جاءت بعد ذلك أعمالا فاشلة ··· ان الاسطورة الاغريقية تمسك بفكرة قاهرة يعرفها كل انسان لأنه أحس بآثارها فى أعماق ذاته · ان كل واحد من المشاهدين كان يوما ما أوديبا صغيرا فى الخيال كما وأن اخراج الحلم على نحو تمثيلى فى الواقع يدع كل امرىء يتراجع

مزعا بنفس القدر من الكبت الذى يفصل بين حالته الطفلية وبين حالته الراهنة » ٠

ثانيا ، يعلن فرويد عن اكتشافه للجنسية الطفلية أو ما يسميه أطوار التحلل Degenerative phases والميول المتحرفة لحالتي التعلق الفمي والتعلق الشرجي عند الطفل الصغير ، وأنه توصل لاكتشافاته هذه عن طريق ترجمة رموز أحلام وتخييلات الراشد ٠ وحين تأمل مفسرا هذه الميول فى طفولته الذاتية تكشف له مبدأه الثالث وهو المقاومة ٠

واضح أنه كان يعاني مقاومة شرسة من ذاته حين واجهته الحصيلة النهائية لتفسيراته ٠ « ان فكرة عن المقاومة مكنتني من أن اصح كل حالاتى فى مسارها الصحيح بعد أن بدت لى على وشك الانهيار ، وها أنذا أراها تمضى أمامى على نحو يرضيني ٠ ان المقاومة وهى الشيء الذى كان يعترض طريقي ليست سوى طابع شخصية الطفل أو طابعه المتحلل والذى نما وتطور نتيجة لتلك الخبرات التى نجدها فى صورة شعورية لما يسمى بحالات التحلل ، بيد أن الطابع التحللي فى هذه الحالات يخفيه غشاء عن الكبت ٠ ولقد حاولت جاهدا أثناء عملي أن انتزعه ولكنه تمرد واذا بالمريض الذى بدأ حديثه عن تحضره وحميد أخلاقياته يتحول الى انسان سوقي كاذب دعى ٠٠٠ وهكذا أصبحت المقاومة حقيقة موضوعية ملموسة بالنسبة لى » ٠

سبر فرويد غور عقله هو متوسلا لذلك بترجمة رموز أحلامه وخلص من ذلك الى ثلاثة من العناصر الأربعة الأساسية في نظريته بصورتها النهائية : — عقدة أوديب ، الجنسية الطفلية والمقاومة ٠ وكتب فى هذه الفترة الى فلايس يقول له : « انني مستمر فى تحليلي ذاتيا ولا يزال هذا هو همي الأول ٠ كل شيء لا يزال غامضا حتى طبيعة المشكلات ذاتها الا أن احساسا يراودني ويملأني يقينا بأن ما علي الا أن أمد يدى الى خزانتى واستخلص — فى الوقت المناسب — ما أريد » ٠ ان ما كان يريده وقتذاك هو الكشف عن الميكانيزم النفسى الذى يفسر دفاع الأنا ضد ميول التحلل الصدمية للجنسية الطفلية وضد الظواهر المحرمية لعقدة أوديب وضد ما ينشأ عنهما من أحلام وتخييلات وحالات مزاجية٠ يقول لصديقه فلايس « لا أرغب الا فى شيء واحد أن أمسك أيضا بما يكمن وراء الكبت » ٠

وانقضى شهر ثم مد يده الى خزانته وأخرج منها الميكانيزم النفسى لعملية الكبت ٠ انه مثل المقاومة « مسألة تتعلق بالموقف تجاه المناطق الجنسية السابقة » ٠ والمناطق التى يشير اليها فرويد هنا هى « منطقتى الشرج والفم » التى يرى أنها تلعب دورا هاما فى الجنسية الطفلية ٠ وعندما يسترجع الراشد ذكريات متعلقة بهذه المناطق فان الأنا ينفر منها وينأى عنها ٠ فالكبت قياسا على « احساسات الشم » هو نفور من ذكريات تتعلق بأحداث كانت فى الماضى تخص المناطق الشبقية والمتحللة والموضوعات المحرمية الجنسية المنشأ ٠ يقول فرويد فى خطاب له الى صديقه فلايس : « اذا عبرنا عن هذا بعبارة بسيطة فجة فان الذكريات الراهنة تتعفن على نحو ما تتعفن الموضوعات فى الواقع الحى ، ومثلما نشيح بوجوهنا بعيدا فى اشمئزاز كذلك يفعل القبشعور والشعور اذ يشيحان بعيدا عن الذاكرة ٠ هذا هو الكبت » ٠

كل شيء مرهون بالنجاح الكامل او الجزئي أو الاخفاق الكامل في عملية الاشاحة بعيدا في اشمئزاز وهى العملية المسماة الكبت · ان كبت الجنسية الطفلية الانحلالية وعقدة أوديب هو مفتاح الصحة والمرض · ومن ثم تغيرت النظرة عما كانت عليه في نظرية الغواية ، فالخبرة التناسلية الطفلية هى علة العصاب ، أو على الأصح الخبرة الطفلية القبتناسلية أو المشاهد الفمية والشرجية والمحرمية بالاضافة الى ذكرياتها اللاشعورية التى تتبدى فى الاحلام العصابية والتخييلات والخداعات ... الخ · واذا حدث ولم يكبت المرء بنجاح هذه المراحل القبتناسلية وذكرياتها ولم يوجه طاقاتها النفسية على نحو كاف وسليم إلى المنطقة التناسلية أو الى نشاط اعلائى (ثقافي أو اقتصادى أو اجتماعى ... الخ) أو الى كليهما فان النتيجة فى حالة الفشل « لا شيء سوى أعراض مرضية بدلا من الافكار الهادفة » · معنى هذا أن فن تعليل العصاب أصبح متوقفا عند فرويد على طريقة ودرجة النجاح في الابتعاد عن المناطق القبتناسلية الطفلية (الفمية والشرجية) والموضوعات المحرمية (الأم والأب والأخوة الأشقاء) أو عدم النجاح فى هذا على الاطلاق (كما هو الحال بالنسبة للمنحرفين) ·

وكتب الى صديقه فلايس خلال هذه الفترة على وجه التقريب يقول له : « يشق على نفسى أن أحكي لك كم من الأمور التى لا أكاد أمسها ، أنا ميداس × الجديد ، حتي تستحيل الى بذاءات · بيد أن هذا هو ما يتسق تماما مع نظرية التعفن الباطنى » ·

وتكشف المجموعة الأخيرة من هذه الرسائل عن رنة عجب عالية وثقة بالنفس كبيرة « كل دقائق الأمور ملك يدى : الاحلام والهستيريا تتطابقان مع بعضهما على نحو دقيق وكامل » · ثم يزف الى صديقه خبر عكوفه على تأليف كتابه « تفسير الأحلام » · « أننى غارق فى كتاب الأحلام · اكتبه فى يسر وسلاسة وابتسم لكل ما يحويه من مواد » يدور معها الرأس « لما يبدو فيها من جرأة ونزق » · ثم يقول أخيرا « لقد توقفت عن التحليل الذاتى لنفسى حتى أفرغ لكتاب الأحلام » · × ×

حقق التحليل الذاتى أحد الفرضين اللذين قصدهما فرويد من ورائه ونعنى بذلك اعادة بناء نظريته عن العصاب · بيد أنه أخفق فى القضاء على الأعراض العصابية عند فرويد — الدور المزاجي ما بين الاكتئاب والنشوة وبعض أعراض الخواف مثل خواف السفر وخواف الأماكن المفتوحة هذا بالاضافة الى ما كان يعانيه من اضرابات بدنية وغذوية · وانتهى فرويد الى رأى محدد بالنسبة

× ميداس أو ميدا ملك أسطورى يرجع تاريخه الى القرن السادس قبل الميلاد · تقول الاسطورة انه ملك فريجيا واشتهر بثرائه الشديد اذ كان له يد على ديونيسيوس وشاء الاله أن يثيبه على مكرمته هذه فساله أن يتمنى عليه شيئا · وتمنى ميداس أن يمنحه الاله ديونيسيوس القدرة على أن يستحيل كل ما تمسه يداه الى ذهب · وكان له ما أراد ، ولكنه عاد يتوسل الى الرب أن يسترد هبته ذلك لانه عجز عن أن يتناول طعامه اذ لا يكاد يمسه حتى يستحيل الى ذهب واستجاب الرب لتوسلاته .. الخ » · (المترجم) ·

× × فرويد : « الأبحاث الكاملة » — مجلد ص ٢٩٩ — ٣٠٠ ·

للتحليل الذاتي للنفس كعلاج « ان التحليل الذاتي للنفس ضرب من المحال في واقع الامر » . ولكنه واصل تحليله لنفسه دائبا بين الحين والاخر بصورة متقطعة حتى وافته المنية الا انه تعلم كيف يعيش حياته مع «حالاته العصابية الخفيفة » .

وكتب فرويد بعد سنوات عن الازمة التي تعرض لها فقال : « ربما تابرت على عمل لا لشيء الا لانني لا أملك خيارا ولم يتيسر لى وقتذاك ان ابدا من جديد في شيء آخر . وأخيرا أدركت أن واجب المرء بعد كل شيء ألا ييأس اذا ما خابت توقعاته وانما واجبه أن يراجعها وينقحها » . ثم يستطرد ليعرض في ايجاز مراجعته وتنقيحه مبينا نظراته التي لا يزال يتمسك بها : « اذا كان الهستيريون يردون أعراضهم المرضية الى أصدمة خيالية فان هذه الحقيقة الجديدة تعنى أنهم خلقوا مثل هذه المشاهد في تخيلاتهم ، وأن الواقع النفسى يجب ان يكون موضع اعتبار لتفسيره أسوة بالواقع العقلى . ولزم عن هذا الاعتراف بأن هذه التخييلات كان المقصود منها تمويه النشاط المتعلق بالعشق الذاتي في مرحلة الطفولة الباكرة وصقله بمظهر جذاب والارتفاع به الى مستوى أعلى . واخيرا تتكشف من وراء التخييلات كل الحياة الجنسية للطفل » .

استطاع فرويد بنــــاء على النهج الجـديد المعدل أن يبقى على التعليل الجنسى للعصاب . فلم تعد الغواية هى العنصر الجوهرى وانما التخييلات التى تتآلف من ذكريات لا شعورية عن الجنسية الطفلية . فبعد أن كان الأب أو الام أو الأخت أو المربية هم الذين يغوون الطفل ، ذهب فرويد الى أن الطفل هـو المغوى . ان الطفل هو الذى يكشف عن دوافع جنسية منحرفة تجاه الأب أو الأم أو الأخت أو الأخ أو المربية ، ولكنه قمع هذه الدوافع ثم ظهرت بعد ذلك فى التخييلات والأحلام والأعراض العصابية بوجه عام .

ها نحن الآن في وضع يسمح لنا بدراسة وبحث تصور فرويد النهائى لميكانيزم العصاب باعتباره ميكانيزما نفسيا خالصا . ويتألف هذا الميكانيزم من عنصرين : أولا : الاخفاق فى السيطرة على المشكلات الحقيقية للحياة ، ثانيا : العامل الطفلى الفطرى . وينتج عن الاخفاق فى المواقف التى تفرضها الحياة أن يهرب المرء من الواقع ـ باحثا عن اشباع بديل فى التخييلات مع نكوص الى ذكريات الطفولة . معنى هذا أن الأعراض العصابية انما هى بوجه عام نكوص الى الأعوام الأولى من الحياة . الا أن المكونات الطفلية المكبوتة بالاضـــــافة الى الملابسات الخاصة بالطفولة تعمل كلها فى نفس الوقت فى اتجاه متقدم تحدد فيه لفكر المريض المنتكس المسالك الطفلية التى قد يسلكها . وهـكذا فان فرويد ينظر الى الميكانيزم النفسى لحالات العصاب باعتباره جماعا من حركتين للعقل الى الأمام والى الخلف ويلتقيان لبناء الأغراض الخاصة المميزة لكل مرض عقلى على حدة . ولكن البنية الطفلية الوراثية من موضوعات الكبت الطفلية يمثلان العامل المحدد لنقطة الالتقاء المشار اليها . انها لا تحدد فقط مسار الاشباعات التخيلية البديلة بل تحدد أيضا أين وما اذا كان الفرد سيفشل فى السيطرة على المشكلات الواقعية للحياة فى أول الأمر ، أى أنها تحدد ما اذا كان المسار ضد أم مع العصاب فضلا عن توقيت المرض .

لقد كانت طبيعة هذا الميكانيزم النفسى هى أهم أسباب الخصومه بين كارل يونج وفرويد • واتهم فرويد أخيرا يونج بأنه رفض نظرية العامل الطفلى التي تمثل قلب نهج التحليل النفسى الفرويدى . وألمح الى انه فعل ذلك ابتغاء مرضاة الرأى العام الأمريكى البيوريتانى •

ان العامل الطفلى هو حقا المحور والسمه المميزة لنظريه فرويد العقلية البحته عن العصاب ، وهي اساس تعليل المرض عنده • ولننتقل الان الى نظرية فرويد عن العصاب في مجال الممارسه العمليه كما أوضحها من خلال تواريخ الحاله التي عرضها تفصيليا •

تواريخ الحالة عند فرويد

عرض فرويد تاريخ خمس حالات عرضا كاملا استغرق ستمائة صفحة ، واختار من بينها حالتين كبرهان يؤيد ما ذهب اليه من تعليل العصاب على أساس الجنسية الطفلية وذلك لما يتسم به العامل الطفلى من أهمية حاسمه • وهاتان الحالتان هما « هانز الصغير » عام ١٩٠٥ والنبيل الروسى عام ١٩٠٩ •

اختار فرويد هاتين الحالتين لأن العصاب فيهما يبدأ منذ الطفوله الباكرة• يقول فرويد : « ان حدوث الاضطراب العصابى فى العام الرابع أو الخامس من حياة الطفل لهو دليل قاطع على أن خبرات الطفولة فى وضع يهىء لها أن تسبب وحدها مرضا عصابيا دون أن تكون ثمة حاجة للهرب من مشكلة اضافية قد تصادف المريض فى حياته » • ويتحدث فرويد عن الحالتين فيقول : « اننا هنا لا نكتشف شيئا سوى نزعات غريزية يعجز الطفل عن اشباعها كما يعجز عن التحكم فيها لصغر سنه » • ×

ويصدق هذا الرأى عمليا عند فرويد بالنسبة للحالات الثلاث الأخرى • والفارق الوحيد يرجع الى أن الأعراض العصابية ظهرت عند الكبر بدلا من الطفولة • ولكن عنصر الجنسية الطفلية يلعب الدور الحاسم فى كل حالة من الحالات •

ان الذاكرة الشعورية لا تمتد الى الأعوام الأولى من الحياة • ومن ثم فانه لا يستطيع أن يزعم أن مرضاه يستعيدون خبرات هذه الفترة • وان ما يفعله هو بناء ما كان يحب أو ما كان ينبغى أن يحدث حسب ما تقتضيه نظرية المراحل الفطرية للجنسية الطفلية • وتذهب هذه النظرية الى أن المشاهد الأولية لمرحلة واحدة أو أكثر هى العلة الحقيقية للعصاب فى أى مرحلة من مراحل العمر • يقول فرويد : « ان هذه المشاهد الطفلية لا تتأتى أثناء العلاج كاسترجاع لذكريات وانما هى نتاج عملية بناء » • ثم يضيف قائلا : « يقينا ان كثيرين سيذهب بهم الظن الى أن هذا الرأى وحده كفيل بحسم كل الخلاف » • ولكننا نريد أن نعرف على الأقل كيف يبينها ؟ والاجابة أنه يبينها على هدى ترجمة رموز الحلم والتخييلات •

× فرويد : « الأبحاث الكاملة » ـ مجلد ٣ ص ٥٢٧ ـ ٥٢٨ •

مثال ذلك ان هانز الصغير شهد على مقربة شديدة منه مجموعة من الجياد تكبو ثم تنهال عليها السياط وهي تحاول شد عربة محملة أثقالا تنوء بها ٠ وأحس هانز نتيجة لذلك بالخوف من الجياد (خواف من الحيوانات) الى الحد الذي لا يستطيع معه أن يخاطر بالخروج من البيت حتى ولو كان في صحبة مربيته ٠ ويبدو أنه كان يخاف بوجه خاص جياد جر العربات وهذا اللجام الجلدي السميك الذي اقترن بها ٠ ليس هذا الا حدث واحد من بين أحداث كثيرة تضمنتها أحلام هانز الصغير التي خضعت للتحليل النفسي ٠ وتفسير فرويد لذلك الحدث أن اللجام الجلدي السميك الذي يلتف حول خطم الدابة وكذلك الغمامة الموضوعة بجوار عينيها أن هما الا رمزان يمثلان شارب ونظارة الأب ٠ لذلك فان الخوف من الجياد هو في حقيقته خوف من الأب ٠ ودلت رموز اخرى على أن هذا الخوف اقترن بتهديد أبيه له بالخصاء ، وهو ما اقترن بالتالي – وفق مقضيات النظرية الطفلية – بالعادة السرية والتي استثارها بالتالي عشقه الشبقي لأمه وهو ما جعله يخاف غضب أبيه وانتقامه (الخصاء ثانية) وبالتالي يخاف الجياد وهكذا ٠

وفسر فرويد كبو الجياد بأنه شبيه برغبة الموت من جانب هانز الصغير لأبيه – رغبة لا شعورية في ان تكون لأبيه مثل هذه الكبوة ٠ وذهب في نفس الوقت الى ان بعض الاعراض جاءت وليدة الندم والاحساس بالذنب بسبب رغبة الموت هذه ٠ واغفل فرويد بداية القول بأن خوف الطفل مرجعه الى احساس الطفل بأنه قريب جدا من مجموعة من الجياد وهو ما يمثل خبرة شديدة الوطأة على طفل صغير ٠ وانما اعتبر هذه الخبرة العلة المثيرة التي أثارت الميكانيزم الفطري للجنسية الطفلية ٠

ان ناتج تحليل حالة هانز الصغير أساسه الترجمة والتأويل الرمزيان والذي انتهى الى بناء المشهد الأول ٠ وذهب فرويد الى أن قوام هذا المشهد أن هانز الصغير كانت لديه وهو في الرابعة من عمره نزعات جنسية مثلية (نحو أبيه) ثم ظهرت سمات لنزعات ذكورة وتعدد الزوجات (نحو أمه ومربيته ورفيقاته الصغيرات في اللعب) ٠ وحسم هانز الآمر بأن قرر في تخيلاته أن يتزوج بأمه ويدع جدته (أم أبيه) لأبيه يتزوج بها ٠ لم ير فرويد في هذا دلالة على نهاية حالة الخواف المفترضة فقط بل رأى فيه أيضا دلالة على الاقلاع عن الرغبات الجنسية المثلية تجاه أبيه من ناحية والاقلاع عن رغبة الموت والخوف من أبيه من ناحية أخرى ٠ واختار هانز – في نهاية الأمر أمه كموضوع لعشقه الشبقي وهو في الرابعة من العمر وتخلى في سماحة عن جدته ليتزوج بها أبوه ٠

وكثيرا ما كان هانز الصغير ينفجر صائحا أثناء التحليل : « آه ، دعوني وحدي » ٠ وعندما كانت الأم تلوم نفسها ذات مرة أمام أبيه ، ربما لأنها أغوت ابنها لا شعوريا ، أبدى له فرويد الملاحظة التالية عند هذا الكلام : « ولكن دورها هذا كان قدرا مقدورا ويتعين عليها أن تؤديه ، ثم ان وضعها شاق وعسير » ٠ لقد كان حتما أن يقع هانز في حب جنسي مع أمه وهو حتم فطري وما كانت أمه مهما فعلت لتستطيع أن تتحاشى هذا المصير ٠ ويبدي فرويد ملاحظة أخرى في موضع آخر « ان أوديب الصغير يسلك على نحو أفضل مما كان مقدرا له » ٠

ومما هو جدير بالملاحظة عن حالة هانز الصغير أن الآب هو الذى أجرى التحليل ، اذ كان الاب يقص على فرويد تفاصيل ما يحدث ويقترح فرويد بدوره على الأب ما ينبغي عليه أن يستوضحه · لقد كان كل من الأب والأم من اشياع التحليل النفسى وتعهدا لفرويد قبل ميلاد الابن أن يقدما له عرضا أمينـا عن نموه الجنسى الطفلى · وانتابت هانز الصغير مشاعر الخوف من الجياد خـلال الفترة التى كان ابواه يسجلان تقاريرهما الدورية ·

ان أساس التحليل هنا ، وفى كل الحالات الاخرى ، ايمان فرويد بان العصاب مثل الحلم لا يتحدث هراء على الاطلاق · يقول فرويد : ولكن العصاب لا يتحدث عن سخافات مثله في هذا مثل الحلم » · فكل صورة وكل كلمة وكل واقعة سلوكية لها معنى ما · ومشكله التحليل هى كشف المعنى اللاشعورى الخفى · وهذا المعنى هو دائما رغبة أو حافز لا شعورى مثل خوف هانز من كبو الجياد وتفسيره بأنه رغبة لا شعورية فى موت الأب · والعلاج في جوهره هو عين التحليل ، اذ أن هدف العلاج ، وهو هدف التحليل أيضا ، أن يجعل الرغبات اللاشعورية رغبات شعورية · ويتحقق الهدف في كلتـا الحالتين عن طريق تفسير التلميحات التى يطلقها اللا شعور فى صورة رمزية ثم اعادة بناء المشاهد الأولية القدرية من بين تفسيرات الرموز · يقول فرويد : « ليس نجاح العلاج هو هدفنا الأولى ، وانما هدفنا بالأحرى أن نمكن المريض من أن يدرك شعوريا رغباته اللا شعورية · وسبيلنا لتحقيق هذا أن نعمل فى ضؤ التلميحات التى يطرحها اللاشعور ، مع الاستعانة بفننا التفسيرى ، وأن ننقل العقـدة اللاشعورية الى شعور المريض بلغتنا الخاصة » ·

ان التلميحات التى يطرحهـا اللاشعور (الأحلام والتخييلات) لا تنطق سخافات أبدا · وحقيقة الأمر أننا نجبرها قسرا على أن تتحدث بلغة فرويد عن طريق التفسير وفرض الأبنية القدرية (المراحل الطفلية وعقدة أوديب) · انه فعل مع مريضه الصغير ما فعله مع نفسه فى تحليله لذاته حين مد يده الى خزانة الرموز ليســـتخرج ما يحتاج اليه وما يبحث عنه عن طريق تأويل الرموز ·

إن المحلل عند التحليل النفسي يزرع مقدما ما يحصده مؤخرا ، ويصدق هذا القول سواء أكان المريض طفلا أم راشدا · ويسلم فرويد بوجهة النظر هذه كما يسلم أيضا بأنها تنقص من القيمة البرهانية للعمل التحليلى · يقـول فرويد : « حقا ان هانز أوحى اليه أثناء التحليل بأمور كثيرة ما كان ليستطيع أن يقولها وحده ، وطرح أبواه أفكارا هى أبعد الأشياء عن ادراكه ، ووجه أبوه انتباهه الى حيث كان يتوقع منه شيئا · وهذا من شأنه أن ينقص من القيمة البرهانية للتحليل ، بيد أن أسلوب العمل واحد فى كل الحالات · والسبب أن التحليل النفسى ليس بحثا غير متحيز وانما هو اجراء علاجى · وليس جوهر التحليل البرهنة على أمر ما وانما فقط تغيير أمر ما · ان الطبب يقدم للمريض عند التحليل النفسى (بقدر متفاوت) الصور الشعورية المتوقعة مسبقا حتى يعينه على معرفة وادراك المادة اللا شعورية ·

ويقول فرويد : « ان التحليل النفسى ليس مبحثا علميا غير متحيز » ٠ ولكنه على الرغم من هذا يستخلص منه عشرات الكتب زاعما أنها تحوى حقائق وتعميمات علمية غير متحيزة ٠ ان المشكلة التى كان يشكو منها فرويد مرارا وتكرارا ، أن الخبرة المباشرة بالتحليل هى وحدها الكفيلة بأن تقنع أى انسان بصواب مكتشفاته ٠ بيد أن هذا موقف مفجع بالنسبة لأى مذهب يطمح فى أن تكون له قيمة علمية ٠ يقول فرويد : « انها لحقيقة مؤسفة أن أى تفسير للتحليل النفسى لا يعطى الانطباعات التى تتولد لدى المحلل وهو يجرى التحليل بنفسه ، كما أن القراءة عن التحليل لا تعطى أى اقناع به وانما الخبرة المباشرة هى وحدها الكفيلة بذلك ٠ بيد أن هذا القصور يصدق أيضا وبنفس الدرجة على تحليل الكبار » ٠

ان هانز الصغير نموذج لحالة ساقها فرويد للبرهنة على الدور الحاسم الذى يلعبه العامل الطفلى فى تعليل العصاب ٠ ويكتب فرويد عن هذه الحالة « أدرك تماما حتى بعد عرضى لهذا التحليل اننى لن أوفق فى اقناع من لا يرغب فى الاقتناع ، ولكننى سأواصل مناقشتى لهذه الحالة ارضاء للقراء المؤمنين بأن علة المرض اللا شعورية انما هى حقيقة موضوعية » ٠ خلاصة القول أنه يواصل العرض ارضاء للمحللين ولمن أخضعوا أنفسهم لعمليات التحليل ٠ ثم يستطرد قائلا « اننى أفعل هذا موقنا بأن عدد هؤلاء القراء فى تزايد مطرد » ×

قام فرويد بتحليل عدد لا حصر له من الحالات علاوة على حالته الذاتية والحالات الخمس التى ذكرها تفصيلا ٠ واستطاع فى كل حالة من الحالات ، كما يروى هو ، أن يتتبع العصاب الى أن يبلغ العقد الطفلية على نحو ما فعل مع هانز الصغير ومع نفسه ٠ وكتب يقول : « كان من الممكن فى كل حالة من حالات العصاب عند المرضى الآخرين أن نقتفى أثر العصاب حتى نصل فى النهاية الى نفس العقد الطفلية التى اكتشفناها وراء خواف هانز ٠ لهذا أجدنى راغبا فى القول أن عصاب الطفولة له دلالة النمط أو النموذج ، كما أجد ما يحفزنى الى افتراض أن هذه الكثرة المتنوعة من ظواهر الكبت التى يكشف عنها العصاب، وهذه الوفرة فى موضوعاتها المسببة للمرض لا تحول دون أن تكون مشتقة من عدد محدود للغاية من العمليات المتعلقة بمركبات فكرية متماثلة » × × وطبيعى أن هذه المركبات الفكرية المتماثلة ان هى الا المراحل الفطرية للطفولة وعقدة أوديب بالاضافة الى ما بينها من علاقات متداخلة ٠

ان التحليل النفسى كمنهج للعلاج محصور ، حسب رأى فرويد ، فى نطاق تلك الحالات التى تشتد عن حالة السواء بدرجة قليلة نسبيا ولا شىء آخر ٠ ومن ثم فلكى يفيد المريض من التحليل يتعين « أن يكون متمتعا بحالة عقلية سوية » ٠ ويحدثنا فرويد عن الظروف التى يكون فيها التحليل النفسى أمرا ممكنا فيقول : « وأخيرا فان التحليل لا يكون ممكنا الا اذا كان المريض متمتعا بحالة عقلية سوية تؤهله لأن يراقب المادة المرضية » ٠ بعبارة أخرى يرى فرويد أن من الأوفق تطبيق المنهج على المرضى العصابيين القادرين على مواصلة حياتهم العادية وان كان يشوبها بعض الصعوبات أو الألم أو المعاناة بدرجات متفاوته ٠

× المرجع السابق : ص ١٧١ ــ ٢٦٢ ٠

× × المرجع السابق : ص ٢٨٦ ٠

يضيف فرويد شرطا آخر غير شرط درجة المرض لقبول المرضى لتحليلهم . فبعد الاشارة الى أن « مادتى تتألف أساسا من حالات عصبية مزمنة جمعتها من بين الطبقات المثقفة ثقافة عالية » يستطرد موضحا ان هذا لم يكن وليد المصادفة . اذ أن أهم شرط أن يكون المريض « على حظ من التعليم » أى ان فرويد لا يشترط فيه فقط عدم المرض بل « ان يكون على حظ من التعليم » والشرط الآخر أن يكون المريض لديه من الفراغ وقت كاف يضعه تحت تصرف المحلل على الرغم مما فى هذا من عبء مالى على المريض . وذهب الى أن التحليل يقتضى سنوات ليؤتى ثمارا حقيقية ومجدية ، سنوات يلتقى فيها بالمريض ساعة كل يوم خلال شهر دون الآخر . ويرى فرويد فى هذه الشروط ضمانا بأن يكون «خيرة الناس » ملاءمة للتحليل أو على حد تعبيره هو « ان هذه الشروط ضمان لأن يكون أقيم الناس وأعلاهم قدرا هم أكثرهم ملاءمة لهذه الاجراءات العلاجية » . ×

وثمة حالة سردها فرويد كاملة استغرقت خمس سنوات ، وهى حالة النبيل الروسى التى اعتبرها فرويد حالة « بالغة التعقيد » نظرا لأنها مركب من عصاب الطفولة والرشد معا ويحدث الواحد تلو الآخر مع فاصل بينهما يمتد الى سنوات . ويتناول التقرير المكتوب حالة عصاب الطفولة فقط على النحو الذى تم تحليله وقتما كان المريض فى الرابعة والعشرين من العمر . ويتعذر علينا هنا تتبع مسار التحليل لذا سنجتزىء بالاشارة الى أن أزمة التحليل تركزت حول بناء المشهد الطفلى الأولى الذى وقع بينما لم يتجاوز المريض العام أو العام والنصف من عمره . وقوام هذا المشهد رؤية المريض لأمه وأبيه وهما فى حالة جماع . والأمر هنا ليس ذكرى شعورية وانما جاء نتيجة اعادة بناء المشهد من خلال مادة الحلم فى فترة تالية . تراءى الحلم للمريض وهو فى عامه الرابع ، وقرر فرويد ان العنصر الحاسم الذى حدد محتوى الحلم هو ذكرى لا شعورية للمشهد الأولى .

اننا نعثر على مفتاح التحليل فى محاولة فرويد بناء أو « اعادة بناء المشهد الأولى » . ولكن قبل مناقشة الطبيعة الخاصة للمشهد يقول فرويد « لقد وصلت الآن الى النقطة التى يتعين على فيها أن أتخلى عن السند الذى استخلصته قبل ذلك خلال عملية التحليل بيد أننى أخشى أن تكون هى ذات النقطة التى يتخطى فيها القارىء عن ايمانه بى » . ويصرح فرويد ، بعد هذه المقدمة التى يتعذر فيها القارىء ، أن المشهد الأول الذى شهده المريض قبل أن يتجاوز العام والنصف من العمر هو « صورة جماع جنسى بين أبويه » . بيد أنه لم يكن جماعا عاديا كغيره وانما « جماع وقع فى ملابسات غير مألوفة تماما وتغرى بالمشاهدة » . اذ شهد الطفل « أباه يأتى أمه من ظهرها ... على نحو ما تفعل الحيوانات » .. ونتيجة لهذا الوضع « استطاع الطفل أن يشهد الأعضاء التناسلية لكل من أبويه » . واستنتج الطفل من مشاهدته هذه أن الأم مخصية وأن الخصاء عقاب العشق الأوديبى والعادة السرية . ان هذا المشهد الأولى هو جذر الكبت العصابى .

× فرويد : « الأبحاث الكاملة » _ مجلد ١ _ ص ٢٤٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ .

ان بناء المشهد الأولى على هذا النحو عمل بالغ الدقة لأن كل خيــوطه التحليلية مرتبطة بالميكانيزم النفسى للعصاب ٠ ويتحدث فرويد عن واحد من أهم هذه الخيوط فيقول : « كان يتعين على الطفل عند هذه النقطة أن يوائم نفسه مع المخطط الذى حدد التطور النشوئى النوعى ، وفعل الطفل ذلك حقا على الرغم من أن خبراته الشخصية ، على ما يبدو ، لم تتسق مع هذا الاتجاه ٠ ان التهديد بالخصاء أو التلميح به جاءه من نساء ، على عكس ما هو معتاد ، بيد أن هذا لم يؤخر النتائج طويلا ٠ اذ أنه على الرغم من كل هذا استشعر الخوف من الخصاء يأتيه فى نهاية الأمر من أبيه ٠ وهكذا انتصرت الوراثة على الخبرة العارضة ٠ اذ من البديهى أن الأب فى عصر ما قبل التاريخ هو الذى كان يمارس الخصاء كعقوبة ثم خفف العقاب بعد ذلك واتخذ صورة الختان » ٠

وهنا نجد سؤالا يفرض ذاته مباشرة ٠ هل الطفل هو من يتعين عليه أن يوائم نفسه مع مخطط نوعى وراثى ؟ أم أن فرويد هو الذى يتعين عليه أن يوائم عقل الطفل مع نموذج مسبق ؟ يقول فرويد عن هذا الموضوع « حقا اننا لا نستطيع الاستغناء عن افتراض أن الطفل شهد جماعا جنسيا وأن رؤيتــه له ولد عنده اقتناعا بأن الخصاء قد يكون أكثر من مجرد تهديد أجوف » ×
ولكنه يضيف قائلا أن هذا الافتراض ، مثل غيره من الافتراضات ، يرتكز على ركيزتين : أولاهما تفسير الأحلام والمستدعيات اللاشعورية والتخييلات مستعينين فى ذلك بفن ترجمة الرموز ، وثانيتهما : نظرية الميراث العقلى القديم منذ انسان ما قبل التاريخ ٠ ولكن سبق لنا أن أوضحنا تهافت ما ذهب اليه فرويد بالنسبة لدلالة الأحلام وفطرية الأفكار وتوارثها ٠

ان تفسير الأحلام هو المنهج أما المخطط العقلى الموروث والمتولد عن التطور النشوئى للنوع فهو الحصيلة النهائية لذلك المنهج ٠

وعندما حل عام ١٩١٨ ، وهو العام الذى سجل فيه فرويد حالة النبيل الروسى ، لم يعد يشغل بال فرويد أمر الدفاع عن منهج تفسير الأحلام ، اذ اعتبره أمرا بديهيا ٠ بيد أنه كان لا يزال ملتزما موقف الدفاع عن المخطط العقلى الموروث المتولد عن التطور النشوئى للنوع الانسانى (الجنسية الطفلية وعقدة أوديب) كما واصل دفاعه عن افتراضه لمعرفة غريزية وراثية ٠

ويقول فرويد فى ختام عرضـــه المستفيض لتاريخ الحالة لا تزال هناك مشكلتان باقيتان ٠ « تتعلق الأولى بالمخططات الوراثية المتولدة عن التطـــور النشوئى للنوع ، والتى تشبه مقولات الفلاسفة وتســتهدف « تصـــنيف » الانطباعات المشتقة من الخبرة الواقعية » ٠ ويقول عن المخططات « أننى أميل الى النظرة القائلة انها رواسب لتاريخ الحضارة البشرية ٠ وعقدة أوديب التى تشكل علاقة الطفل بأبويه ــ واحدة من هذه الرواسب ، بل هى فى واقع الأمر أوضح العناصر جميعا ٠ وحيثما أخفقت الخبرات فى التطابق مع المخططات الوراثية فانها تتشكل من جديد فى الخيال ٠٠٠ وهذه هى على وجـــه الدقة والتحديد الحالات التى نحصرها لتكون دليلا مقنعا على الوجود المســـتقل للمخطط ٠ وكم شهدنا انتصار المخطط الوراثى على خبرة الفرد » ٠

× المرجع السابق : ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٥١٣ ، ٥١٥ ، ٥٣١ ، ٥٦٥ ٠

المشكلة الثانية التى ناقشها فرويد فى ختام عرضه لحالة النبيل الروسى تتعلق هي الأخرى « بالعامل المكتسب في الحياة العقلية والذى جاء اكتسابه وراثيا ومن خلال التطور النشوئى للنوع » · وترتبط هذه المشكلة ارتباطا وثيقا بالأولى « بيد أنها أجل منها وأخطر شأنا » على حد قول فرويد · والجدير بالذكر أن الحل الذى وضعه فرويد للمشكلة صاغه صياغة افتراضية فى الفقرة التالية ولكنه فى واقع الأمر وعلى الرغم من كل ذلك يشكل لب فلسفة التحليل النفسى ومحور المذهب كله ومن ثم فهو افتراض أساسى · والفقرة المشار اليها هى عرض طيب وموجز للتحليل النفسى كوسيلة للبحث والنظر الى الأمور وهو ما يتفق مع كل كتابات فرويد » · ان من يتأمل سلوك طفل فى الرابعة من عمره تجاه المشهد الأولى حين يستثار من جديد ، بل وأن يفكر فى ردود الأفعال الأبسط والبعيدة التى استجاب بها طفل لم يتجاوز العام والنصف وقتما كان المشهد خبرة واقعية حية ، ان من يتدبر هذا يشق عليه رفض النظرة القائلة بوجود نوع من المعرفة يعز علينا تحديدها ، هى أشبه بشىء كان يعمل داخل الطفل آنذاك ويهيئه للفهم · أما قوام هذا الشىء فاننا نعجز عن تصوره ، فليس بين أيدينا ما يعيننا على ذلك سوى تمثيل قياسى وحيد – وهو تمثيل رائع – بالمعرفة الغريزية عند الحيوانات « · ويستطرد ليضع هذا التمثيل أساسا لمذهبه كله ويتخذ منه حجر أساس » · لو كان البشر يتمتعون بموهبة غريزية كهذه فلن يدهشنا أنها تختص أساسا بعمليات الحياة الجنسية حتى وان لم تكن قاصرة عليهم · ومن ثم فان هذا العامل الغريزى سيكون نواة اللاشعور ، فهو نوع من النشاط العقلى البدائى الذى سيسقط عن عرشه فيما بعد ويغشاه العقل البشرى وقتما يكتسب الانسان هذه الملكة · بيد أن هذا النشاط العقلى البدائى سيظل محتفظا لدى بعض الناس ، وربما كل الناس ، بسلطانه الذى يمكنه من أن يهبط بالعمليات العقلية الراقية ويشدها اليه · والنكوص عود الى هذه المرحلة الغريزية وبهذا تكون قابلية الاصابة بالعصاب هى الثمن الذى يدفعه الانســان نظير اكتسابته الحديثة الرائعة ، كما وأن الانســان بقابليته للتعرض للعصاب شاهد على وجود تلك المراحل الأولية · الغريزية » · ×

وجدير بالذكر أن فرويد لم يرصد جزءا خاصا للعلاج ، ذلك لأن العلاج فى رأيه هو التحليل ذاته · وأساس هذه النظرية أننا نسد كل ثغرات الذاكرة وكل حالات فقدان الذاكرة المتعلقة بفترة الطفولة وبعد أن نسترجع كل هذا ونعيد بناءه فان ميكانيزم المرض سيختفى على الفور وتزول معه أعراض المرض · وهذه هى النتيجة اللازمة عن النهج العقلى الخالص · فاذا كانت علة المرض هى المراحل الغريزية المكبوتة والمتعلقة بحياة الطفولة بالاضــــافة الى الذكريات اللا شعورية المتولدة عنها فان هذا يستتبع حتما الزعم بأن ميكانيزم المرض يزول تماما اذا ما انتقلت المادة اللا شعورية المكبوتة الى حيز الشعور ·

يقول فرويد أن « تحويل هذه المادة اللا شعورية فى عقل المريض الى مادة شعورية لابد وأن يؤدى الى تصحيح انحرافه عن الحالة الســـوية والى ازالة الوسواس القهرى الذى ينوء به فكره » · ويقول فى موضع آخر : « هدف الشفاء

× المرجع السابق : ص ٦٠٣ – ٦٠٣ ·

ازالة فقدان الذاكرة · اننا حين نسد كل ثغرات الذاكرة وحين نفسر كل المظاهر الملغزة للحياة العقلية يصبح استمرار الحالة المرضـــية بل وتجـــددها أمرا مستحيلا » · ×

ولكن فرويد يشهد على نفسه بانه أجرى تحليلا لحالات كثيرة نجح في بعضها تماما ونجح جزئيا بالنسبة لمجموعة ثانية واخفق تماما بالنسبة لحالات أخرى · ونظرا لان تحليل أكثر هذه الحالات استغرق فترة طويلة تمتـد الى سبع وثماني سنوات فاننـا لا نستطيع أن نعرف على وجه القطع واليقين علة النجاح · ونحن نقول هنا ما قاله فرويد من قبل عن حالات الغواية التى زعـم انه نجح في علاجها تماما ، أن هناك دائما « امكانية لتفسير نجاحى الجزئى بوسائل أخرى مألوفة » · × ×

مثال ذلك في حالة النبيل الروسى الذى استغرق تحليلها سبع سنوات قطعتها الحرب العالمية الأولى · وعاد الى فرويد بعد الحرب وقيل انه كان يتمتع بصحة عقلية طيبة · ويبدو أن الحرب والثورة الروسية جردتاه من اقطاعياته الموروثة ـ أو على حد تعبير فرويد «جردتاه من بيته وممتلكاته وعلاقاته العائلية» ومن ثم وجد لزاما عليه لأول مرة فى حياته أن يعمل ليعيش · ترى ما هى علة الشفاء : التحليل أم الظروف الجديدة التى تختلف جذريا عما سبقها ؟ يجيب فرويد على السؤال بقوله : « ربما كان بؤسه الشديد عن طريق اشـــباعه للاحساس بالذنب أحد العوامل التى أسهمت فى تعزيز شفائه » · ان فرويد لا تعوزه الحيلة أبدا فهو قادر دائما على أن يطوع أى شىء لصالح التحليل ، فليست الظروف الجديدة المتغيرة هى علة الشفاء وانما اشباع هذه الظروف للاحساس الوراثى بالذنب تجاه كل الجرائم الفطرية والغريزية والمتحلله منذ أيام الطفولة ·

ان التحليل النفسى كمذهب له ميكانيزمه الدفاعى الداخلى · اذ أن كل من يتطاول على انتقاده أو يرفض التسليم بتعاليمه يخضع هو نفسه للتحليل · وقد حدث عند مستهل هذا القرن أن واجه فرويد ومذهبه هجوما ضاريا من كل اتجاه · فكتب فرويد ردا على هذا الهجوم « ان الموقف هنا يفسره قانون بسيط ذلك أن الناس فى تجمعهم الجماهيرى يكون سلوكهم تجاه التحليل النفسى مماثلا تماما لسلوك الأفراد العصابيين عند علاجهم من أمراضهم » · ثم أردف قائلا : « ان النظر الى الجنس البشرى باعتباره مريضا ليس بالأمر الهين » · وحلل فرويد ثورة الجنس البشرى ضد نظرياته ، وهدأ باله واطمأن لرأيه الذى عبر عنه بقوله : ان الأمور كلها تجرى على النحو الذى أكدته مقدمات التحليل النفسى » · وطالما أن كل امرىء ورد مطهر الجنسية الطفلية ، حسب رأيه ، ثم اضطر فى سن الثالثة أو الرابعة أن يكبت ذكرياته عن كل هـــذه الفترة فى اللاشعور اذن « فقد أحنقهم أن يروا التحليل النفسى يحـاول أن

× فرويد : « الابحاث الكاملة » مجلد ١ ص ٢٦١ ، ٢٦٩ ·

× · فرويد : « الرسائل : أصول التحليل النفسى » ص ٢١٥ ·

يكشف القناع عن ذكرياتهم المنسية المتعلقة بأعوام الطفولة . ولم يكن هناك غير مخرج واحد : أن ما أكده التحليل النفسي ليس الا زيفا وأن ما وضعه كعلم جديد ليس الا نسيجا من أوهام فكر مشوه » . × وهكذا فان أي رفض لنظريات فرويد يكون تفسيره في ضوء التحليل النفسي رفض للاعتراف بالموضوعات المكبوتة منذ الطفولة . يقول فرويد : « يرى الكبار تاريخهم السابق شيئا مخزيا حتى أنهم ينفرون تماما من تذكره » . ان مقاومة التحليل النفسي ان هي الا مقاومة لللاشعور ـ هذا هو الحصن المنيع الذى بناه فرويد حول مذهبه .

× فرويد : « الأبحاث الكاملة » ـ مجلد ٥ ـ ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

الفصل الحادى عشر

بافلوف والمرض العقلى

بعد أن قضى الطب العقلى مائة عام يجمع ويصنف ويقارن الظواهر العقلية المضطربة انتهى الى أن اخضع للتشريح المعملى كل الأمراض العقلية التى ترجع الى اصابات عضوية فى المخ . وأحرز نتيجة لذلك تقدما كبيرا فى مجال اكتشاف علل ما اصطلح على تسميته الأمراض العقلية العضوية . ولكن ، كما لاحظنا من قبل ، فان فرعا آخر من الطب العقلى يتناول ما يسمى الأمراض العقلية الوظيفية ظل جامدا مكانه عند حدود الملاحظة . لقد جمع قدرا هائلا من المعلومات الوصفية وصنفها وقارنها ونسقها فى شكل متلازمات عرضية للاضطرابات الوظيفية المختلفة مثل الفصام والهستيريا والبرانويا والنيوراستينيا وغيرها . ولكن غياب البحث التجريبى من شأنه بالضرورة أن يجعل محاولات اكتشاف الروابط المتبادلة والميكانيزمات العلية لهذه الظواهر المرضية محاولات تأملية نظرية الى حد كبير . ومن ثم كانت حصيلة هذا كله أن ظهر عديد من « المدارس » كل منها تتخذ لنفسها مذهبا فكريا خاصا بها أساسه التخمين ونجد بينها أقل قدر من الاتفاق وأعلى قدر من التحيزات المتصادمة .

وسط هذه الأجواء المتناقضة فى ميدان الطب العقلى بدأ بافلوف جهوده لخلق ظواهر نفسية مرضية داخل المعمل ، مستهدفا التحديد التجريبى للروابط والميكانيزمات المضطربة فى المخ التى تكمن وراء أعراض المرض العقلى الوظيفى . وكان الموقف فى الطب العقلى لا يخلو من تناقض ذلك لأن عالم الفسيولوجيا كان من ناحية يعتمد اعتمادا كبيرا ومفيدا على ما يكدسه الطب العقلى الوظيفى من ظواهر يشاهدها ويصفها ويصنفها ثم يقارنها ببعضها البعض ، ولكن كان عليه من ناحية أخرى أن يرفض باصرار كل ما يقدمه الطب العقلى الوظيفى من تخمينات نظرية عن الروابط المتبادلة والميكانيزمات العلية لتلك الأعراض والمتلازمات العرضية . ان المشاهدات أمر ضرورى لا غنى عنه أبدا ــ مثال ذلك

مشاهدات كرايبلين – أما التفسيرات المتباينة لهذه المشاهدات فهي أحق بأن نغفلها ٠

ظل بافلوف ثابتا على موقفه مؤكدا أن الظواهر المرضية الذاتية انما تحدث بناء على حالات باثولوجيه تصيب المخ وبهذا التزم المسار الرئيسى لفسيولوجيا المخ وعلم الامراض الوظيفية للمخ مما هيأ له مكانا مرموقا بين سلسلة من أعلام هذا المجال فى مختلف أقطار الأرض نذكر منهم : ف٠ جولتس ، و ك٠أ٠ بيفور، و أ٠ هتزج ، و ك٠ لودفيج و ح٠ موللر ، و س٠ب٠ بوتكين و أ٠م٠ ستشينوف و ل٠ لوسيانو ، و ح٠ف٠ فولتون وغيرهم ٠

دراسة بعض الاعراض العصابية على أساس فسيولوجي مرضي

يحدثنا بافلوف عن تلاحم ما هو عقلي بنشاط المخ ، أو ما هو موضوعي بما هو ذاتي فيقول : « انه لأمر طبيعي أن امكانيات هذا التلاحم مشروطة غالبا بحالات اضطراب فى مخ الانسان يرتبط فيها اختلال العالم الذاتي للانسان باضطرابات تشريحية وفسيولوجية للقطاع الأرقى من المخ » ٠ × ودرس بافلوف على مدى خمسة وثلاثين عاما بعض الحالات المرضية الفسيولوجية التى اصطنعها داخل المعمل ، هذا بجانب أبحاثه ودراساته عن الأداء الوظيفى السوى للنصفين الكرويين للمخ عند الكلاب ٠ وأطلق بافلوف على الحالات المرضية التى اصطنعها داخل المعمل اسم « العصاب التجريبى » ٠

وبدأ منذ عام ١٩١٨ يزور عيادات الأمراض العصبية والطب العقلي وفى ذهنه هدفين : أولا : الافادة من مكتشفاته فى معمله عن العصـــاب التجريبى لتفسير ما يلاحظه من أعراض مرضية فى العيادات ٠ ثانيا : أن تزوده ملاحظاته العيادية بمهام جديدة لنشاطه وأبحاثه فى المعمل ٠ واهتم بافلوف فى الأعوام الأخيرة من حيـــاته ، فيما بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٣٦ ، بتدعيم وتنظيم العلاقة ما بين معمله والعيادة ووضع لهذا الغرض خطة منهجية تجمع بينهما فى علاقة وثيقة ٠

التزم بافلوف فى ملاحظاته العيادية نهجا يختلف اختلافا جوهريا عن النهج المألوف سواء لدى المشتغلين بعلم الأعصاب أم المشتغلين بالطب العقلي ٠ وعنى أولا بملاحظة الأعراض الموضوعية لدى المرضى قبل المحتـــوى الذاتى لحالاتهم الانفعالية أو الفكرية كما يعبرون عنها بكلماتهم ٠ والتزم ثانيا بطريقة الاستدلال الفسيولوجية ، استنادا الى أبحاثه التجريبية ، لتفسير الميكانيزمات العلية والارتباطات القائمة بين الاعراض الموضوعية المتباينة ٠ مثال ذلك أن بافلوف وهو يناقش حالتين عياديتين انتهى الى نتيجة محددة على أساس عدد من الأعراض التفصيلية ، اذ رأى أن أبرز القسمات هي « الاعراض الحركية الواضحة بجلاء فى كلتا الحالتين – التشنج عند المريض الأول والأفعال المنعكسة التوترية Tonic reflexes عند الثانى » ٠ وتساءل على الفور

× بافلوف : « المؤلفات المختارة » ص ٢٥٥ ٠

« متى تظهر هذه الأعراض عند الحيوانات ؟ » ويجيب على سؤاله بسرد عدد من التجارب التي بحث خلالها مراحل النوم واليقظة حيث تكون المرحله الثانيه صورة من صور النوم الجزئى أو التنويم ، ويصف هذه الحالة على النحـــو التالى : « احتوى الكف النومى المنطقه الحركية باللحاء بينما ظلت بقية أجزاء النصفين الكرويين للمخ تؤدى وظائفها على نحو طبيعى » • ولا حظ بافلوف هذه المرحلة الفسيولوجية السوية للنوم الجزئى أو التنويم فى عدد من حالات العصاب التجريبى ، لا باعتبارها مرحلة انتقال تتحول بسرعة الى المراحل التالية للتنويم والنوم وانما باعتبارها حالة ثابتة تستمر أياما وأسابيع وشهورا بل وأعواما حتى يشفيها الزمن والطبيعة أو الى أن تزيلها بعض الاجراءات العلاجية• وذهب بافلوف الى أن هذه الحالة « المتجمدة » للنوم الجزئى والتى تقتصر فقط على المنطقة الحركية فى اللحاء هى الميكانيزم العصبى فى المخ لأعراض التشنج والفعل المنعكس التوترى • وأطلق على هذا الميكانيزم المرضى النوعى عبـــارة « كف منعزل تماما للمنطقة الحركية فى لحاء المخ » واتخذ لها تصنيفا محددا باعتبارها صورة من الخمود المرضى Pathological inertness للمناطق المنعزلة فى اللحاء •

ولكن أطباء الأمراض العقلية الذين كانوا يباشرون علاج هذين المريضين شخصوا الحالتين على أنهما غيبوبة سببها انفعالات قوية • واتجهت جهودهم نحو محاولة الكشف عن الانفعالات القوية التى صادفها المريضـان فى حياتهم وتسببت فى حالة « الغيبوبة » أملا فى علاجها بعد تبين الظروف التى أدت الى ذلك • ويقول بافلوف عن هذا النهج القائم على العلاج النفسى والتحليـل النفسى : « بيد أن هذا يتعلق فى المحل الأول بالأعراض دون الميكانيزم » • ×
لقد كان بافلوف يؤكد دائما أن واجبنا هو اكتشاف الميكانيزم الفسيولوجى المرضى المسبب للعصاب ذلك لأنه هو أساس العلاج واستعادة الأداء الوظيفى السوى •

ان هذا الميكانيزم لا يمكن اكتشافه الا عن طريق التجريب وليس عـن طريق الملاحظة وحدها • واذا لم تتيسر لطبيب الأمراض العقلية معرفة مضبوطة عن طبيعة هذا الميكانيزم فانه لن يستفيد من مناهج العلاج المتعددة الا على نحو عملى أو برجماتى • ذلك لأن علة المرض الوظيفى ليست مثل علة المرض العضوى سموما أو جراثيم أو جروحا ••• الخ انها خلل فى الاداء الوظيفى السوى حيث يكون ميكانزم المرض هو الأول والاســاس والعلة المباشرة • ان ما يســبب الحالة المرضية للعملية الفسيولوجية هو العلة الأخيرة • وقد تكون هذه العلة أى شىء : ارهاقا عاما بسبب مرض بدنى أو انهاكا فى العمل أو جهدا انفعاليا أو عقليا أو توترا أو صراعا • ولا ريب فى أن معرفة هذه العلل الأخيرة أمر هام يعين على تشخيص المرض ، ولكنها هامة بالدرجة الأولى لأغراض صحية ــ أما للحيلولة دون المرض العقلى الوظيفى أولا واما للحيلولة دون تكرار العصاب بعد شفائه •

ولكن التحليـــل النفسى والعـــلاج النفسى ينزعان خطأ الى وضع العلل الأخيرة موضع العلل المباشرة ومن ثم يبدأ التحليل أو العلاج على أساس العلة الأخيرة

× المرجع السابق •

دون الميكانيزم الفسيولوجي المرضى الذى يمثل العلة المباشرة للأعراض المرضية . وكما قال بافلوف قد تكون هناك عديد من العلل الأخيرة المسببة للمرض العقلى الوظيفى واكتشافها يقتضى وقتا طويلا وجهدا معقدا ــ وغالبا مايكون جهدا غير ملائم للشفاء . ولكنه جهد هام لعلم الصحة . ويؤلف الاثنان معا ما يسميه بافلوف « طب المستقبل أو علم الصحة بأوسع معانيه » . ×

ان النهج الذى استنه بافلوف يرتكز على المزاوجة بين البحوث المعملية التجريبية وبين الملاحظة العيادية المنهجية وصــــولا الى اكتشاف الميكانيزم الفسيولوجي المرضى فى المخ والذى تدل عليه مركبات الأعراض . انتهى بافلوف عام ١٩٣٤ فى ضوء هـذا النهج الى أن هناك عددا من أنماط العصـــاب يمكن اصطناعها تجريبيا على هيئة نماذج تقريبية ، بينما توجد أنماط أخرى خاصة بالانسان وحده ولا يمكن احداثها تجريبيا . وصنف بافلوف الأنماط الأولى من العصاب باعتبارها حالات من النيوراستينيا أو الانهيار العصبى وأنهــا أدخل فى باب العلاج العصبى دون العلاج الطبى النفسى العيادى . وقال ان هذه الأنماط « يمكن تفسيرها وربطها بما توصلنا اليه فى معملنا من حقائــق فسيولوجية مرضية ... النيوراستينيا على اختلاف أنواعها فيمكن تكرارها مع الحيوانات تجريبيا داخل المعمل » . × ×

أما أنماط العصـــاب البشرى ــ وهى تلك التى تجمع بين النظم الثلاثة للنشاط العصبى الراقى بما فيها نظام الكلام وهو الخاصية المميزة للانسان ــ فهى على عكس ذلك اذ يستحيل احداثها تجريبيا فى المعمل . وقوام هذه الحالات العصابية ، ومنها الهستيريا وما أطلق عليه بافلوف اسم السيكاستينيا ، تفكك النظم الثلاثة وهذا هو ما يحول دون احداثها فى نصفين كرويين للدماغ لا يتضمنان سوى نظامين وظيفيين اثنين . ولكن بافلوف يرى أن هذه الحقيقة لا تقف عقبة دون الاستعانة بالحقائق المعملية لفهم وتفسير ميكانيزمات الأعراض الفردية التى يتألف منها مجمل مركبات أعراض المرض . وسوف نعرض ما قدمه بافلوف من تفسيرات لعدد من الأعصبة الخاصة بالانسان .

وأول مـرض عقلى عنى بافلوف بملاحظته ودراسته دراســة منهجية هو الفصام . ولكن بافلوف فى دراسته للحالتين المتميزتين لهــذا المرض (فصام المراهقة والفصام التخشبى) لم يركز اهتمامه على الظواهر الذاتية وانما وجه كل اهتمامه نحو مجموعتين من الأعراض . المجموعة الأولى وهى أعراض الخمول والبلادة والخلاف Negativism والمصـــاداة أو تكرار الكلام والحراك والتخشب والسكون والحركات النمطية . والمجموعة الأخرى هى أعراض الاغراق فى الهزل والألفة بصورة مبالغ فيها والاستثارة العدوانية والانفعالية والسلوك الطفل بوجه عام . وانتهى بافلوف فى تحليله للمجموعة الأولى الى أن كل عرض من تلك الأعراض انما هو تعبير عن هذه المرحلة أو تلك من أطوار التنــويم ولكنها تحولت بفعل المؤثرات المرضية ــ الاجهاد والتوتر وضغوط الحياة ــ الى حالات باثولوجية ثابتة أو متجمدة . مثال ذلك أعراض الخمول والبلادة فانها تتبدى أساسا حين يفشل المريض فى الاستجابة الى الأسئلة التى توجه اليه . ولكن بافلوف لحظ أننا اذا

× المرجع السابق ــ ص ٤٩٠ .

× × المرجع السابق ــ ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ .

سألنا الأسئلة بنغمة صوت مغايرة للنغمة المعتادة أى برقة شديدة ووداعة فان المريض يستجيب لها عادة • ويقرر بافلوف أن هذه هى الخاصية المميزة للطور النقيضى فى النوم الجزئى أو الكف الجزئى أو التنويم • وفسر ظاهرة الخلاف عند بعض المرضى فى ضوء الطور ما بعد النقيضى • أما المصاداة أو تكرار الكلام ، والحراك أو تكرار الحركات والتخشب والأوضاع الحركية النمطية Stereotypy فقد فسرها كلها فى ضوء بعض الظواهر العابرة التى نلاحظها فى التنويم والفارق الوحيد أنها تحولت الى حالة باثولوجية بسبب ثباتها وتجمدها بدرجة أو بأخرى •

واذا كانت مجموعة الأعراض الأولى هى صورة من أطوار التنويم مجمدة وثابتة فقد أرجعها بافلوف الى حالة من الكف الوقائى الذى يشتمل على الكف الكامل أو النوم والكف الجزئى أو التنويم وتفسير ذلك حسب نظرية بافلوف ان الاجهاد الشديد الوطأة للعمليتين العصبيتين أو التصادم بينهما تسبب فى حدوث كف منتشر يمثل أولا وقاية لخلايا اللحاء من أثر أى اجهاد اضافى وبالتالى فسادها ، ويمثل ثانيا الميكانيزم الباثولوجى للمخ وهو علة الأعراض المرضية المتباينة •

واعتبر بافلوف المجموعة الثانية من الأعراض نتيجة لمراحل أكثر تقدما من الكف الوقائى • اذ أن الكف المنتشر يكون قد استغرق هنا جانبا كبيرا من قطاع اللحاء المختص بالأداء الوظيفى لنظام الكلام • ونتيجة لذلك يكف نظام الكلام عن أداء دوره التنظيمى والتوجيهى على نحو ما يحدث فى حالة النوم السوى ، ويكشف كل من النظام الحسى ونظام الأفعال المنعكسة غير الشرطية عن نشاط مشوش وغير متسق بدرجة أو بأخرى • ولذلك نجد الفصامى فى مراحل محددة وفى حالات متباينة من مرضه تصدر عنه اثارات عشوائية فجائية عابرة لكل المراكز الدنيا من المخ تتبدى حينا فى شكل مزاح ومرح غير مألوفين ولا مبرر لهما وتتبدى حينا آخر فى شكل حساسية مفرطة واغراق فى البكاء ، وحينا ثالثا فى شكل غضب شديد وهياج عدوانى •

وخلص بافلوف من دراسته لهاتين المجموعتين من الأعراض وميكانيزماتها الوظيفية الى أن بعض الأعراض الفصامية هى على الأقل تعبير عن حالة تنويم باثولوجية مزمنة • ويرجع بافلوف علة التنويم المزمن عند الفصاميين الى وهن الجهاز العصبى والذى يزداد بصورة مطردة نتيجة ضغط ظروف الحياة ومشكلاتها• وحين يكون الجهاز العصبى على هذه الحالة من الوهن فان أى اثارة مفرطة تنهكه انهاكا شديدا ، والانهاك هو أحد الدوافع الفسيولوجية الأساسية لظهور الكف الوقائى فى صورة نوم أو تنويم •

اذن فالتنويم الباثولوجى المزمن هو كف منتشر تجمد بدرجات متفاوتة من حيث مداه وشدته • يقول بافلوف : « ومن ثم فان هذه الحالة تدخل من ناحية فى نطاق الباثولوجيا طالما أنها تعوق المريض عن ممارسة النشاط السوى ، وهى من ناحية أخرى وبالنظر الى طبيعة ميكانيزماتها تدخل فى نطاق الفسيولوجيا فهى علاج فسيولوجى طالما أنها تقى خلايا اللحاء من خطر الدمار نتيجة الانهاك الشديد » • والميكانيزم الباثولوجى للمرض هو فى نفس الوقت وسيلة للحيلولة دون الفساد العضوى لخلايا اللحاء المعنية ، انه القسمة المميزة للمرض العقلى الوظيفى • ويرى بافلوف أنه طالما لا توجد إصابة عضوية فان المرض بالضرورة

مرض وظيفي وشفاؤه ممكن تماما • ان العودة الى حالة السواء الكامل يجب أن تكون هدفنا من العلاج على الأقل بالنسبة لحالات العصاب التي يشكل الكف الوقائي الميكانيزم الأساسي لها • ويقول « ثمة أسباب تدعونا الى الاعتقاد بأنه طالما بقيت عملية الكف (الوقائي) فعالة بمعنى أن خلايا اللحاء لم يصبها أذى خطير ، فان العودة بها الى حالة السواء الكامل ممكنة تماما ، أي يمكن أن تشفى من الانهاك الشديد وتعود العملية الباثولوجية الى وضعها السوى • أي انها بلغة العلم الحديث ليست سوى مرضا وظيفيا » • ×

اقتنع بافلوف من خلال أبحاثه التجريبية فى المعمل وملاحظاته فى عيادة الطب العقلي بأن معرفة الميكانيزم الفسيولوجي المسبب للأعراض هي أفضل وسيلة لفهم وتشخيص وعلاج حالات العصاب والدهان البشريين • ولكن نشاطه في هذا المجال لم يبدأ الا فى أخريات حياته مما لم ييسر له القيام بأبحاث شاملة أو الوصول الى نتائج نهائية • بيد أنه خلف لنا فى واقع الأمر تراثا تضمن عددا من المشكلات الواقعية كي تكون موضوعا لأبحاث المستقبل — كما تضمن نظرية ومنهجا لحل هذه المشكلات •

ان تحليله لبعض أعراض الفصام فى صورتيه هي علامات طريق ذات شأن كبير فى توجيه البحوث الطبية والفسيولوجية المرضية • انها بمعنى من المعانى مشيئته ووصيته الأخيرة • وهي قبل هذا كله تعبير عن صياغة عامة توصل اليها عن طريق أبحاثه التجريبية على مدى خمسة وثلاثة عاما درس خلالها الأداء الوظيفي السوى والمرضى للنصفين الكرويين للدماغ ، وتتمثل هذه الصياغة فى أن النشاط النفسى مرادف للنشاط العصبى الراقى ، ومن ثم فان أى خلل وظيفي يطرأ على النشاط النفسى هو بالتالى خلل وظيفي فى النشاط العصبى الراقى •

ونود أن نقرر هنا مع بافلوف ان الاقتصار على الملاحظة داخل عيادة الطب العقلي لا تكفى وحدها مهما كان قدرها وحجمها للبرهنة على صدق ما طرحه من فروض فى هذا الشأن والسبيل الوحيد الى ذلك هو العمل الجماعى على نحو منهجى وشامل ، عمل تسهم فيه مراكز البحث الطبى العقلي ومعامل الفسيولوجيا المرضية وهيئات المشتغلين بعلاج الأمراض العقلية ، وبهذا فقط يمكن القيام بالدراسات والأبحاث الواقعية التى يكون فيها القول الفصل سواء بالنسبة لتحليل الحالة أو التشخيص أو العلاج •

ولقد بدأت فى الاتحاد السوفيتى الخطوات الأولى نحو تنفيذ هذا البرنامج الشامل على هدى نهج بافلوف ، وانتهى العلماء الى بعض النتائج لها شأنها وخطرها • ولكن لازالت جهود العلماء هناك فى مراحلها الأولى ، وان كانت الأوساط العلمية المختصة تنتظر ما تسفر عنه هذه المحاولة لبيان مدى صحة مبادىء بافلوف عند تطبيقها فى ميدان علم النفس وتربية الطفل وتنشئته وفى ميدان الطب العقلي والأمراض الوظيفية تشخيصا وعلاجا • انها تجربة فذة وفريدة من حيث اعتمادها على التخطيط الجماعى للأبحاث النظرية والتطبيقية •

× المرجع السابق — ص ٥١٤ — ٥١٥ •

مقـــابلة وتقييم

ان المقابلة بين نهجي دراسة المرض العقلي الوظيفي تكشف لنا عن تناقضات صارخة ٠

يلتزم بافلوف نهجا يعود بالعصاب الى نطاق العلوم الطبية والفسيولوجية المرضية ، بينما ينأى به فرويد عن نطاق العلوم والطب ٠ لقد استبدل فرويد الرغبات الشريرة بالأرواح الشريرة عند القدماء وأرجع نشأتها الى دوافع الجنسية الطفلية على نحو ما تتبدى رمزيا فى الأحلام والتى ورثها الانسان المعاصر عن انسان ما قبل التاريخ ٠ لقد كان فرويد مدركا تماما للعلاقة الوثيقة بين نظريته وبين خرافات الجان التى سادت فى العصور الوسطى ، كما كان واعيا بما يقتضيه العصر الحديث لتكون هذه الخرافات موضع قبول ٠ يقول فرويد : « ان الأمـــر لا يقتضى أكثر من استبدال لغة العلم فى العصر الحديث بلغة الغيبيات التى سادت عصور الظلام والخرافات » ٠ × كتب فرويد عبارته هذه عام ١٨٩٣ أى قبل الازدهار الكامل للتحليل النفسى ٠ ولكنه عاد الى نفس الموضوع مرة أخرى عام ١٩٢٣ ولم يكتب هذه المرة عما يمكن أن يكون بل عما تم تحققه بالفعل « على الرغم من أيديولوجية البدن Somatic ideology التى تميزت بها حقبة العلوم « المضبوطة » فان نظرية الجان التى سادت فى عصور الظلام استطاعت على المدى البعيد أن تبرر ذاتها ٠ ان حالات المس الجنى أو تقمص الجان للانسان تطابق حالات العصاب فى عصرنا الراهن ٠ واذا شئنا فهم هذه الحالات الأخيرة وجب علينا العودة من جديد الى مفهوم القوى النفسية ٠ ان ما كان يظنه القدماء أرواحا شريرة ، وهو عندنا رغبات شريرة ودنيئة ، هو منشأ الدوافع التى كان مصيرها الرفض والكبت » ٠ بيد أنه يضيف صفة واحدة تمايز بين النظرتين اذ يستطرد قائلا : « ونحن نختلف فى نقطة واحدة فقط فيما يتعلق بتفسير هذه الظواهر التى سادت فى العصور الوسطى ، ذلك أننا رفضنا اسقاطها على العالم الخارجى وأرجعنا منشأها بدلا من ذلك الى الحياة الباطنية للمريض حيث تتبدى هـــذه الظوهر » ٠ × ×

جوهر القضية هنا ومفتاحها أن فرويد أرجع حالات العصاب الى « قوى نفسية » ، سواء أكانت جانا من عالم الظاهر أم رغبات من عالم الباطن ٠ أبقى فرويد على المحتوى ولكنه غير الشكل وهو بفعلته هذه محا كل ما حققه الطب عامة والطب العقلى خاصة من تقدم ٠ ان المبدأ الأساسى للطب العقلى أن المرض العقلى اضطراب يصيب المخ ، وكان مبدأه هذا علامة ميلاد نهج علمى جديد ، وانتصارا للانسان على قوى الظلام والخرافة ٠ والغريب ان فرويد كان عالما متمرسا له حظ كبير فى هذا المجال ، تفتحت عيونه على كل ما تيسر من علوم ومعارف فى أوروبا ، ودرس على يد علماء أفذاذ فى فينا وبرلين وباريس ٠ لقد عرف ، بل وأسهم بنصيب منذ شبابه فى علوم الجهاز العصبى للانسان وبخاصة المخ ٠ وكانت آخذة فى النمو والازدهار آنذاك ٠ ولكن ما أن واجهته ثغرة فى فسيولوجيا المخ تتعلق بطبيعة الاضطرابات العصبية الراقية المسببة للعصاب حتى استسلم أمام ضغوط ممارسته العيادية وفعل ما فعله فاوست حين باع روحه للشيطان ٠

× فرويد : « الأبحاث الكاملة » مجلد ١ ص ٢٠ ٠

× × فرويد « الأبحاث الكاملة » مجلد ٤ ــ ص ٤٣٦ ــ ٤٣٧ ٠

أما أنه كان عالما على حظ وافر من العلم فهذا ما لا شك فيه • وكثيرا ما ردد اعتذاره عما يفعل ، وبخاصة فى أعوامه الأولى ، بل هو نفسه القائل عن نظريته انها بديل هزيل واجراء مؤقت عوضا عن علوم المخ •

وأخيرا يواجه التحليل النفسى اليوم تحديا متصاعدا بالنسبة لنهجه فى علاج الأمراض العقلية الوظيفية بيد أن هذا التحدى ، وفى الولايات المتحدة على الأقل ، لا يرتكز على أسس مبدئيه بقدر ما يرتكز على فعاليته وجدواه عمليا • ذلك ان التحليل النفسى تواجهه حقيقة عنيدة الان تتمثل فى عجزه عن وقف التزايد الرهيب فى حالات المرض العقلى الوظيفى فى الولايات المتحدة قلعته الحصينة • وها نحن نرى الأبحاث تجرى على قدم وساق بحثا عن وسائل طبية بديلة لعلاج الاضطرابات العصابية والذهانية •

ان التحليل النفسى فى الولايات المتحدة يرتكز بكل ثقله على الممارسة العملية وهو بهذا يوشك أن يشهر افلاسه • فقد نشرت مجلة لايف مؤخرا سلسلة من الدراسات تحت عنوان « علم النفس » ختمتها بسؤال هام وحاسم « ان صورة المستقبل لعلاج الأمراض العقلية تطرح السؤال التالى : هل سيجد مرضى العقل شفاء لعلتهم على أساس العلاج النفسى كما يراه التحليل النفسى أم بوسائل فيزيقية يحددها المعمل » • × وصدرت الدراسة الأخيرة تحت عنوان « الى أين يتجه علم النفس ؟ » ثم عنوان فرعى « بينما يثور الجدل حول فرويد يشق العلماء سبلا جديدة للبحث عن الطبيعة الحقيقية للأمراض العقلية » • وتجرى أكثر هذه الأبحاث فى معامل الكيمياء الحيوية أملا فى الوصول الى عقاقير ناجعة • ووجد العلماء دافعا يشجعهم على البحث فى الاقبال الشديد على العقاقير التى تتكون من مشتقات الريزربين والكلور برومازين التى بلغ عدد التذاكر الطبية التى حددتها كعلاج ٣٤ مليون تذكرة عام ١٩٥٦ فقط •

ولكن هناك غير هذا كله دراسات وأبحاث علمية ونظرية تجرى فى صمت وهدوء ودأب ومثابرة • وتجرى هذه الأبحاث على مستويين : مستوى كيميائى حيوى للكشف عن الحالات العقلية السوية والمرضية ومستوى الفسيولوجيا السوية والفسيولوجيا المرضية للمخ • مثال ذلك الأبحاث التى يجريها دكتور جوزدلجادو بكلية الطب جامعة ييل اذ يحاول الكشف عن الأداء الوظيفى السوى والمرضى لمراكز المخ المتباينة •

ان الحقيقة التى لا يأتيها الشك من قريب أو من بعيد أن نهج فرويد لا يقوى على الثبات عند مقابلته بأى نهج طبى علمى فى معالجة الأمراض العقلية • بيد أن مزية المقابلة بين نهج كل من فرويد وبافلوف انها كشفت فى سفور عن طبيعة الشرط التاريخى الأولى لنشوء نظرية القوة النفسية ـ ونعنى بذلك غياب الفسيولوجيا والباثوفسيولوجيا للنصفين الكرويين للمخ ككل • وتأكد لنا أن ملء الثغرة التى تشوب علم وظائف المخ أو علم النشاط العصبى الراقى كفيل على الأقل بالقضاء على أى مبرر لوجود نهج عقلى خالص •

نتيجة أخرى نخرج بها من هذا الفصل وهو أن علم النشاط العصبى الراقى الذى أسسه بافلوف لم يزودنا فقط بالمقابل العلمى للتأملات النظرية والافتراضات،

× مجلة لايف ـ عدد ٤ فبراير ١٩٥٧ •

مثل تفسير الأحلام وأبنية التحليل النفسى ، بل زودنا أيضا بتفسير علمى لكل الظواهر التى تناولها فرويد • ويبين لنا كيف كان فى استطاعة فرويد أن يمسك ببعض الحقائق المتعلقة بالأحلام والأعراض العصابية ويتخذها أساسا يبنى عليه صرحه النفسى رغم افتقاره الى المعرفة الفسيولوجية الكافية • لقد بدأ فرويد من تبديات الظواهر وهذا هو ما يعطى نظرياته طابع الصدق الشكلى •

ولكن هذه هى سمة النظريات التأملية الميتافيزيقية ، أن تمسك بظواهر الأمور التى لم يقل العلم قوله الفصل بشأنها • وقد يرفض النقاد مثل هذه النظريات وقد يضعونها موضع التفنيد والازدراء ، ولكن طالما العلم عاجز عن تقديم التفسير الواقعى التجريبى لهذه الظواهر ليكون هو البديل فان مثل تلك النظريات ستظل باقية استنادا الى عامل الجهل • فهكذا كان أمـــر التنجيم والسيمياء قديما وهما المقدمات البديلة لعلم الفلك وعلم الكيمياء حديثا • وهذا هو ما يصدق أيضا على التحليل النفسى ونظرياته عن العصاب • ان تقدم علم النشاط العصبى الراقى هو البديل الذى يمهد الطريق فى دأب ومثابرة نحو تجاوز أو ملء الثغرات التى تشوب معرفة الانسان بنفسه • وعـــلم النشاط العصبى الراقى الذى يدرس الفسيولوجيا السوية والمرضية للنصفين الكرويين للمخ يوشك أن يبلغ غايته وحينئذ لن يدع مكانا لكل النظـــريات التأملية عن الأمراض العقلية الوظيفية •

ان تفشى الاضطرابات العقلية هو الحافز الأقوى لمواصلة الســير فى هذا الطريق العلمى ، والضرورات العملية تلح للوصول الى نتيجة سريعا • ولقد وجدت نظريات فرويد محكا جماهيريا لها فى الولايات المتحدة ــ وسقطت • وها هو ذا بافلوف يوضع الآن موضع الاختبار وعلى أساس جماهيرى فى الاتحاد السوفيتى وعدد آخر من البلدان • وتجرى الآن فى الولايات المتحدة محاولة لتجاوز فرويد وأتباعه التزاما بنهج طبى فى علاج الأمراض العقلية • ان الطب العقلى يجتاز الآن مرحلة تصور سريع نسبيا • لقد أوشك عصر البدائل المؤقتة على الانتهاء وبدأ عصر المزاوجة بين النظرية العلمية والخبرة العملية كنتيجة حتمية لا فكاك منها •

الفصل الثانى عشر

بافلوف وفرويد

الى هنا نكون قد فرغنا من عرض ومقارنة حياة وأعمال كل من بافلوف وفرويد • وسبق أن نوهنا فى مستهل هذا الكتاب الى أن أهمية هذا العمل تتبع من واقع ما يجرى على المستوى العالمى من استقطاب مطرد لفكر طب الأمراض العقلية وعلم النفس حول علمين من أعلام هذا الفكر خلال النصف الأول من القرن الحالى •

وحاولنا جهدنا على مدى صفحات الجزءين أن نقدم عددا من الآراء التقويمية تناولنا فيها جوانب متخصصة • وها نحن الآن فى وضع يسمح لنا بأن نجمع النتائج المتباينة فى وحدة واحدة ، وسيتم هذا على ثلاثة مستويات من البحث : ١ ــ تقويم لفرويد فى ضوء أعماله هو ، ٢ ــ تقويم لفرويد فى ضوء مقارنته بأى نهج موضوعى ، ٣ ــ تقويم لفرويد فى ضوء المقابلة بينه وبين بافلوف •

وسوف نعقب على هذا بمقارنة بين حياة فلسفة كل من بافلوف وفرويد وبيان الدلالة التاريخية لهما مع اصدار حكمنا عن علاقة كل منهما بمستقبل علم النفس والطب العقلى •

تقويم فرويد فى ضوء أعماله

أشرنا فى خاتمة الفصل الأول الى أن المشكلة الرئيسية بالنسبة لتقويم فرويد فى ضوء أعماله هى أن تحدد ما اذا كانت تأملاته الميتاسيكولوجية تؤلف جزءا مكملا لنظرياته أم لا • وتعرضنا لعديد من هذه النظريات التى قيل انها ترتكز أولا وأساسا على ملاحظة المرضى وتبين لنا فى كل حالة من الحالات انها ترتكز صراحة على الافتراضات الميتاسيكولوجية • واتضح لنا فى واقع الأمر أن « الملاحظات » ذاتها تحددت فى ضوء مفهوم الجهاز العقلى الوراثى وبخاصة دعوى

اللغة الفطرية القديمة للاشعور التى تأتى فى شكل رموز نمطية ورثناها بيولوجيا عن الانسان البدائى · وان معرفتنا بأن « ملاحظات » فرويد عن الأحلام وما أشبه انما رآها فرويد من خلال مفهومه عن الرمزية الجنسية الفطرية هذه الحقيقة من شأنها أن تجعل هذه « الملاحظات » تأويلات · ان ملاحظاته « عن نظرية الكبت والأحلام وتكوين الشخصية وتعليل العصاب اصطبغت كلها مقدما بظلال تأملية أسطورية · وإذا صح هذا بالنسبة للملاحظات التى تشكل المادة الخام للنظريات ، فهو بالأولى اصح بالنسبة للنظريات ذاتها ·

فمن الأمور المسلم بها على سبيل المثال لدى أوساط عديدة أن فرويد قدم الميتاسيكولوجية التأملية · فالأساطير القديمة مقومات أصيلة متجانسة لا تقبل الانفصال · ان فرويد الباحث المحلل لا يمكن فصله عن فرويد صانع الأساطير · هذه الحقيقة التى تأكدت على مدى دراستنا للتحليل النفسى تلقى ظلها على كل الاسهامات الأخرى التى تولى ثقتها لفرويد والتى لم نتعرض لها فى هذا الكتاب ·

فمن الأمور المسلم بها على سبيل المثال لدى أوساط عديدة أن فرويد قدم اسهاما حقيقيا لتحرير الجنس من ربقة الرياء البيوريتانى · ولكن كانت هناك عوامل أخرى كثيرة مؤثرة وفعالة ظهرت فى مستهل القرن العشرين منها : نمو حركة التصنيع وتمركز السكان فى مراكز الصناعة ، ضعف سلطان الكنيسة ، اختراع السيارة وأثره الاجتماعى ، تنظيم النسل وازدهار الحركة النسائية ، اختراع وسائل الاتصال العامة وبخاصة السينما والمذياع · كل هذه العوامل مجتمعة أحدثت آثارها البعيدة فى الحياة الشخصية والحياة الاجتماعية وفى أنماط السلوك وأساليب التفكير فضلا عن التغيرات العميقة فى الموقف من الجنس · وانعكست هذه التغيرات الأخيرة فى كتابات عدد من أساطين الفكر الذين كان لهم دورهم أيضا فى تحديد مسار هذه التغيرات نذكر منهم هافيلوك اليس وبرتراند رسل · ولا جدال فى أن فرويد لعب دورا له أثره فى هذه الحركة · ولكن ثمة مسألة هامة تتعلق بنوع المساهمة التى قدمها · ان نظرياته الجنسية لم تكن وثيقة الصلة بالحياة الجنسية السوية والاتجاهات السوية بقدر ما كانت بالنسبة للانحرافات الجنسية · وهنا يبرز السؤال التالى : ترى ألم تؤد نظرياته عن الانحرافات الى تضليل الحركة الجديدة أكثر من توجيهها وجهة صحية سليمة · ان فرويد بما قدمه من نظريات عن مراحل الطفولة : المرحلة الفمية التى تعكس مرحلة آكلى لحوم البشر والمرحلة الشرجية السادية ثم مرحلة العشق الجنسى للأم وعشق الأب ، ونظرياته عن الاحساس بالذنب وعقدة الخصاء والغيرة القضيبية ورغبة الموت ، كل هذه النظريات قادت العقل المتحرر حديثا عبر متاهات قيل انها ارث ورثه الانسان المعاصر بيولوجيا عن انسان ما قبل التاريخ وأنها قدر مقدور على الناس جميعا · ترى هل يمكن الزعم بأن مثل هذا النهج يشكل مساهمة ايجابية لما شأنها فى تحرير الجنس من الرياء البيوريتانى ؟

كثيرا ما يقال ان فرويد قدم اسهامات فعالة لفهم نمو الطفل وتكون الشخصية وبالتالى التربية · وهنا أيضا نعود الى التساؤل هل نظرياته عن الجنسية الطفلية المشبعة بالأساطير وكذلك نظرياته عن كبت وتسامى مراحل الانحراف هل هذه تفيد الآباء والمعلمين لفهم الطفل وتوجيهه وفق مسار صحى سوى للنمو ؟ الاجابة القاطعة لابد وأن تنبع من دراسة أثر التحليل النفسى على مجالات التربية ونمو

الطفل • ولكن من العسير أن نصدق مثلا أن مفهوم « الشخصية الشرجية » أدى دورا ايجابيا من أجل التغيرات التقدمية التى طرأت على ميدان التربية خـــلال الخمسين عاما الماضية •

وكثيرا ما قيل أيضا ، ان فرويد قدم اسهامات أصيلة لفهم أسس تعليل العصاب • ولكن طالما وأن التعليل عنده هو أولا وأساسا ظاهرة جنسية • وطالما أن نظريته عن الجنس مشبعة بأساطير عن الميراث القديم الفطرى ، والطاقة النفسية الليبيدية المبهمة والرغبات الجنسية المحرمية والمنحرفة ورغبة الموت فان نظرية التحليل النفسى عن التعليل لا يمكن أن تكون مصدر عون ايجابى وفعال بل انها هى ذاتها نظرية أسطورية غير علمية • حقا ان الحياة الجنسية قد يكون لها دورها بين عوامل أخرى فى تعليل العصاب ولكنها ليست هى العامل الحاسم الأوحد وهو الآن زعم مرفوض من قبل الطب العقلى والعلاج النفسى • ان جوهر القضية ليس البحث عن درجة تأثير الحياة الجنسية فى تعليل العصاب وانما ما ذهب اليه فرويد حين جعل محور نظريته النجاح أو الفشل فى كبت واعلاء المراحل الجنسية الفطرية المنحرفة • ونظرية كهذه ليست مجرد مبالغة فى تقدير دور الجنس بل هو تشويه له •

كل هذه « الاسهامات » يسلم بها كثيرون من غير الفرويديين بل وبعض خصوم فرويد ، ويبنون رأيهم هذا على أساس الحق فى استبعاد كل الأساطير والابقاء على النفيس من ملاحظات فرويد • والقضية هنا أن أى محاولة ميكانيكية كهذه انما تغفل تماما الطابع العضوى للتحليل النفسى الذى تشكل فيه الأساطير القديمة عنصرا لازما حتى ليكاد المرء يقول ان استبعاد الأســاطير قد يودى بملاحظات فرويد ونظرياته معا •

وثمة أخيرا اتفاق عام تقريبا على أن فرويد أبرز ما يسمى « الانسانية العظمى » • ولكن اذا كان المقصود بذلك أنه حاول أن يخفف من آلام البشر ومعاناتهم وأنه لعب دورا فى اتخاذه صورة من صور المرض مأخذا جادا على غير ما كان مألوفا من قبل ، اذا كان هذا هو المقصود فاننا على وفاق معه • ولكن حتى هنا وبهذا المعنى فان « الانسانية العظمى » يكاد يفسدها تشويه العقل البشرى باعتباره شيئا غير رشيد بعيدا عن العقل تحكمه أولا وأساسا حوافز منحرفة وأطوار وأبنية عقلية شائهة •

ان النتيجة التى انتهينا اليها بالنسبة للقيمة الأصيلة للتحليل النفسى عند فرويد ترتكز على القسمات الجوهرية التالية التى يتميز بها مذهبه وسبق أن تناولناها بافاضة وتفصيل :

أولا : ان النهج العام الذى التزم به فرويد نهج عقلى خالص • يردد قولا فقط الحقيقة الراسخة أن العقل وظيفة للمخ وبخاصة النصفين الكرويين للدماغ ، ولكنه ينهج فى دراساته نهجا يقضى بأن البشرية ظاهرة مستقلة غير متجسدة • وهذا هو النهج الذى اصطلح على تسميته « المثالية الثنوية » فى الصـــورة السيكولوجية لمذهب التوازى •

ثانيا : استقى الجانب الأكبر من تصوراته من مصادر غير علمية فى تاريخ الفكر البشرى • وكثيرا ما عبر صراحة عن حقه فى انتقاء الأفكار والنظريات التى تلائم حاجته أو غرضه : وهو ما يسمى اصطلاحا « الانتقائية النفعية » •

ثالثا : ان منهجه فى الملاحظة قوامه سبر غور اللاشعور بوساطة الترجمة النمطيـة لرموز الأحلام والتخييلات وفلتـات القـلم واللســان والمستدعيات اللاشعورية والأعراض العصابية • وهو هنا يلتزم منهجا « تجريبيا طبقه أولا على ذاته حيث جمع « مادة الملاحظة » التى استخرج منها نظرياته • وهذا هو ما يسمى اصطلاحا « الاستبطان الخفى » •

رابعا : أضفى على ما أسماه « الرموز اللاشعورية » دلالات جنسية متعسفة اتخذها مادة لملاحظاته عن الجنس وبنى عليها نظرياته • وهـــذا هو ما يسمى اصطلاحا مذهب التأويل الجنسى الشامل •

خامسا : ان نظريته عن العقل اللاشعورى مثقلة بالسمات العقلية الفطرية التى تفسر الخصائص الجنسية الشاملة فى ضوء الترجمة الجنسية للرمز • وهو ما يمكن أن نسميه اصطلاحا « احياء للعقيدة الأفلاطونية وعقيدة العصور الوسطى عن الأفكار الفطرية » •

سادسا : نظريته عن الكبت التى ترى فى الكبت القوة المحركة للنشاط العقلى • وترتكز نظريته هذه على مفهوم « الطاقة النفسية » الذى يماثل بينها وبين الطاقة الفيزيقية والكيميائية على سبيل القياس • ونظريته عن الكبت هى نتاج قياس النظير ويعنى هنا اسقاط لا مبرر له للقانون الفيزيقى على بناء عقلى محض هو موضع افتراض •

سابعا : نظريته عن عودة النزعات العقلية الفطرية المكبوتة محتفظة بكل طاقتها النفسية وهى نهاية وبداية مذهبه فى التحليل النفسى • ويذهب الى أن مخططات الجنسية الطفلية المكبوتة تعود فى الأحلام والتخييلات وفلتات القلم واللسان والدعابات والمستدعيات اللاشعورية والأعراض العصابية • ولكنه افترض مقدما وجود تخيلات رمزية لهذه الظواهر ذاتها ، وقـــاده تأويل هذه التخيلات إلى بناء مخططات فطرية للجنسية الطفلية العقلية التى تتميز بشحنة عالية • ان التفسير فى ضوء مصادرة مفترضة مقدما عن الرمزية الجنسية الفطرية التى تطورت ونشأت مع النوع انما يستتبعه بالضرورة القول بوجود مخططات جنسية وراثية نشأت وتطورت مع النوع • وهذا النوع من الاستدلال هو ما عرف اصطلاحا بالاستدلال الدورى أو غلط المصادرة على المطلوب وهو أسلوب فى التفكير غير مقبول منطقيا •

ثامنا : ان نظريته عن الأحلام هى خير مثال لنظريته عن عودة المخططات العقلية الطفلية المكبوتة والرغبات الدافعية النابعة منها • وتذهب النظرية الى أن الرقابة تهن وقت النوم ومن ثم يمكن للرغبات الدافعية أن تنفذ الى الشعور بصور مقنعة • ومهمة تفسير الأحلام تعقب هذه العملية الى مدنئها أى الى مستودع مخططات الجنسية الطفلية المكبوتة ويتم هذا عن طريق قراءة اللغة الجنســية للأحلام وهى لغة رمزية نمطية وفطرية • ونظرية كهذه هى بعث جديد لمفهوم قديم يقضى بأن الأحلام لها دلالات خفية ، وهو قول ثبت بطلانه علميا •

تاسعا : نظريته عن العصاب مثال آخر على عودة مخططات الجنسية الطفلية اللاشعورية المكبوتة والرغبات الدافعية النابغة منها · اذ يذهب فرويد الى أن قراءة الرموز التي نشأت وتطورت مع النوع والتي تتبدى في الأحلام والتخييلات والمستدعيات اللاشعورية وعمليات الطرح من جانب المريض ، كل هذا يستطيع المحلل من خلال قراءته له أن يتتبع الرغبات الدافعية والحفز للعصاب أن يصل به هذا الى موضوع الكبت الأصلي · ويجرى المحلل بعد ذلك عملية اعادة بناء للمشهد الأولى الذي يمثل علة الصدمة الطفلية · وهو ما يمكن أن يسمى اصطلاحا نظرية القوة النفسية لتفسير العصاب ·

عاشرا : ان نظريته عن الميتاسيكولوجيا ما هي الا محاولة قائمة على التخمين هدفها بنـــاء نسق سيكولوجي · وقوام هذه النظرية عدد من الافتراضات تقضى بأن الجهاز العقلي يتألف من نظم ثلاثة : الشعور والقبشعور واللاشعور أو الأنا الأعلى والأنا والهو · وتحولت هذه الافتراضات الى « موجودات » فعلية تشغل حيزا في المكان · واتخذ منها بعد ذلك دليلا على صدق نظرياته الاجرائية Operative Theories عن اللاشعور والغرائز والكبت وما الى ذلك · ونظريته هذه تأمل ميتافيزيقي مطبقا على علم النفس ·

الحادى عشر : وأخيرا فان نظريته عن نشأة وتطور العقل البشرى ترتكز على المزاوجة بين علم الأساطير وتخمينات أنثروبولوجية متهافتة ومرفوضة علميا ، منها نظرية المجتمع البدائي ، وأب المجتمع الأبوى ، وخصاء الأبناء ، واستحواذ الأب على النساء وتحريمهن على الأبناء ، وجريمة قتل الأب والاحساس بالذنب نتيجة هذه الخطيئة الأولى وكيف أدى هذا الى انقسام العقل الأولى المتجانس الى شعور وقبشعور ولاشعور ، والقول بأن الحضارة والثقافة هما انكار وكبت لغرائز المجتمع البدائي وذكرياته · ومنها الأسطورة بأن الانسان تحكم في النار نتيجة كبته لغريزة التبول عليها ، والقول بلغة موروثة وأنها هي أساس تأويل رموز الأحلام والتخييلات والأعراض العصابية · ولهذا فان الأساطير تشكل حجر أساس لنظريته وبدونها يستحيل تفسير الأحلام · ان الأساطير عنده جانب مكمل لنسيج تفكيره ومن ثم فان نظريته عن نشأة وتطور عقل الانسان ما هي الا احياء لفن العرافة ·

واذا شئنا أن نجمع كل هذه الخصائص في وحدة واحدة فاننا نعود الى فرويد نفسه · كتب ذات مرة لأحد أصدقائه المعجبين به فقال : « انك كثيرا ما تبالغ في تقديرك لي · وحقيقة الأمر انني لست رجل علم أو رجل ملاحظة أو مجرب أو مفكر · انني لست شيئا من هذا كله وانما أنا فاتح ـ أو مغامر ان شئت كلمة أخرى ـ تتوافر في كل الصفات اللازمة لهذا الطراز : حب الاستطلاع والجرأة والعناد · ومثل هؤلاء الناس يجب الا نصـــدر حكما عليهم الا بعد نجاحهم وبعد اكتشافهم حقا لشيء ما والا فلنطرحهم جانبا ، وهـــذا هو عين العدل » · ×

× فرويد : « رسالة الى ولهلم فلايس ـ أول فبراير ١٩٠٠ والاقتباس عن كتاب ارنست جونز » سيجموند فرويد ـ حياته وأعماله مجلد ١ نيويورك ـ ١٩٥٣ ـ ص ٣٨٤ ·

تقويم فرويد فى ضوء مقارنته
بالنهج الموضوع لعلم النفس والعلاج النفسى

سنجتزىء هنا بمقارنة موجزة على مستويين • أولا لو قابلنا التحليل النفسى عند فرويد بأى منهج آخر للعلاج النفسى تتوفر فيه خصائص التفكير المنطقى والاجتماعى فاننا سنتصل على الفور الى نتيجة حاسمة ومثيرة • هذه هى الحقيقة على الرغم من أن أى علاج نفسى ينطلق بداية من نهج عقلى خالص اذ ينظر الى العقل نظرة ثنوية تماثل نظرة فرويد • ولكن الفارق الأساسى يتمثل فى أن العلاج النفسى العقلانى لا ينظر الى العقل باعتباره قائما فى فراغ اجتماعى ، أو أن القوة المحددة له قوة غريزية وراثية وباطنية ترجع الى زمان سحيق بل باعتبار أن العقل قائم فى نطاق الزمان والمكان تحدده الظروف الاجتماعية • فالبيئة ، وليست الجبلة الفطرية ، هى العامل الحاسم لكل من الصحة العقلية والمرض العقلى •

ومثل هذا الطراز من العلاج النفسى يرى فى تعليله لحالات العصاب البسيطة أنها ترجع أساسا الى ضغوط الحياة وصدماتها وصراعاتها داخل مجتمع تطحنه تناقضات حادة ، أى المجتمع الذى تفصل فيه ما بين الواقع المعاش وبين الآمال هوة كبيرة • ذلك لأن خبرة الحياة تسبب فى ظروف كهذه تشوشا فى الفكر واضطرابا فى الاستجابات الانفعالية • ومن ثم فان العلاج هنا لا يستهدف تحويل الذكريات وموضوعات الكبت من اللاشعور الى الشعور وانما اعادة تربية الشخص الذى انحرف عن جادة الطريق ومساعدته على الوصول الى حلول لمشكلاته التى عجز عن حلها ذاتيا • ويلزم وصولا الى هذا الهدف ، توضيح ظروف الحياة ، بالاضافة الى أمور أخرى تسببت فيما يعانيه المريض من مصاعب ، وبيان ما وقع فيه المريض من أخطاء عند مواجهته لها • فالعلاج النفسى هنا نوع من اعادة التوجيه للفرد وهو أسلوب هام وفعال خاصة فى ظروف مجتمع كالمجتمع الأمريكى •

والمجال هنا لا يسمح ، فى الحدود المرسومة لهذا العرض ، أن ندخل فى تفصيلات أكثر عن هذا الطراز من العلاج النفسى • هذا فضلا عن أننا لو تجاوزنا حدود بيان القسمة العامة الأساسية له سنجد أنفسنا وسط دوامة من الصراعات المحتدمة والخلافات حول مناهج العلاج وعوامل أخرى كثيرة • ×

ان الاهتمام بدور البيئة الاجتماعية وخبرة الفرد فى نطاق المجتمع هو ما يعطى العلاج النفسى العقلانى القدرة على كشف طابع التحيز فى التحليل النفسى عند فرويد حيث يقتصر دور البيئة الاجتماعية على تنمية الملكات العقلية الفطرية التى يشترك فيها كل أفراد النوع • وانه لمحال تماما ، بل وينافى العلم أيضا ، دراسة أى ظاهرة وكأنها موجودة فى فراغ • واذا صدق هذا بوجه عام فهو بالأحرى أصدق بالنسبة لدراسة العقل البشرى قبل أى موضوع آخر من موضوعات البحث • ولقد تناول فرويد عقل الانسان الفرد وكأنه مستقل تماما عن ظروف البيئة ولا يخضع فى نهاية الأمر الا لسمات عقلية وراثية نشأت مع نشوء وتطور النوع •

× ربما كان أفضل مثال لهذا الطراز من العلاج النفسى هو ما يعرضه الأستاذ جوزيف فورست فى كتابه « العصابى » طبعة نيويورك ١٩٥٤ •

ثانيا : لو قابلنا التحليل النفسى بأى نهج تجريبى موضوعى فى علم النفس فان النتيجة تفرض نفسها على الباحث لغير صالح التحليل النفسى · ان المقارنة بين الأساليب التكنيكية المجهدة المتبعة فى البحث المعملى حيث يلزم اتخاذ كل الاجراءات الممكنة للحيلولة دون تدخل أى عامل ذاتى أو استبطانى وبين منهج فرويد الذى يتخذ من الاستبطان بعامة واستبطان الأحلام بخاصة ركيزة له ينفى عن التحليل النفسى كل صفه علميه · ويكفى أيضا أن نعقد مقارنة بين المنهج الذى يلتزم بأن تكون تجاربه على نحو يمكن تكراره وبين التحليل الفرويدى الذى لا يتعذر تكراره فقط بل نتعذر ملاحظته أيضا فضلا عن أنه لا يمكن البرهنة على نتائجه بالتجربة وانما عن طريق الخبرة الشخصية ·

ربما كان هذا كله من بين الأسباب التى حالت دون أن يكون لفرويد نفوذ حاسم على علم النفس التجريبى الأكاديمى فى الولايات المتحدة ·

واذا قارنا بين منهج البحث عند بافلوف ، ناهيك عن مكتشفاته ، وبين منهج البحث عند فرويد فان النتيجة تصل الى حد الادانة · لقد التزم بافلوف على عكس فرويد بمبادىء البحث التجريبى التى تعكس فى صدق قواعد ومعايير العلوم بما فى ذلك علم النفس التجريبى على نحو ما أوضحنا فى عرضنا المقارن بين مناهج بحث كل منهما ·

ان العلاج النفسى العقلانى وعلم النفس التجريبى يكشفان عن قسمتين مميزتين لأبحاث فرويد كفيلتين بأن يجردا ملاحظاته ونظرياته من كل مبررات الثقة فيها أو الاعتماد عليها· القسمة الأولى : اخفاقه فى النظر الى الظاهرة موضوع دراسته باعتبارها ظاهرة مترابطة مع البيئة وهو شرط علمى · القسمة الثانية : اغفاله التام لقواعد مناهج البحث العلمى · لقد نظر فرويد الى العقل باعتباره ظاهرة منعزلة ومستقلة ومكتفية بذاتها ، والتزم فى دراسته لها منهجا يتنافى مع كل مبادىء ومعايير العلم ، وهو بهذا انما كان يبحث ظاهرة غير محـــددة ومشوشة فى ضوء وسائل غير علمية ·

بيد أن قضـــية التحليل النفسى تكون أكثر وضوحا وحسما بالمقـارنة بين بافلوف وفرويد ·

تقويم فرويد
فى ضوء مقارنته ببافلوف

وضح لنا من سياق هذا الكتاب أن كلا من بافلوف وفرويد جابههما موقف واحد : ثغرة فى علم وظائف المخ · لقد حققت فسيولوجيا المخ تقدما سريعا بدءا من القرن التاسع عشر ، ولكنها على الرغم من هذا كله ، وقفت جامدة أمام النصفين الكرويين للدماغ ركيزة الحياة العقلية · كان تشريح هذا القطاع الأرقى فى المخ معروفا تماما ، كما أجريت بحوث تجريبية لدراسة الأداء الوظيفى لبعض المراكز كل على حدة · ولكن ظل ثمة لغز يحوطه الغموض وهو كيف يؤلف لحـــاء المخ الميكانيزم العصبى لظواهر الشعور والذاكرة والتعلم والفكر والتخيل والمعرفة من ناحية والنوم والأحلام والتنويم والايحاء أثناء التنويم من ناحية أخرى ·

وسوف يكون أساس المقابلة والمقارنة بين بافلوف وفرويد هو التناقض بين أسلوب كل منهما في مواجهه التحدى الذى فرضته عليهما تلك الثغرة الخطيرة في المعرفة البشرية • كان فرويد عجولا بسبب الحاجة الملحة لعلاج حـــالات العصاب التى تفد الى عيادته الخاصة ومن ثم حاول القفز متجاوزا تلك الهـــوة الواسعة والخطيرة مستعينا في ذلك بتفسير الأحـــلام والتأمل الميتافيزيقى • أما بافلوف فكان على النقيض اذ التزم جانب الصبر والجلد فى محاولته الدؤوبة لسد هذه الثغرة متوسلا لذلك بالبحث التجريبى المعملى الموجه والملاحظة العيادية المنهجية •

وهكذا حاول كل من بافلوف وفرويد بطريقته الخاصة أن يكشف الغموض الذى يكتنف الظواهر العقلية • والتقت المحاولتان فى مواضع عديدة من البحث وفى تفسير الحالات المرضية كما وضح من سياق عرضنا فى ثنايا الكتاب •

لقد كشفت لنا المقابلة بينهما عن تناقض حاد وصارخ فى كل حالة من الحالات • اذ حين قابلنا التفسير الفسيولوجي التجريبى للنوم والأحلام بنظريات فرويد عن انسحاب الليبيدو وعودة الحالة الجنينية أثناء النوم ، وعودة المكبوت من الغرائز والميراث القديم فى الأحلام بدت لنا نظريات فرويد بديلا هزيلا خياليا وأسطوريا للمعرفة العلمية • وحين قابلنا التفسير الفسيولوجى للتنويم والايحاء أثناء التنويم بنظرية فرويد التى تزعم أن المنوم مغناطيسيا يسترجع المكبوت من الذكريات الوراثية التى نشأت وتطورت مع النوع بداية من أب المجتمع البدائى وأن هذا المكبوت هو الذى يزود المنوم بشحنته من الطاقة النفسية فتمنحه قوة مغناطيسية للتسلط على الوسيط ، بدت لنا نظريته هنا وهما خالصا • وحين عرضنا التفسير الفسيولوجى المرضى ، القائم على التجربة والملاحظة العيادية ، لعدد من الميكانيزمات العصبية الراقية التى تسبب حالات العصاب والأعراض العصابية وقابلنا هذا بنظرية فرويد عن عودة المكبوت متمثلا فى المكونات الوراثية للجنسية الطفلية وذكريات المشـــهد الأولى ، بدت لنا هـــذه النظـــرية اغراقا فى الخيال بل استخفافا بكل انتصارات الانسانية فى مجال العلم على النظريات الخرافية التى ترد الأحلام والعصاب والنوم لقوى غيبية •

ان مقابلة نظريات فرويد بنظريات بافلوف تكشف لنا الى أى حد زاغ فرويد بعيدا عن طريق العلم ، وتؤكد لنا فى نفس الوقت أن المعرفة البشرية لا تعرف منطق القفز لتجاوز الثغرات ، فليس ثمة بديل للمناهج العلمية : بطيئة الخطو ولكنها يقينية النتائج •

لجأ فرويد الى الأساطير ليفسر بها ظواهر الحياة العقلية ، أما بافلوف فقـــد لجأ الى علم النشاط العصبى الراقى واتخذه أساسا لتفسير ظواهر الشعور والفكر والذاكرة والتخيل والارادة ولكن لم يمتد به العمر ليطبق مناهجه ونظرياته عـــلى هذه الظواهر الا فى حالات قليلة • حقا كان بطىء الخطو وهو ينتقل من حقيقة الى أخرى ولكنه كان ينتقل من يقين الى يقين فى ذات الوقت •

ان مقابلة مكتشفات بافلوف بمكتشفات فرويد تصل بنا الى نتيجة محددة وموجزة وهى أن فرويد على الرغم من كل تطلعاته ونواياه العلمية كان عجولا نافد الصبر حين حاول عبثا أن يقفز متجاوزا الثغرة فى فسيولوجيا المخ • وكان حصاده نظرية فى التحليل النفسى لا تعدو أن تكون ظاهرة عابرة بعد زوال مبرراتها •

مقارنة بين حياة بافلوف وحياة فرويد

عرضنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب حياة بافلوف ومسارها عبر ثلاث مراحل من النشاط العلمى الذى امتد الى ما يقرب من ستين عاما : عشرة أعوام من البحث التجريبى لدراسة التنظيم العصبى للدورة الدموية ، خمسة عشر عاما فى دراسة تجريبية للتنظيم العصبى لعملية الهضم ونال على هذا جائزة نوبل عام ١٩٠٤ ، ثم بقية حياته خمسة وثلاثون عاما ، فى البحث التجريبى لدراسة النشاط العصبى (النفسى) الراقى •

وبدأنا هذا الجزء بعرض لحياة فرويد ومسارها عبر مرحلتين متمايزتين • وها نحن الآن فى وضع يسمح لنا بأن نحدد سمات المرحلة الثانية من حياته • وأحسب أننا لو تناولنا حياة الرجلين تناولا موجزا ومتداخلا فان هذا من شأنه أن يلقى ضوءا كاشفا قويا على الخصائص المميزة لكل منهما •

ان حياة كل من الرجلين ، التى تفصل بينهما سبع سنوات عند الميلاد ، سارت فى مسار مواز تماما لحياة الآخر حتى عام ١٨٨٦ وقتما كان بافلوف فى السابعة والثلاثين وفرويد فى الثلاثين من عمره • درس كل منهما قبل عام ١٨٨٦ العلوم وبخاصة التشريح والفسيولوجيا ، وحاز كل منهما على درجته الجامعية فى الطب وانصرف بعد ذلك بكل جهده للبحث المعملى لدراسة الأجهزة العصبية للحيوانات التى هى دون الانسان مرتبة • ولكن كان هناك اختلافان أساسيان : أولا بينما انصب جل جهد بافلوف على دراسة التشريح والفسيولوجيا تجريبيا ، نجد غالبية أبحاث فرويد عن التشريح والفسيولوجيا أبحاثا وصفية التزم فيها جانب الملاحظة الميكروسكوبية الدقيقة • ثانيا : بينما نأى بافلوف بنفسه عن الطب الى الفسيولوجيا وقضى عشرة أعوام لدراسة الدورة الدموية اضطر فرويد تحت ضغط العداء للسامية الى أن ينأى بنفسه بعيدا عن الفسيولوجيا الى الطب •

واتجه بافلوف ، حوالى عام ١٨٨٦ ، الى الدراسة التجريبية للتنظيم العصبى للهضم بدافع المشكلات التى واجهته أثناء أبحاثه العلمية السابقة • واتجه فرويد فى نفس هذا التاريخ تقريبا من أبحاثه فى ميدان علم الأعصاب فى عيادات فينا وباريس الى الممارسة العملية لعلاج العصابيين الجوالين فى عيادته التى افتتحها مؤخرا • واضطر الى أن ينأى عن البحث العلمى الخالص ليمارس الطب بسبب الزواج وضغط الحاجة الاقتصادية • ولكن يجدر بنا هنا أن نشير الى أن بافلوف كان زوجا فقيرا أيضا حتى أنه اضطر تحت ضغط العوز الى أن ينفصل عن زوجته ، هو فى معمله وهى فى كنف أهلها طوال الأعوام الأولى من حياته العلمية •

وتباينت حياتا الرجلين بعد عام ١٨٨٦ وتباعد منحى كل منهما باطراد حتى باتا على طرفى نقيض •

انصرف بافلوف خلال المرحلة الثانية التى تمتد الى خمسة عشر عاما الى أبحاثه المعملية التى حاز من أجلها على جائزة نوبل • درس خلال هذه الفترة التنظيم العصبى لعملية الهضم ، وشغل وظيفة أستاذ لعلم المستحضرات الطبية بأكاديمية الطب العسكرية ثم رئيسا لقسم الفسيولوجيا بمعهد الطب التجريبى • أما فرويد فكان خلال هذه الفترة يجهد نفسه لوضع أسس التحليل النفسى متوسلا

لذلك بتفسير أحلامه هو وأحلام مرضاه ، وتفسير التخييلات والأعراض العصابية ٠ واضطره هذا الى هجر دراساته ومبادئه العلمية والبحث عن أى وسيلة مجدية للعلاج مهما كان مصدرها خاصة بعد أن قصرت عـــلوم عصره ـ بما فى ذلك فسيولوجيا المخ والطب العقلى وعلم الأعصاب وعلم النفس ـ عن أن تمد له يد العون ٠ وتحول فرويد عن الفسيولوجيا وعلم الأعصاب الى قراءة رموز الأحلام وعلم الانحراف الجنسى وعلم النفس الاجتماعى الزائف وعلم الأجناس المتحول ٠

وفى أواخر القرن التاسع عشر ومستهل العشرين كان بافلوف يسير قدما فى دراسته التجريبية للنصفين الكرويين للدماغ تحثه الى ذلك المشكلات العلمية التى كشفت عنها دراساته فى الأعوام السابقة أما فرويد فقد أصدر خلال هـذه الفترة سفره الأعظم تفسير الأحلام ٠

وسارت حياتا الرجلين مع مستهل القرن العشرين فى اتجاهين متعارضين تمام التعارض وتلاقت نظرياتهما وتعارضت فى مواضع حاسمة ٠ هذه المواضع ، التى أشرنا اليها قبل ذلك ، هى ستة مواضع : النوم والأحلام والتنويم والايحاء أثناء التنويم والعصاب والأعراض العصابية ٠ وفى نفس الأعوام التى كان يصوغ فيها فرويد ميكانيزماته العقلية الخالصة بتفسير هذه الموضوعات الستة ، كان بافلوف يرسى الأساس العلمى الذى يعينه على تفسير كثير من ميكانيزمات المخ الفسيولوجية السوية والفسيولوجية المرضية التى تسبب هذه الظواهر الست ، وهو ما نجح فى اكتشافه فعلا الى حد كبير ٠ وكان انجاز بافلوف لهذا العمل الفذ ، ضمن أعمال أخرى لها شأنها الخطير ، بمثابة تفويض لدعائم الأبنية التأملية لفرويد فور اتمامه لها ٠

الدلالة الفلسفية والعلمية والتاريخية

انطلق الصاروخ الفرويدى من قاعدته فى فينا ولكنه استقر فى الولايات المتحدة ٠ وواقع الأمر ان التحليل النفسى لم يلق رواجا مثلما لقى فى الولايات المتحدة ٠ ان فرنسا لديها بيير جانيه ومدرسته ، أما ألمانيا فقد ظلت ملتزمة الى حد كبير بالتراث التجريبى لكل من هلمهولتز وفونت فضلا عن التزامها بالمنهج الطبى فى علاج الأمراض العقلية ، وبالنسبة لبريطانيا والروسيا فانهما تأثرا حقا بالتحليل النفسى ولكنهما لم يستسلما له على نحو ما فعلت الولايات المتحدة ٠ ان الولايات المتحدة لم تقنع بأن تكون مستقرا للتحليل النفسى بل أصبحت مركزه العالمى ومركز انتشاره ٠

ومثلما كانت الأوضاع الخاصة بفسيولوجيا المخ وعلم النفس والطب العقلى هى علة ومبرر ظهور فرويد فثمة أوضاع أيديولوجية وفكرية تســـود الولايات المتحدة هى علة بقائه والضامنة لاستمرار نفوذه ٠

ويمكن تفسير نجاح فرويد فى الولايات المتحدة بتوافق فلسفته مع النظرة القومية السائدة ٠ ان نهجه المثالى فى النظر الى العقل البشرى لم يكن مصدر خطر يهدد الايديولوجية شبه الرسمية بل ربما كان على العكس من ذلك ، مصدر تدعيم لتلك الايديولوجية ٠

أما فلسفة بافلوف فهى على النقيض من ذلك تماما ، لان علم النشـاط العصبى الراقى يرتكز على فلسفة مادية متسقة وهو ما يتعارض مع أسلوب الفكر السائد وهذا وحده يفسر ببطء انتشار نظريات بافلوف ولكن لا يزال ثمة عامل أقوى من هذا بكثير ٠

اعتادت البشرية منذ آلاف السنين أن تنظر الى العقل باعتباره ظاهرة غيبية ومن ثم يكون تفسيرها بمنهج يتسق وطبيعة الظاهرة ٠ وواقع الأمر أن هـذا النهج الغيبى كامن فى أعماق نفوسنا جميعا وليس من اليسير اقتلاعه ٠

وظهر خلال الثلاثة آلاف عام الأخيرة فلاسفة ماديون ذهبوا الى أن العقـل ظاهرة طبيعية متوقفة على البدن وبخاصة المخ ٠ ومع تطور العلم الحديث وبخاصة ما حققه العلم من تقدم فى مجال فسيولوجيا المخ أكد الفلاسفة والعلماء الماديون خلال القرن التاسع عشر حقيقة العقل باعتباره وظيفة لمادة عضوية راقية هى مخ الانسـان بوجه عام والنصفين الكرويين منه بوجه خاص ٠ ولكن العلماء كانوا لا يزالون يجهلون كيف تصدر الحياة العقلية عن النصفين الكرويين ولهذا التزم الفكر المادى موقف الدفاع ٠ وما أن استطاع العلم أن يبرهن على : أولا ان النصفين الكرويين هما عضو العقل أو ركيزته وهو ما تم عن طريق عمليات الاستئصال منذ السبعينات من القرن الماضى ٠ ثانيا وجود ميكانيزمات خاصة بالأداء الوظيفى للحاء هى أساس النشاط العقلى ، هنا تحولت المادية تماما عن كونها عقيـدة فلسفية الى مبدأ علمى راسخ يرتكز على التجربة ٠ والبرهنة على أن العقل وظيفة للمخ هو أعظم مساهمة أسداها علم النشاط العصبى الراقى ٠ بيد أن هـذه البرهنة ذاتها كان لها مذاق العلقم لأنها تقضى على الملاذ الأخير للنظرة المثالية التى تنظر الى الانسان باعتباره استثناء من القانون الطبيعى الشامل ٠

ان التسليم بعلم النشاط العصبى الراقى يعنى دخول علم النفس والطب العقلى دائرة العلوم الطبيعية ٠

ولقد قطع بافلوف شوطا كبيرا فى سبيل كشف الغموض عن العقل بينما عمق فرويد هذا الغموض وزاده تعقيدا ٠

بهذه العبارة يمكن لنا أن نبدأ توضيح الدلالة الفلسفية والعلمية والتاريخية لكل من الرجلين ٠

فلسفيا ــ كان فرويد داعية لنظرة ومنهج مثاليين ذاتيين معاديين للعلم ، وعلميا ، كان داعية لعلم نفس قائم على التأمل والايمان بالغريزة فضـلا عن تدعيم أسطورة العقل البشرى المبهم ، وتاريخيا ، حاول القفز وتجاوز ، بدلا من أن يسد الثغرة القائمة فى المعرفة البشرية ومن ثم لم يكن له تأثير على مستقبل علم النفس والطب العقلى ناهيك عن اعاقته ٠

أما بافلوف فعلى النقيض من ذلك ، فهو فلسفيا لم يكن داعية للنظرة المادية الواحدية والمنهج العلمى بل قدم بالفعل اسهامات جليلة دعمت نظرة العلم ومنهجه فى نضاله ضد الجهل والخرافة ، وعلميا ، ملأ الثغرة التى كانت تشوب فسيولوجيا المخ مما كان له أثره فى وضع علم النفس والطب العقلى الوظيفى فى المكان الصحيح

على الطريق ليصبحا علمين تجريبيين • ولا ريب فى أن مستقبل علم النفس رهن بارتباطه ارتباطا وثيقا بعلم النشاط العصبى الراقى ، وهو ما يصـــدق أيضا بالنسبة للطب العقلى • وتاريخيا ، احتل بافلوف مكان الصدارة فى تاريخ العلم • ولا ريب فى أن العالم سيعطيه حقه ويضـعه فى مصاف كوبرنيكس وداروين وماركس وغيرهم ممن كانوا علامات تحول كبير فى تاريخ المعرفة البشرية •

نحو منهج علمى لعلم النفس
والطب العقلى

ان القضية الأساسية التى طرحناها فى هذين الجزءين « بافلوف وفرويد» هى أن الحياة العقلية ليست شيئا آخر سوى الأداء الوظيفى للجهـــاز العصبى البشرى والمخ فى المحل الأول • أن النشاط العقلى هو نشاط عصبى راق • بيد ان هذا لا يعنى رد ما هو عقلى الى ما هو فسيولوجى ذلك لأن الأداء الوظيفى للمخ انما يحدث داخل ظروف موضوعية ملموسة ، تاريخية وثقافية وحضـــارية واجتماعية وفردية فى اطارى الزمان والمكان • ولكن بدون نشاط عصبى راق لن تكون ثمة حياة عقلية • ان ما نفكر فيه وما نشعر به وما نعبر عنه سلوكيا ليس رهنا ، ولا يحدده الأداء الوظيفى الفسيولوجى ـ الا فى حالة المرض العقلى بمعنى آخر أن محتوى الفكر والوجدان والسلوك ليس نتاج الأداء الوظيفى للمخ ، انما هو نتاج المجتمع • ومن ثم فان نوع المجتمع الذى يعيش فيه المـرء ونمط السلوك الفردى الذى يسهم به فى ذلك المجتمع كل هذا يحدد أخيرا طابع فكره ووجدانه وسلوكه •

بيد أن النشاط العصبى الراقى ليس قاصرا فقط على جعل التفكير والشعور والسلوك أمرا ممكنا • فهو بالاضافة الى هذا يجسد قوانين الأداء الوظيفى التى تحكم نشوء الصفات النفسية التى تتشكل تاريخيا ، مثال ذلك المهارات اليدوية والعقلية بما فى ذلك استخدام الأدوات وقدرات الكلام والقـــراءة والكتابة واستخدام الأعداد •

واذا كان علم النفس هو المبحث الذى يستهدف اكتشاف الطريقة التى تتكون بها الصفات النفسية وكيف تنمو وتتعدل من خلال التربية ومن خلال التغيرات التى تطرأ على ظروف البيئة بحيث يتسنى للفرد فى نهاية الأمر أن يحيا حيـاة ابداعية تشبعه شخصيا ومفيدة اجتماعيا ، اذا كان هذا هو هدف عم النفس اذن يستتبع ذلك بالضرورة أن يرتكز علم النفس على قاعدة قوامها معرفة حقـــائق وقوانين النشاط العصبى الراقى الذى يشكل القاعدة الأساسية لنشوء وتكوين هذه الصفات • وانطلاقا من هذا الفهم فان علم النفس لكى يكون دراسة علمية حقا يتعين عليه ألا يحصر ذاته داخل حدود المعلومات المتعلقة بفسيولوجيا المخ ، وانما ينبغى عليه أن يتخذ له ركيزة من المعارف العلمية عن المجتمع ، والعلم الاجتماعى للتاريخ والاقتصاد السياسى وعلم المجتمع • ويجب أن يرتكز أيضا على نظرية علمية فى المعرفة أو نظرية علمية عن الشعور والمعرفة والصدق ، التى تبين الطابع الحاسم للممارسة العملية ودور النظرية فى العلاقات المتداخلة بين البشر وبيئتهم الطبيعية والاجتماعية •

ان علم النشاط العصبى الراقى يشكل مع العلوم الاجتماعية ونظرية المعرفة العلمية الشروط الأولية الثلاثة لتطور علم النفس الى علم ناضج ومضبوط فى مقابل علم النفس الوصفى أو التأملى • ان علم النفس تاريخيا لم تتيسر له هذه الشروط الثلاثة أو انه أغفلها ، ومن ثم ساد المنهج التأملى والوصفى • فثمة علم النفس التجريبى ، وهو أفضل المناهج السائدة ، لا يزال حتى الآن يغلب عليه الطابع الوصفى مع التأكيد على المعطيات الاحصائية ومعــاملات الارتبــاط ، أما السلوكية والجشطلتية والوظيفية والاجرائية فما هى الا مزيج من الدراســة الوصفية التجريبية والنظرية التأملية ، ناهيك عن التحليل النفسى وهو دراسة تأملية خالصة •

ومن ثم فان مستقبل علم النفس رهن بالاقلاع عن التأمل النظرى المتمثل بوجه خاص فى الفرويدية مع الالتزام بالمنهج التجريبى فى علم النفس بالاضافة الى الشروط الأولية الثلاثة سالفة الذكر : فسيولوجيا المخ والعلوم الاجتماعية ونظرية المعرفة العلمية •

واذا كان علم النفس يعنيه الآداء الوظيفى السوى والصحى للمخ فى تفاعله مع البيئة فان الطب العقلى الوظيفى يعنيه تشخيص وعلاج الأداء الوظيفى المرضى للمخ • وثمة أسباب عديدة للأداء الوظيفى المرضى للمخ منهــا الاجهاد الشديد للخلايا والعمليات العصبية : المنبهات المفرطة فى قوتها أو المتعارضة ، والضغط الانفعالى ، والصراع العقلى ، والاحباط الناجم عن علاقة حب غير متكافئة أو ضغط اجتماعى • ولكن أيا كانت العلة فالنتيجة هى أجهاد مفرط من هذا النوع أو ذاك يترتب عليها خلل فى الأداء الوظيفى العصبى الراقى بمختلف صوره ويتبدى فى صورة فكر أو سلوك مشوش أو حالات وجدانية مضطربة •

ان مثل هذا النهج فى تناول المرض العقلى الوظيفى سيعود حتما بالطب العقلى الى حظيرة الطب ، نظرا لأن العقيدة الأساسية هنا أن المرض العقلى علة تصيب المخ • ولا يتأتى علاجها الا بالتحكم فى عمليات المخ لازالة المظاهر المرضية التى طرأت على الأداء الوظيفى لها • وقد يتأتى هذا العلاج عن طريقين ، لفظى وهو العلاج النفسى ، أو طبى وهو العلاج بالعقاقير والنوم والتنويم •• الخ والعلاج فى كلتا الحالتين تدخل فى صــــورة السلوك للنشاط العصبى الراقى بهدف استعادة الأداء الوظيفى الصحى • ولا ريب فى أن هذا النوع من التدخل يستلزم معرفة علمية بالفسيولوجيا المرضية لعمليات المخ •

ونظرية بافلوف عن النشاط العصبى الراقى تتضمن على الأقل البدايات الأولى لفسيولوجيا أمراض القطاعات العليا من المخ • بيد أن هذا العلم لا يكفى وحده لبناء طب عقلى وظيفى علمى أو علاج نفسى علمى • وأى دعوى على النقيض من ذلك هى دعوى زائفة ، وانما كل ما نستطيع أن نقوله وهو قول مشروع ، ان ذلك العلم هو القاعدة الضرورية التى لا غنى عنها لكل من العلمين ان شئنا لهما بلوغ مستوى الدراسات العلمية المضبوطة •

ان فسيولوجيا أمراض النشاط العصبى الراقى شرط ضرورى لقيام طب عقلى علمى على مستوى العلوم الكاملة • وثمة شرط ضرورى آخر وهو الكيمياء

الحيوية للعمليات العصبية والتغيرات التى تحدث أثناء الانتقال من حالة السواء الى حالة المرض ·

ولقـــد حقق هذان الشرطان تقـدما هائلا وسريعا خلال الفترة الراهنة فسيولوجيا أمراض المخ فى الاتحاد السوفيتى أساسا ، والكيمياء الحيوية للمخ فى الولايات المتحدة الامريكية · بيد أن اجتماع هذين الشرطين لا يكفى وحده لقيام طب عقلى علمى ، ذلك لأن الطب العقلى يتطلب فى رأينا الجمـع بين هذين الشرطين الأساسيين وبين المعرفة الوصفية للمرض العقلى الوظيفى وهى المعرفة التى تمت وتطورت بفضل الطب العقلى وعلم الاعصاب على مدى المائة والخمسين عاما الماضية · ولا ريب فى أن مثل هذه الوحدة اذا ما تحققت ستخطو بنا خطوات طويلة على الطريق نحو تحول الطب العقلى من مبحث برجماتى وصفى الى حد كبير الى علم طبى ناضج ومضبوط ·

ولكن ثمة عوامل تقف حجر عثرة فى طريق تحقيق هـــذا التطور أحدها التصور الذى أكده فرويد فى الفكر الحديث ويقضى بأن المرض العقلى الوظيفى يمكن دراسته وعلاجه خارج نطاق الطب وعلى نحو عقلى خالص · ان تأملات فرويد ونظرياته الخيالية وما يستتبعهما من مناهج تفسير الأحلام وتأويل الرموز تقف عائقا فى طريق تقدم علم طب الأمراض العقلية · ومن ثم فلو صح ما ذهبنا اليه يتبقى شرط آخر لتطور الطب العقلى العلمى ألا وهو القضاء نهائيا عـلى نفوذ التحليل النفسى ·

أخال أننا على أعتاب عصر جديد تيسرت له على أقل تقدير الأسس اللازمة للوصول بعلم النفس والطب العقلى الى مستوى العلوم الناضجة المضبوطة · ومن يدرى اذ ربما يقف الانسان بعد طول انتظار على مشارف الطريق الذى يحقق حلمه الأثير الى نفسه : أن يفهم عقله فى حالتى الصحة والمرض ·

قائمة المصطلحات

A

Acinous Glands	الغدد السنخية
Actual	بالفعل
Adaptability	قابلية التكيف
Adolescence	البلوغ
Adulthood	الرشد
After image	صورة لاحقة
Alimentary reflex	الفعل المنعكس الغذوي
Ambulatory neurotics	العصابيون الجوالون
Amnesia	فقدان الذاكرة
Anaclitic stage	الطور التواكلي
Analogy	تمثيل
Anal character	الشخصية الشرجية
Anal erotism	التعليق الشرجي
Anal sadistic phase	المرحلة الشرجية السادية
Anal zone	المنطقة الشرجية
Analyser	محلل
Analytical inhibition	الكف التحليلي
Animal magnetism	المغناطيسية الحيوانية
Animal spirit	الروح الحيواني
Anti-cathexis	الشحنة المضادة
Apathy	خمول
Aphasia	فقدان النطق
Association	ترابط ـ تداعي
Associations	مستدعيات
Associationist psych.	علم النفس الترابطي
Authoritative	تسلطي

B

Biological parallels	النظائر البيولوجية
Biological voluntarism	المذهب الارادى الحيوى

C

Cannibalistic phase	طور آكل لحوم البشر
Catalepsy	تشـــنج
Catatonia	الفصام التخشبى
Catharsis	تنفيس ـ تفريغ
Cathexis	شحنة الطاقة النفسية
Causal mechanisms	الميكانيزمات العلية
Cause	علة
Censor	رقيب
Cerebral paralysis	شلل المخ
Chain — Reflex	الفعل المنعكس المتسلسل
Chronic phobia	الخواف المزمن
Circular reasoning	الاستدلال الدورى
Comparative anatomy	التشريح المقارن
Conception	معنى كلى
Concrete	عيـــانى
Conscience	ضـــمير
Conscious	شـــعور
Co-ordination	تـــآزر
Cortical linkage	الروابط اللحائية

D

Degenerative cases	حالات التحلل
Degenerative infantile sexuality	الجنسية الطفلية الانحلالية
Degenerative phases	أطوار التحلل
Delusion	هجـــاس ـ هذاء
Dissociation	تفكك
Dream symbolism	رمزية الأحـــلام
Dream thought	فكرة الحـــلم
Dualism	الثنويـــة
Dualist	ثنـــوى
Dynamic stereotypes	القوالب الدينامية
Dynamic trauma	اصابة دينامية

E

Echolalia	المصــــاداة
Echopraxia	الحراك
Effect	معلول
Ego ideal	مثال الأنا
Egoism	أنانية
Emotionalism	الانفعالية
Empirical	تجربى
Entelechy	انتلخيا ـ الكمال
Erogenous zone	المنطقة الشهوية
Erotic	شبقى ـ شهوى
Erotic instincts	غرائز الشهوة
Erotogenic	شهوى المنشأ
Esoteric introspection	الاستبطان الخفى
Excitability	القابلية للاثارة
Expedient eclecticism	الانتقالية النفعية
Experimental neurosis	عصاب تجريبى
Experimentation	تجريب
Externalization	استخراج
Extra-senrory perception	الادراك الفوق حسى
Evolutionary psych.	علم النفس التطورى

F

Factor	عامل
Fantasies	تخيلات
Female inferiority	الدونية الانثوية
Free association	التداعى الطليق
Frontal lobe	الفص الأمامى للمخ
Frustration	احبـــاط
Fused conditioned reflexes	الأفعال المنعكسة الشرطية المتلاحمة

G

Genital phase	المرحلة التناسلية
Genital zone	المنطقة التناسلية
Genus	جنس

H

Hallucinatory wish-fulfilment	الاشباع الهلاسى للرغبات
Hebephrenia	فصام المراهقة
Hemianopsia	العمى النصفى المتساوب
Homosexuality	استجناس ـ الجنسية المثلية
Humanism	المذهب الانسانى
Hunger instinct	غريزة الجوع
Hypnosis	التنـــويم
Hypnotic suggestion	الايحاء التنويمى ـ الايحاء اثناء التنويم
Hysteria	هســـتيريا

I

Idea-memory	الفكرة التذكارية
Imagery	رؤى بصرية
Impulse	دافـــع
Incest barrier	الســـياج المحرمى
Infantile auto-erotism	العشق الذاتى الطفل
Infantile factor	العـامل الطفل
Infantile sexuality	الجنســـية الطفلية
Inhibition	الكف
Insight	اســـتبصار
Instinct presentations	ممثلات الغريزة
Instrumentalism	مذهب الذرائـع
Intensity	شـــدة
Introspection	اســـتبطان
Intuition	حـــدس
Irrationalism	اللاعقلية
Involuntary association	التداعى اللاارادى

L

Latent dream content	المحتوى الكامن للحلم
Lay analysis	التحليل الدارج
Libidinal or sexual love	عشق جنسى أو ليبيدى
Libido	الليبيدو
Linkage	وصـــلة

M

Male superiority	التفوق الذكرى
Manifest dream	الحلم الظاهر ـ
Manifest dream material	مادة ظاهر الحلم
Masculinity complex	عقدة الذكورة عند النساء
Mass neurosis	عصاب جمعى
Masturbation instinct	غريزة الاستمناء
Mechanistic materialism	المادية الميكانيكية
Mechanistic threshold	العتبة الميكانيكية
Medullary tract of the brain	المسار النخاعى للمخ
Mental topography	طوبوغرافيا العقل
Metabolism	الايض
Meta- psychology	الميتاسيكولوجيا ـ ما وراء علم النفس
Monistic materialism	المادية الواحدية
Monogomy	وحدة الأزواج والزوجات
Motor area	المنطقة الحركية

N

Narcissism of sleep	نرجسية النوم
Naturalism	المذهب الطبيعى
Negativism	خـــلاف
Nervous conduction	التوصيل العصبى
Nervous impulse	دافع عصبى
Nervous system	الجهاز العصبى
Neurasthenia	نيوراستينيا
Neuro-anatomy	التشريح العصبى
Neurology	علم الأعصاب
Neuropathology	علم الأمراض العصبية
Neuron	العصبة (النيورون)
Neurosis	العصاب
Neurotic hysterical paralysis	الشلل الهستيرى العصابى
Neurotic symptoms	الأعراض العصابية
Neurotica	علم العصاب (النيوروتيكا)
Normal	ســـوى

O

Obsession	العصـــار
Obsessive passion	رغبة حصارية
Occipital region	المنطقة القذالية
Oedipus complex	عقدة أوديب
Oedipus phase	المرحلة الأوديبية
Ontogenic	التطور النشوئي الفردى (المكتسب)
Operational	اجرائي
Oral phase	المرحلة الفمية
Oral zone	المنطقة الفمية
Organic cerebral paralysis	الشلل العضوى المخى
Organic paralysis	الشلل العضوى
Orientation reflex	الفعل المنعكس الفطرى الموجه

P

Paralysis	شـــلل
Paralysis of speech	شلل الكلام
Paranoia	بارانويا
Pathological anatomy	التشريح الباثولوجى
Pathological inertness	الخمود المرضى
Patriarchal horde	التجمع الأبوى
Penis envy	الغيرة القضيبية
Perception	ادراك
Phallic phase	المرحلة القضيبية
Philosophy of as if	فلسفة كان
Phylogenetic	التطور النشوئي النوعى (الفطرى)
Phobia	خواف
Physical energy	الطاقة الطبيعية
Physical — Mathematical method	المنهج الطبيعى الرياضى
Physical symptom	عرض بدنى
Physiological somatic theory	النظرية الفسيولوجية البدنية
Potential	بالقوة
Preconscious	القبشعور
Pregenital	قبتناسل
Primitive narcissism	النرجسية البدائية

Principle of Ambivalence	مبدأ التناقض الوجداني
Project	مشروع
Projection	اسقاط
Psychic charge	شحنة نفسية
Psychical systems	النظم النفسية
Psychical trauma	صدمة نفسية
Psychic energy	الطاقة النفسية
Psychic locality	الموضعية النفسية
Psychic instrument	الأداة النفسية
Psychic performance	الأداء النفسي
Psycho analysis	التحليل النفسي
Psychogenic	نفسي المنشأ
Psycho-neurosis	العصاب النفسي
Psychopathology	علم الأمراض النفسية
Psycho-physical parallelism	مذهب التوازي النفسيدني
Psychotherapy	العلاج النفسي
Puberty	المراهقة

R

Racial unconscious	اللاشعور السلالي
Rational psychotherapy	العلاج النفسي العقلاني
Reactability	قابلية الارجاع
Reality principle	مبدأ الواقع
Reductionist	ردي
Reflex activity	النشاط الانعكاسي
Regression	نكوص
Reichert Formula	صيغة رايخرت
Reasoning by analogy	الاستدلال القياسي ، استدلال النظير
Repression	كبت
Resistance	ممانعة ـ مقاومة
Retention of Cathexis	ادخار الشحنة
Return of the repressed	عودة المكبوت

S

Sadistic anal organization	التنظيم السادى الشرجى
Schizophrenia	فصام
Self-consciousness	الشعور الذاتى
Self-observation	ملاحظة ذاتية
Sensation	احساس
Simultaneity	تزامن
Sleep inhibition	الكف النومى
Somatic	بدنى
Somatic ideology	ايديولوجية البدن
Somatogenic	بدنى المنشا
Spinal cord	النخاع الشوكى
Static threshold	العتبة السكونية
Stereotypy	نمطى ـ الأوضاع الحركية النمطية
Sublimation	تسامى ـ اعلاء
Substance	جوهر
Substructure	بناء تحتى
Super-ego	الأنا الاعلى
Superstructure	بناء فوقى
Symbol translation	ترجمة الرموز
Symptomatic action	السلوك العرضى
Syndromes	مركبات الأعراض . متلازمات عرضية
Synthesis	تركيب

T

Taboo	تابو ـ المحرمات
Tactile reaction	ارجاع لمسى
Teleology	غائية
Temporary association	الترابط الشرطى الوقتى
Tendency	ميــل
Theory of localization	نظرية تمركز الوظائف العقلية فى الدماغ
Thinking if action	التفكير المباشر من خلال السلوك
Thinking in memory images	التفكير المباشر من خلال صور الذاكرة
Tonic reflexes	الأفعال المنعكسة التوترية

English	Arabic
Torpor	بلادة
Totem	الطوطم
Trauma	صدمة ـ اصابة
Traumatic experience	خبرة صدمية
Traumatic memory	ذكرى صدمية
Traumatic memory — Symbols	رموز الذكرى الصدمية
Traumatic scene	المشهد الصدمي
Transference	الطرح
Tropism	انتحاء

U

English	Arabic
Unconscious	اللاشعور
Unconscious appetitions	الدوافع الشهوية اللاشعورية
Unconscious id	الهو اللاشعوري
Unconscious super-ego	الأنا الأعلى اللاشعوري

V

English	Arabic
Verbal associations	مستدعيات لغوية
Vitalism	المذهب الحيوي
Voluntarism	مذهب الارادة

W

English	Arabic
Wish — impulse	الرغبات الدوافع ـ الرغبات الدافعية

- الفصل العاشر :

فرويد والمرض العقلى ١٣٥

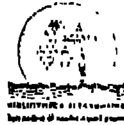
- الفصل الحادى عشر :

بافلوف والمرض العقلى ١٥٩

- الفصل الثاني عشر :

بافلوف وفرويد ١٦٩

الهيئة المصرية العامة للكتاب



رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٨/٤٧٠٥
ISBN ٩٧٧ ٢٠١ ٦٢١ ٤

5

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب